فلسفة الحكم عند الإمام

بقلم

الدكتور نوري جعفر

مطبعة الزهراء - بغداد

١٩٥٧



فلسفة الحكم عند الإمام

مات علي شهيد عظمته ...
شأن جميع الانبياء الباصرين الذين
يأتون الى بلد ليس ببلدهم والى قوم
ليسوا بقومهم فى زمن ليس بزمنهم .

جبران خليل جبران

عظيم من عظماء البشرية ...
انبتته ارض عربية ولكنها ما استأثرت
به وفجر ينابيع مواهبه الاسلام ولكنه
ما كان للاسلام وحده .

ميخائيل نعيمة

بقلم

الدكتور نوري جعفر



مطبعة الزهراء - بغداد

١٩٥٧

تقـــديم

بدأت الدراسة التاريخية المنظمة للتراث الاسلامى والعربى فى اوائل نشوء الدولة العباسية قبل اكثر من الف عام . وساهم فى ذلك فريق كبير من الكتاب اللامعين ، وفى مقدمتهم : ابن قتيبة (الذى توفى عام ٢٧٠ هـ) والبلاذرى (٢٧٩ هـ) واليعقـوبى (٢٨٤ هـ) والدينـورى (٢٩٠ هـ) والطبـرى (٣١٠ هـ) والمسعودى (٣٤٦ هـ) وابن مسكويه (٤٤١ هـ) والخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) وابن عساكر (٥٧١ هـ) وابن الاثير (٦٣٠ هـ) وابن خلكان (٦٨١ هـ) وابو الفداء (٧٣٢ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) والمقريزى (٨٤٥ هـ) ... والفت كتب كثيرة فى هذا الباب وعلى رأسها : « انساب الاشراف » و « مروج الذهب ... » و « تاريخ الامم والملوك » و « تجارب الامم » و « تاريخ بغداد » و « الكامل فى التاريخ » و « اسـد الغابة ... » و « وفيات الاعيان » و « فوات الوفيات » و « كتاب العبر ... » و « امتاع الاسماع ... » . هذا بالاضافة الى الكتب التى الفها مؤرخو السيرة النبوية كابن هشام والواقدى ... وكتب التراجم لابن سعد وابن حجر ...

وكتب الحديث للبخارى ومسلم واحمد بن حنبل ... وكتب الادب (التى تحتوى على دراسة التاريخ ايضا) للجاحظ والمبرد وابى حيان والاصبهانى ...

ولم ينقطع البحث فى هذا التراث - منذ نشوئه - حتى يومنا هذا (مع ما رافق ذلك من اختلاف كبير فى مقوماته ونتائجه نظرا لاختلاف ثقافة الباحثين وتغير طبيعة الاوضاع الاجتماعية العامة التى يواجهونها مع ما يرافقها من اختلاف فى مزاج العصر الذى يعيشون فيه) . وقد تصدى للبحث فى التراث الآنف الذكر - في الوقت الحاضر - رعيل من ابرز الكتاب العرب وفى مقدمتهم : الشيخ محمد رضا الشبيبي والدكتور طه حسين والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ توفيق الحكيم والاستاذ مصطفى صادق الرافعى والاستاذ سيد قطب والشيخ عبدالله العلائلى والاستاذ عبدالفتاح عبدالمقصود والاستاذ جورج جرداق ... بحث هؤلاء الذوات - وكثيرون غيرهم - فى اكثر من وجه من وجوه هذا التراث والف اكثرهم اكثر من كتاب فيه . فصدرت كتب قيمة فى هذا الباب وفى مقدمتها : « مؤرخ العراق ابن الفوطى » و « عثمان بن عفان » و « علي وبنوه » و « عبقرية عمر » و « عبقرية الامام » و « معاوية بن ابى سفيان فى الميزان » و « حياة محمد » و « الامام علي بن ابى طالب » و « الامام علي : صوت العدالة الانسانية » ...

يضاف الى ذلك ان غالبية « الدكاترة » و « الاساتذة » الذين تخرجوا بجامعات الغرب وبالجامعات الموجودة فى بعض ارجاء العالم العربى قد قدمت رسائلهم - لاحراز الشهادة العالية فى التاريخ الاسلامى او الادب العربى - وهى منطوية على البحث فى التراث الانف الذكر : تارة فى احد جوانبه وطورا في

احدى شخصياته . فألفت فى هذا الباب كتب كثيرة منها - على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر - « الاصمعى » و « المعتزلة » و « نقائض جرير والفرزدق » و « الطبيعة فى الشعر العربى » و « ابن خلدون » و « الغزل فى الشعر العربى » و « ابو حيان التوحيدى » و « القصص فى القرآن » و « الشعر السياسى فى العراق فى القرن التاسع عشر » و « ادب الشريف المرتضى » و « الصراع بين العرب والموالى » ... هذا عدا الابحاث الاخرى التى قام بها فريق آخر من الكتاب : صدر منها مثلا : « هرون الرشيد » و « وعاظ السلاطين » و « عصر المأمون » و « عمرو بن العاص » و « خالد بن الوليد » و « ابو العلاء المعرى » و « ابن الرومى » و « ابو الطيب المتنبى » ...

اما المقالات والمحاضرات المتعلقة بهذا النوع من الابحاث فلا تكاد تقع تحت حصر . واما مناهج الدراسة الحكومية - فى ارجاء العالمين العربى والاسلامى - فمملوءة هى الاخرى بهذا النوع من الابحاب فى مختلف وجوهها وبمقدار يحتل « حصة الاسد من الغنيمة » كما يقولون .. فلست اذن اول من تصدى للبحث فى هذا الموضوع ، او الذى اقتصر بحثه عليه ، على ان لولعى فى البحث فيه قصة طريفة اود ان اروى خطوطها العامة للقارىء بشىء من الايجاز غير المخل :

عدت الى العراق فى اواخر عام ١٩٤٩ بعد ان انهيت دراستى خارجه . ولم يدر بخلدى آنذاك ان انصرف الى دراسة موضوع التاريخ الاسلامى بله الكتابة فيه . غير انى رغبت - بعد رجوعى باشهر قليلة - فى الاطلاع المباشر على امهات كتب اللغة والادب العربى . فتناولت (صدفة) شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد بمجلداته الاربعة . وكان غرضى - بالدرجة الاولى - لغويا . فلم اعر ، والحالة

هذه ، وقائع التاريخ التى كانت تمر عليّ (بصورة مستمرة) فى ثنايا الكتاب الا جانبا ضئيلا من الاهتمام والتتبع • غير انى (بحكم استرسالى بمطالعة الكتاب) اصبحت غير قادر — على الرغم مما ابديته من مقاومة فى بادىء الامر — على تجنب الاهتمام بتلك الحوادث : فقد فرض بعضها نفسه عليّ فرضا الامر الذى اضطرنى (اثناء مطالعة ما يتصل بخلافة عثمان بن عفان بصورة خاصة) ان اعود من جديد الى قراءة الكتاب المذكور (قبل انجازى مطالعته) — هذه المرة لغرض الاطلاع على حوادثه التاريخية بالدرجة الاولى ، مع الاهتمام العرضى بجوانبه اللغوية فى المتن والشرح على السواء • فظهر لى (بعد ان انجزت مطالعة الكتاب بمجلداته الاربعة) ان هناك بونا شاسعا بين ما دونه ابن ابى الحديد وبين ما درسته فى دروس التاريخ الاسلامى اثناء مراحل الدراسة الثلاث (الابتدائية والثانوية ودار المعلمين العالية) : سواء أكان الذى درسته مسطورا فى كتب التاريخ المدرسى ام متصلا بما ذكره المدرسون • فطفقت ابحث عن « الحقيقة » فى امهات كتب التاريخ الاسلامى • وقد اتاح لى اقصائى عن خدمة الحكومة (كما استلزمت ذلك المصلحة العامة التى قدرها السيد ارشد العمرى رئيس الوزراء والدكتور عبدالحميد كاظم وزير المعارف آنذاك) فرصة نادرة للبحث فى هذا الموضوع بالذات • وقد بقى هذا الموضوع يلاحقنى منذ ذلك الحين : فبرز علي بن ابى طالب امامى كالعملاق : كلما « انتهيت » من البحث فى احد جوانبه تجسمت ضآلة ذلك البحث (على الرغم مما ابذله من جهد فى تهيئته) ، واندفعت الى البحث فى جانب آخر من جوانب تلك الحياة الزاخرة بضروب الفضيلة والمجد • فكأننى لا انتهى من البحث فى جانب معين من جوانبها الا لاتفرغ الى البحث فى جانب آخر • ولست ادرى — وايم الحق — متى انتهى من هذا

البحث الذى يجمع بين القديم والجديد !! فالمحفزات على البحث فيه كثيرة تأتى من التاريخ الاسلامى نفسه ومن طبيعة الاوضاع العامة التى يتعرض لتأثيرها العرب والمسلمون فى هذا العصر الذى نعيش فيه .

على ان القراء - مع ذلك - سيقفون من هذا الكتاب مواقف متناقضة فيما يتصل بقدير قيمته من حيث موضوعه بالنسبة للظروف العالمية الراهنة من جهة ، وفيما يتعلق بمحتوياته نفسها وطبيعة الاحكام التى ينطوى عليها من جهة أخرى . ويعود ذلك على ما ارى الى اختلاف مستوياتهم الفكرية وظروفهم العامة وعنعناتهم واتجاهاتهم الفلسفية والاجتماعية . وسيتخذ بعضهم - دون شك - (وخاصة الذين اتخذوا الدين الاسلامى والتاريخ وسيلة للكسب المادى والمتاجرة) من هذا الكتاب قميصا جديدا لعثمان - لمهاجمة المؤلف وتأليب الناس عليه . وسيغفل - فى زحمة ذلك - امر التحدث عن الكتاب وينشغل اولئك بالتحدث عن مؤلف الكتاب . قال عليّ - فى هؤلاء ومن هم على شاكلتهم من القدامى والمحدثين من وعاظ السلاطين - : « يأتى على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن الا رسمه ومن الاسلام الا اسمه : مساجدهم - يومئذ - عامرة من البناء خراب من الهدى . سكانها وعمارها شر اهل الارض - منهم تخرج الفتنة واليهم تأوى الخطيئة . »

وهناك فريق آخر من القراء سيقول (بحكم ثقافته الحديثة) : نحن فى عصر الذرة وفى عالم الاقمار الطائرة - التى لا تنسجم بطبيعتها مع هذا النوع من الابحاث . وجوابنا على ذلك : نعم : اننا نعيش - دون شك - فى عصر الذرة وفى عالم الاقمار الطائرة . ولكننا نعيش ايضا (والى المدى الاكبر) - فى العراق وخارجه - فى عالم العلاقات الاجتماعية والصلات التاريخية البعيدة

والقرية على السواء • ولو كان الامر على خلاف ذلك لتعطل معظم اوجه النشاط العلمى والاجتماعى (فى اغلب حقول المعرفة الانسانية) فى المجتمع الانسانى الحديث ، ولتوقفت الدراسة فى معظم الجامعات ودور العلم فى ارجاء المعمورة • على اننا (فى العراق) مع هذا لا نعيش - فى الواقع - الا على هامش الذرة والاقمار الطائرة • ولا يخرج « عيشنا » هذا عن نطاق التحدث عن الذرة والاقمار الطائرة احاديث على جانب كبير من الضحالة من الناحية العلمية • على ان موضوع هذا الكتاب - مع ذلك - لا يحول باية حال من الاحوال بين « فطاحل » علماء الذرة والصواريخ والاقمار الطائرة من العراقيين وبين البحث فيها وانتاجها - ولا يعرقل ما هو متوافر لديهم من مقومات البحث كالاجهزة العلمية والمختبرات • ولكن هذا الامر (مع كل ما ذكرناه) اعمق من ذلك بكثير : فالبحث فى الذرة وفى القمر الطائر ما هو فى واقعه (بعد التحليل الدقيق) الا وجه واحد فقط من اوجه الصراع المرير بين فلسفتين فى الحكم مختلفتين كل الاختلاف : تسعى كل واحدة من الفلسفتين - ضمن اطارها النظرى فى السياسة والاقتصاد - (بنظر حملتها) الى تطبيق مبدأ العدالة الاجتماعية باوسع مدى ممكن فى شتى ميادين الحياة بين افراد المجتمع الانسانى على اختلاف مواقعهم الجغرافية ولغاتهم والوان بشـراتهم • ولا يتسنى لكل منهما ان تحقق ذلك ، من الناحية الواقعية التطبيقية (بنظر حملتها) الا اذا ازيلت معالم الاخرى من عالم الوجود • وفلسفة الامام - الذى نحن بصدد البحث فى أهم مقوماتها - كانت قد سعت (من الناحيتين النظرية والتطبيقية) الى نشر مبدأ العدالة الاجتماعية بين الناس - فى حدود اطارها النظرى فى السياسة والاقتصاد • فاذا نظرنا الى موضوع الكتاب من هذه الزاوية اصبح بمقدورنا ان

نقول : انه يستمد مقوماته العامة فى البحث من طبيعة مشلات المجتمع الانسانى المعاصر فى الاخلاق والسياسة والاقتصاد ، وان كانت حوادثه قد وقعت ـ من الناحية التاريخية ـ قبل زهاء ثلاثة عشر قرنا .

لقد بحثت (كما سيرى القارىء عند مطالعته هذا الكتاب) فى حياة عليّ مجردة من كل شىء الا من مقوماته الشخصية وتصرفاته العامة فى القول وفى العمل ـ كما يبحث الكتاب المعاصرون فى حياة الساسة ورجال الفكر من القدامى والمحدثين امثال : افلاطون ونابليون وموسولينى وروزفلت وستالن وجرجل .... وقد ساقنى البحث (بحكم تشعبه ـ واستكمالا لمستلزماته من الناحية التاريخية) الى التحدث عن (والموازنة بين) علي ومعاصريه من الحكام ـ وخاصة فى الفصل الرابع من الكتاب . فاطلقت طائفة من الاحكام الاجتماعية ـ التى قد تبدو صارمة بنظر بعض القراء ـ على ان تلك الاحكام ـ مع هذا ـ تحتمل الخطأ والصواب . وهى قابلة للنقد والتجريح من قبل المعنيين بدراسة امثال هذه الابحاث . ولهذا فأنى ارحب غاية الترحيب بكل تعليق نزيه ومناقشة علمية يصدرها المختصون فى هذا الباب .

بغداد فى : ١٦ـ١١ـ١٩٥٧ **نورى جعفر**

اهم مصادر البحث

١ ـ ألقرآن

٢ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ـ المطبعة المنيرية فى القاهرة ٠

٣ ـ ابن الاثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ المطبعة الوهبية فى القاهرة ١٢٨٠ هـ ٠

٤ ـ ابن ابى الحديد : شرح نهج البلاغة ـ المطبعة الميمنية فى القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ ٠

٥ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ـ المطبعة الميمنية فى القاهرة ـ ١٣١٠ هـ ٠

٦ ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية فى القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ ٠

٧ ـ ابن هشام : سيرة النبى محمد ـ مطبعة حجازى فى القاهرة ٠

٨ ـ ابو الفداء : فوات الوفيات ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ الطبعة الاولى ٠

٩ ـ أحمد بن حنبل : المسند ـ المطبعة الميمنية فى القاهر ٠

١٠ ـ البخارى : صحيح البخارى ـ دار الطباعة العامرة فى آسطنبول ٠

١١ ـ برهان الدين الحلبى : السيرة الحلبية ـ مطبعة مصطفى محمد فى القاهرة ٠ وسيرة دحلان فى هامشها ٠

١٢ ـ البلاذرى : انساب الاشراف ـ المطبعة العربية فى القدس ـ ١٩٣٦ ٠

١٣ ـ الزمخشرى : الكشاف ـ مطبعة الاستقامة فى القاهرة ـ ١٩٥٣ ٠

١٤ ـ الطبرى : تاريخ الامم والملوك ـ المطبعة الحسينية فى القاهرة ٠

١٥ ـ الغزالى : احياء علوم الدين ـ المطبعة الميمنية فى القاهرة ـ ١٩١٣ ٠

١٦ ـ القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ـ المطبعة الاميرية فى القاهرة ـ ١٩١٣ ٠

١٧ ـ المقريزى : امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة ـ ١٩٤١ ٠

١٨ ـ نصر بن مزاحم : وقعة صفين ـ دار احياء الكتب العربية فى القاهرة ـ الطبعة الاولى ٠

١٩ ـ الواقدى : مغازى رسول الله ـ مطبعة السعادة فى القاهرة ـ ١٩٤٢ ٠

اما مجلدات شرح نهج البلاغة (التى اخذت منها كلمات الامام الموجودة فى ثنايا الكتاب وخاصة فى الفصول الثلاثة الاولى) وارقام صحائفها فهى :

(أ) المجلد الاول : ٩٠ و٩١ و١٧٦ و١٨٠ ـ ١٨٢ و٢١٦ و٩٠٦ ٠

(ب) المجلد الثانى : ٣٥ ـ ٣٨ و١٧٢ و١٧٣ و٣٠٥ و٣٧٨ و٤٠٣ و٤٩٠ و٥١٣ و٥٥٦ و٥٧٢ ٠

(ج) المجلد الثالث : ٣ و٢٩ و٣٤ و٨٠ و٢٣٩ و٤٣٤ و٤٣٥ و٤٣٩ و٤٤٠ و٤٤٢ ٠

(د) المجلد الرابع : ٢٤ و٣٠ و٣٣ و٣٥ و٣٦ و٣٩ و١٠٦ و١١٩ ـ ١٥٢ و١٦٣ و٢٢٢ و٢٣٠ و٢٦٨ و٢٧٥ و٢٨٦ و٣١٤ و٣١٦ و٣٣٤ و٤٠٠ و٤٠٨ و٤١١ و٤١٣ و٤١٦

ثبت الكتاب

كتب أخرى للمؤلف

أ ـ ماثل للطبع :

١ ـ صالح جبر : كفاءاته وظروفه السياسية . يصدر فى ١٩٥٨/٦/٦ بمناسبة مرور عام على وفاته .

٢ ـ ملاحظات على التعليم فى العراق . مناقشة اسس سياسة التعليم فى العراق من الناحيتين النظرية والتطبيقية العملية فى ضوء مبادىء النظام الديمقراطى وعلم النفس الحديث .

٣ ـ المبادىء والرجال : دراسة تحليلية عامة للمبادىء النظرية ـ وخاصة السياسية منها ـ فى ضوء تصرفات الاشخاص الذين يتظاهرون بأنهم يحملونها .

٤ ـ العباسيون فى التاريخ : دراسة تحليلية عامة لطائفة من الجرائم الكبرى فى التاريخ .

ب ـ انجز طبعه :

٥ ـ السلطة والفرد . مترجم عن الانكليزية ـ بقلم برتراند رسل : ١٩٥٠ .

٦ ـ التربية وفلسفتها : ١٩٥٢ . (نفد)

٧ ـ التاريخ : مجاله وفلسفته : ١٩٥٤ .

٨ ـ جون ديوى : حياته وفلسفته : ١٩٥٥ .

٩ ـ العلوم الطبيعية وأثرها فى سير المدنية الحديثة : ١٩٥٦ .

١٠ ـ عليّ ومناوئوه : ١٩٥٦ (نفد) وسيعاد طبعه منقحا قريبا .

١١ ـ الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام : ١٩٥٦ .

١٢ ـ فلسفة الحكم عند الامام : ١٩٥٧ .

مقدّمة

يسرنى ان اضع بين يدى القارىء هذه الدراسة عن فلسفة الحكم عند الامام .
بحثت فى الفصل الاول منها الجانب الاخلاقى وفى الفصل الثانى الجانب السياسى
وفى الفصل الثالث الجانب المالى . اما الفصل الرابع فيروى للقارىء فلسفة الامام
- فى جوانبها الثلاثة - من حيث صلتها بظروف التاريخ وملابساته فى النصف الاول
من القرن الاول الهجرى . وهذا الفصل مكون من قسمين : يبحث القسم الاول
منهما فى اوجه الشبه بين سيرة النبى وسيرة الامام من جهة ، ويتطرق الى جوانب
الاختلاف بين الظروف التى عاش كل منهما فيها من جهة أخرى . وقد سميته بين
رسول الله وعلى بن ابى طالب . ويتناول القسم الثانى منه ضروب المقاومة التى
ابداها الانتهازيون وذوو المصالح المركزة لاحباط سياسة الامام الرامية الى تطبيق
مبدأ المساواة بين المسلمين فى شتى مناحى الحياة وفق نصوص القرآن وسيرة
النبى . وقد سميته « الامام وقوى الشر » .

لقد ساقنى البحث فى الفصول الثلاثة الاولى من هذه الدراسة الى الاعتقاد
بان فلسفة الحكم عند الامام فلسفة اخلاقية فى جوهرها . تستند الى الفضيلة :

تشجعها وتغرسها فى نفوس الناس • وتكافح الرذيلة وتدعو الى استئصالها من عالم الوجود • تفعل ذلك فى الحالتين (الايجابية والسلبية) فى موقفها من الفضيلة والرذيلة فى مجال الفكر واليد واللسان • وهذا يعنى ان الاخلاق عند الامام فكرة وسلوك فى ان واحد : سلوك فى القول وسلوك فى العمل • أى ان فلسفة الحكم عند الامام ، بعبارة أخرى ، فلسفة تستند – من حيث الاساس – الى وحدة الوسائل والغايات • وهى بهذا المعنى تمقت الوصولية او الانتهازية بشتى صورها ومختلف مجالاتها • والسير وفق المثل الاخلاقية العليا التى جاء بها الاسلام – عقيدة وقولا وفعلا – فى ميدان الادارة العامة لتعيين الصلة (نوعها ومداها) بين الحكومة والشعب من حيث حقوق الافراد وواجباتهم العامة هو الجانب السياسى لفلسفة الحكم عند الامام • ويتجلى هذا الجانب من جوانب فلسفة الحكم عند الامام باروع اشكاله اذا تذكرنا ان السياسة ترتبط (من حيث الصلة بين جوانبها النظرية والعملية) باذهان كثير من الناس ببعدها عن مستويات الاخلاق الرفيعة • وسبب ذلك على ما يبدو هو ان الساسة – كالشعراء بنظر القرآن – يقولون ما لا يفعلون • وبعبارة ادق يفعلون نقيض ما يقولون • وقد افرد الكاتب الايطالى الذائع الصيت – ميكيافيلى – كتابا خاصا وضعه فى مطلع القرن السادس عشر (للموازنة بين اقوال الساسة فى مجتمعه وبين افعالهم التى تناقضها) سماه « الامير » • فوصف السياسى الحاكم بانه « الشخص الذى يكون خلقه مزيجا من الانسانية والحيوانية • فلا هو بالانسان الصرف ولا الحيوان الصرف فى تصرفاته تجاه الخاضعين له • على انه فى الجانب الحيوانى يكون كالاسد تارة وكالثعلب تار أخرى • فالاسد لا يستطيع ان يتغلب على الخصم او ان يتملص من شراكه بالحيلة والمراوغة او المداهنة اذا اقتضى الامر

ذلك . ولا يستطيع الثعلب ان يتغلب على الخصم او يتخلص من شراكه بالقوة الجسمية اذا استلزمت الظروف ذلك . ومن ابرز صفات السياسى الناجح انتفاء وجود أية عقيدة لديه « اللهم الا عقيدة اللاعقيدة .لان اعتناق عقيدة معينة والسير وفق مستلزماتها لا يتفق دائما هو ومصلحة السياسى . فهو كالماء يتكيف حسب الاناء الذى يحل فيه .

اما الجانب المالى من فلسفة الحكم عند الامام فهو السير فى النهج الذى ذكرناه فى مجال الثروة والخدمات العامة من حيث الانتاج والتداول والاستهلاك ، وما يتصل بذلك من روابط اجتماعية فى الحالتين السلبية والايجابية بين افراد الشعب من جهة وبينهم ـ منفردين ومجتمعين ـ وبين الحكومة من جهة أخرى .

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : ان الامام سعى ـ عن طريق تصرفاته العادلة ـ الخاصة والعامة فى العقيدة والقول والفعل مع انصاره وخصومه ـ الى تهيئة الظروف الاجتماعية الملائمة لنمو الفضيلة وازدهارها فى شتى ميادين الحياة . وسبب ذلك هو ان الفضيلة ـ بنظره ـ كالبذرة تحتاج فى نموها الكامل الى ارض صالحة والى ظروف مناخية تلائمها . اما محاولة نشر الفضيلة عن طريق الوعظ (وعدم الترفع عن تعاطى الرذيلة فى العمل) فقد ثبت فشلها . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ان أية فلسفة فى الحكم يراد تطبيقها فى مجتمع من المجتمعات لاتعمل (فى جوانبها النظرية والعملية التطبيقية) الا ضمن اطار اجتماعى تنتشر فيه آثار الماضى القريب والبعيد من الناحيتين المادية والفكرية . ولا يتسنى تنقية الجو الاجتماعى وتهيئته لقبول فلسفة جديدة فى الحكم الا عن طريق تبديل عادات افراده وعقائدهم القديمة التى لا تنسجم هى والفلسفة الجديدة فى الحكم . غير

ان ذلك الامر على جانب من الصعوبة كبير • على انه ـ مع ذلك ـ اصعب فى جوانبه التطبيقية منه فى جوانبه النظرية • فقد يرضخ كثير من الناس للامر الواقع ـ كما يقال ـ ويستسلمون (راضين او مكرهين ، مؤمنين او متظاهرين) للفلسفة الجديدة • ولكنهم يتمردون عليها ـ من الناحية العملية التطبيقية ـ وبخاصة اذا كان ذلك يعمل على حفظ مصالحهم • يضاف الى ذلك ان التسليم ـ الحقيقى ـ بالجوانب النظرية لفلسفة معينة فى الحكم لا يسوق صاحبه الى العمل وفق مستلزمات تلك الفلسفة الا الى المدى الذى يتناسب هو وعمق ذلك التسليم • فهو كالطاقة التى تنشط صاحبها الى امد ثم تزول • ويتجلى مقدار تعلق الشخص بفلسفة معينة بمدى التضحية التى يقدمها فى سبيلها وخاصة فى جوانبها التطبيقية • اما الحاكم فيقاس ذلك عنده بمدى التزامه به فى القول وفى العمل ـ فى تصرفاته العامة والخاصة مع خصومه وانصاره على السواء • وقد بلغ على الذروة فى هذا الباب •

ان مقياس نجاح الحاكم ـ بنظر الامام ـ ليس هو البقاء فى دست الحكم والتخلص من المناوئين والمعارضين والخصوم واستمالة الناس بالوسائل الفاسدة مثل الضغط والتخويف او الرشوة والملاينة • كلا • ولاهو القيام باصلاحات جانبية عرضية على حساب هدم الاطار العام للاصلاح الاجتماعى الشامل او تحويل اتجاه سيره وتضليل الناس والهائهم عن مراقبة ذلك ومحاسبة المهيمنين عليه • ان مقياس نجاح الحاكم ، بنظر الامام ، يقاس بمدى الوعى الذى يثيره فى الرعية لتفهم طبيعة مشكلات المجتمع الذى يعيشون فيه والمساهمة الايجابية المباشرة وغير المباشرة فى علاج تلك المشكلات بالاسلوب السليم وضمن اطار يتجه سيرة العام نحو تحقيق

العدالة الاجتماعية فى جميع مناحى الحياة • ووظيفة الحاكم الناجح – فى هذه الناحية – هى قيادة سفينة المجتمع فى الاتجاه الانف الذكر • وهذا الامر – كما لا يخفى – من اصعب الامور وخاصة فى جوانبه الواقعية العملية • واذا كان الامر كذلك فان تحقيقه لا يتم فى نطاقه الواسع اثناء حياة ذلك الحاكم من الناحية الزمنية • واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان الحاكم الناجح هو الذى يسير بالاتجاه السليم فى فترة حكمه • اما الاستمرار على ذلك الاتجاه بعد وفاته فأمر لابد من حدوثه فى المدى البعيد رغم ما يعترضه من صعوبات ومزالق يضعها فى طريقه الحكام الفاسدون • هذا من جهة ومن جهة ثانية فليس الاسلام بنظرنا مقصورا على مجموعة من العقائد والطقوس والعبادات ، بل هو – بالاضافة الى ذلك – مجموعة من المثل العليا والمبادىء الاجتماعية السامية فى حقل السياسة والاخلاق • وجوانبه الاجتماعية – بنظرنا – لاتقل اهميتها عن جوانبه العقائدية فى مجال الطقوس والعبادات • ومن يدرى فلعل الجوانب العقائدية وسيلة لرفع مستويات الاخلاق عند الناس • وتبدو اهمية ذلك واضحة فى تصرفات الحاكم تجاه المحكومين • وعلى هذا الاساس تصبح رسالة الاسلام غير مستوفية الشروط ، فى جوانبها العامة ، من الناحية السياسية اذا لم يكافح الحاكم وثنية المحكومين فى الذوق والسياسة والاخلاق • ولعل اهتمام الامام بهذا الجانب من جوانب الدين احد اسرار خلوده على مر الازمان •

ذلك ما يتصل بالفصول الثلاثة الاولى من هذه الدراسة • اما الفصل الرابع فيروى للقارىء – كما ذكرت – فلسفة الامام فى جوانبها الثلاثة ، من حيث صلتها بظروف التاريخ وملابساته فى النصف الاول من القرن الاول للهجرة • وقد

ظهر لى ـ اثناء بحثى فى هذا الوجه من وجوه الموضوع ـ بان هناك اوجه شبه كثيرة بين الفترة التى عاش فيها الرسول ـ منذ نزول الوحى عليه حتى وفاته ـ وبين الفترة التى عاش فيها الامام منذ ارتقائه منبر النبى حتى مصرعه • فكأن تاريخ الفترة التى قضاها النبى مبشرا بالاسلام ـ والتى بلغ طولها زهاء ربع قرن ـ قد أعيد مضغوطا ـ فى خطوطه العامة بالطبع ـ اثناء السنوات الخمس التى حكم فيها الامام • وهناك ـ من جهة ثانية ، اوجه شبه كثيرة بين سيرة الرجلين وبين طبيعة المشاكل التى تعرض لها كل منهما • وقد فطن الى ذلك ابو جعفر بن ابى زيد الحسين نقيب البصرة قبل زهاء سبعة قرون فاوجز الخطوط العامة للسيرتين ـ فى مواقع التشابه ـ وفى الظروف والملابسات التى احاطت بكل منهما حين قال :

« انه لا فرق عند من قرأ السيرتين : بين سيرة النبى وسياسة اصحابه ايام حياته وبين سيرة امير المؤمنين وسياسة اصحابه ايام حياته • فكما ان عليا لم يزل امره مضطربا معهم بالمخالفة والعصيان والهرب الى اعدائه وكثرة الفتن والحروب فكذلك كان النبى ••• فمن تأمل حال الرجلين وجدهما متشابهين فى جميع امورهما او فى اكثرها • وذلك لان حروب رسول الله مع المشركين كانت سجالا : انتصر يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم احد وكانت يوم الخندق كفافا ••• ثم حارب بعدها قريشا يوم الفتح فكان له الظفر • وهكذا كانت حروب على : انتصر يوم الجمل وخرج الامر بينه وبين معاوية على سواء فى صفين • ثم حارب بعد صفين اهل النهروان فكان الظفر له ••• ومن العجب ان اول حروب رسول الله كانت بدرا ، وكان هو المنصور فيها ، واول حروب على الجمل وكان هو المنصور فيها • ثم كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية ويوم صفين • ثم دعا معاوية ـ فى

آخر ايام على - الى نفسه وتسمى بالخلافة ، كما ان مسيلمة والاسود العنسى دعوا الى انفسهما فى آخر ايام النبى ... ولم يحارب رسول الله احـــد من العرب الا قريش ما عدا يوم حنين ولم يحارب عليا من العرب احد الا قريش ما عدا يوم النهروان[١] » .

لقد حاول رسول الله ان يرفع العرب من حضيض الجاهلية الى الاسلام بمستوياته الرفيعة فى الدين وفى الذوق وفى الاخلاق . وبالرغم من الجهود التي بذلها النبى فى هذا السبيل فقد بقى الكثيرون من العرب وثنيين - مقنعين - تمازج سلوكهم الشراسة والسماجة ولا ذوق لدى الكثيرين منهم بحيث ان بعضهم يبول فى المسجد بمحضر من رسول الله[٢] وبعضهم ينادية بمنتهى الخشونة والقحة من وراء الحجرات[٣] ، وبعضهم يدخل بيوت النبى دون اذن منه[٤] وبعضهم يترك الرسول خطيبا يوم الجمعة ويلحق بدحية بن خليفة عند قدومه بتجارة من الشام[٥] . وما شاكل ذلك مما نستطيع ان نسمى منه الكثير . غير ان الرسول - مع هذا - قد نجح قبل وفاته فى التبشير برسالته الاصلاحية الخالدة المستمدة من القرآن العزيز . وقد اقتض علي اثره فى هذا السبيل . ترى ما الذى حال بين الامام وبين انتشار نهجه القويم فى الحكم ؟ وبعبارة أخرى لماذا صرع الامام قبل انجاز رسالته

---

(١) ابن ابى الحديد شرح نهج البلاغة المجلد الثانى ص ٥٧٣ - ٥٧٥ .

(٢) الغزالى ، احياء علوم الدين ج٢ ص ٢٥٤ .

(٣) سورة الحجرات : ان الـذين ينـادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون .

(٤) سورة الاحزاب : « يا ايها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا اطعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث آن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى =

الخالدة المستمدة من القرآن وسنة النبى ؟ أى لماذا اخفق خصوم النبى فى القضاء عليه او تعطيل رسالته ولم يخفق خصوم الامام ؟

هناك على ما ارى اربعة عوامل كبرى ادت الى ذلك • هى :

١ ـ كان المجال الذى تحدث فيه تصرفات الرسول اكثر سعة ومرونة من المجال الذى تحدث فيه تصرفات الامام • وسبب ذلك ان الوحى كان بجانب النبى ينزل عليه بالتدريج وبصورة مستمرة ولم يفارقه منذ نبوته حتى وفاته • فكان الوحى ينزل عليه طريا فى كل مناسبة ليعين له النهج الذى ينبغى له ان يسير عله ـ فى حياته الخاصة والعامة مع خصومه وانصاره على السواء ـ ضمن نطاق الاسلام الذى كان اذ ذاك فى طريقه الى النمو والتكامل • فكان الوحى يخرج النبى من المآزق الحرجة ـ فى حالة مواجهته اياها ـ احيانا ، ويعمل على صيانته من التعرض لها قبل وقوعها احيانا اخرى • وهذا يعنى ان اطار تصرفات النبى كان يتسع بصورة مستمرة : يتكيف احيانا بتكيف الزمان والمكان ويكيفهما احيـــانا أخرى حسب مستلزمات الدين الحنيف • وكان ذلك يتم احيانا عن طريق النسخ ـ كما جاء فى سورة البقرة ـ مثلا ـ « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها الم تعلم ان الله على كل شيء قدير ••• » ، وفى سورة الرعد : « ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله لكل اجل كتاب • يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب • » وعن طريق الخروج على المألوف احيانا أخرى ـ كما جاء فى سورة البقرة : « يسألونك عن

= من الحق •• » وفى سورة النور : « يا ايها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ••• » •

(٥) سورة الجمعة : واذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما ••

الشهر الحرام قتال فيـه ؟ قل قتال فيـه كبير وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام واخراج اهله منـه اكبر عند الله ٠٠٠ » هذا فى الامور العامة ٠ اما فى الامور الخاصة التى تتصل مباشرة بشخص النبى او زوجاته فان الامر يسير بالاتجاه الذى ذكرناه ٠ واذا تردد الرسول ــ احيانا ــ فى تنفيذ بعض ما يرى فه مصلحة المسلمين نزل عليه الوحى واضحا صريحا لا يخلو من العنف فى كثير من الحالات ٠ ولعل قضية زينب بنت جحش (بنت عمته اميمة بنت عبدالمطلب واخت عبدالــلـه بن جحش) من أوضح الامثـلة على ما نقول ٠ اما عليٌ فكان يتصرف ضمن حدود الاطار الثابت الذى خلفه له الرسول فى القرآن والسيرة المحمدية ٠ ولقد كان بامكان الامام ــ لو اراد ــ ان يخرج على تلك الحدود اذا استلزمت ذلك مصلحة زمنية عارمة كما فعل غيره من الخلفاء ولكنه بقى مقيدا بقيود الدين فى تصرفاته كلها ٠ أى ان النبى كان مشرعا بأمر الله بالطبع ولم يكن على كذلك ٠ أى ان الوحى ــ فى زمن الرسول ــ كان اذا نزل انقطع الخلاف (فى حالة وقوعه) بين رسول الله وبين اصحابه وتبددت المعارضة وانصاع المسلمون جميعا للاحكام والتوجيهات التى يتضمنها الوحى النازل فى كل حالة من الحالات ٠ اما علي فكان عليه ان يستعين بوحى نزل على غيره لمعالجة مشكلة تواجهه لم تكن هى نفسها ــ بتفاصيلها وظروفها وملابساتهــا ــ كتـلك التى واجهت الرســول والتى نزل الــوحى حسب مستلزماتها ــ وان تشابهت الخطوط العامة للمشكلتين ٠ يرافق ذلك وينتج عنه ان استعانة الامام بالوحى الذى نزل على غيره لمعالجة المشكلة التى بين يديه لاتعمل من نفسها دائما على قطع الخلاف الذى وقع بينه وبين اتباعه وبذلك لا تتبدد المعارضة

ولا ينصاع المسلمون جميعا للاحكام والتوجيهات التى يتضمنها الوحى الذى يستعين به الامام .

٢ ـ كان خصوم الرسول مشركين . وكان بامكانه ان يؤلب المسلمين على حربهم والتنكيل بهم . وكان القرآن بجانبه فى هذا السبيل . وكان المشركون ـ بدورهم ـ يحاربون رسول الله للقضاء (بصورة مكشوفة وصريحة) على العقيدة الاسلامية واعلاء رايه الشرك وعبادة الاوثان . فكان الصراع بين النبى وخصومه صراعا مكشوفا بين عقيدتين : الايمان بالله بجميع مستلزماته والكفر بالله بمستلزماته جميعها . وسار الخصمان المتنازعان على ذلك فى السر والعلانية دون تستر او مجاملة او وجل او خوف . وكانت الملائكة والريح تقاتل معه فى الحالات التى يحتاج بها اليها ، كما جاء فى سورة الاحزاب : « يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا » . وكان القرآن يمنع اصحاب النبى من الاتصال بالمشركين او الاصغاء الى تخرصات اليهود والمنافقين ويحذرهم عواقب ذلك . جاء فى سورة آل عمران : « يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . » نزلت هذه آلاية على ما يقول الزمخشرى (الكشاف ج ١ ص ٣٠١) عندما « مر شاس بن قيس اليهودى ـ وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـ على نفر من الانصار من الاوس والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون فغاضه ذلك : حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة ... فأمر شابا ـ من اليهود ـ ان يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الاشعار ـ وكان يوما اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان

الظفر فيه للاوس • ففعل ذلك فتنازع القوم ـ عند ذلك ـ وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح • فبلغ ذلك رسول الله فخرج اليهم ـ فيمن معه من المهاجرين والانصار ـ فقال اتدعون الجاهلية وانا بين اظهركم بعد اذ اكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم امر الجاهليـة والف بينكم ؟ » • وجاء فى سورة المجادلة : « الم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا هم منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » عندما كان المنافقون يتولون اليهود ويناصحونهم وينقلون اليهم اسرار المؤمنين(٦) ولما اتت رسول الله بالمدينة ـ وهو يتجهز للفتح ـ سارة (مولاة ابى عمرو بن صيفى بن هاشم) وهى مشركة تريد منه معونة مالية ـ فاعطاها ورجعت الى مكة حاملة رسالة الى المشركين من حاطب بن ابى بلتعة يخبرهم بعزم الرسول على فتح مكة نزل قوله (فى سورة الممتحنة « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة »(٧) • وعندما ، استلزمت مصلحة المسلمين ان يغزو الرسول بنى النضير وينتصر عليهم خاطبه الله فى سورة الحشر « هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ••• » كما نزل قوله ـ فى سورة الحشر ايضا ـ مؤيدا للاجراءات التى اتخذها الرسول ضدهم وفى مقدمتها امره بقطع نخيلهم : « ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فبأذن الله وليخزى الفاسقين(٨) » • **اما خصوم** الامام فكانوا ـ فى الظاهر ـ مسلمين كاسلامه فلم يكن باستطاعته ان يحمل الكثيرين

(٦) الزمخشرى الكشاف ج ٤ ص ٣٩٥ •
(٧) الزمخشرى الكشاف ج٤ ص ٤٠٧ •
(٨) المصدر نفسه ص ٣٥٩ •

من اتباعه – وخصومهم – على مواصلة القتال ضد المتمردين عليـــه • ولم يكن بجانبه وحى لانه ليس بنبى •

٣ – لقد شهدت الفترة التى اعقبت وفاة النبى وانتهت بمصرع عثمان تساهلا فى تطبيق حدود الله على المستحقين : بدأ ذلك التساهل خفيفا فى عهد ابى بكر واشتد فى زمن عمر وبلغ الذروة فى عهد ابن عفان • فقد اسقط ابو بكر وعمر وعثمان سهم ذى القربى من الغنائم وسهم المؤلفة قلوبهم من الصدقات خلافا لصريح القرآن والسيرة المحمدية • جاء فى سورة الانفال نص صريح على سهم ذى القربى – وعمل به الرسول – : « واعلموا ان ما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله ••• » وورد فى سورة التوبة نص صريح على سهم المؤلفة قلوبهم – من الصدقات – وعمل به النبى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ••• » وعطل ابو بكر حدا من حدود الله فى قضية خالد بن الوليد • وعطل عمر حدا من حدود الله فى قضية المغيرة بن شعبة وفى قضية غلمان عبدالرحمن بن حاطب بن ابى بلتعة وفى قضية ابى جندل – كما سنرى – • واما عثمان فقد كثر خروجه على نصوص القرآن وسيرة النبى – كما سنرى – وكان ذلك من جنس تعطيله حدا من حدود الله فى قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب حين قتل الهمرمزان وابا لؤلؤة وزوجته وطفلته • واما تعطيله حدود الله فيما يتصل بالحقوق العامة للمسلمين من الناحيتين الادارية والمالية فلا تكاد حوادثه تقع تحت حصر كما سنرى • وقد الف كثير من الناس ذلك واصبح له انصار ومحبذون من المنتفعين به ومن اصحاب المصالح المركزة • فلا عجب – والحالة

هذه ـ ان تعرضت سياسة الامام (الرامية الى تطبيق حدود الله على المستحقين فى جميع مناحى الحياة) الى مقاومة عنيفة من جانب المتنفذين • وقد انتهت بمصرعه على الشكل المعروف •

٤ ـ وهناك امر آخر اقرب الى ان يكون مزيجا مما ذكرناه من ان يكون امرا قائما بذاته • وفحواه ان عليا ارتقى منبر النبى فى ظروف مضطربة قلقة انتهت بدايتها بمصرع عثمان • وهذا يعنى ان الخلافة قدمت للامام بعد ثورة دامية لم يساهم هو فى احداثها • أى ان الامام ـ بعبارة أخرى ـ اقتطف ثمار ثورة قام بها غيره ـ : من حيث التمهيد لحدوثها ومن حيث الاشتراك الفعلى فى حوادثها • فطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعمرو بن العاص ـ وهم رؤوس الفتنة على عثمان ـ قد راعهم انتقال الخلافة لعلى فقاوموه (لتعارضه مع مصالحهم) تحت ستار المطالبة بدم الخليفة القتيل • ورجال الثورة من المصريين والكوفيين والبصريين لم ينتفعوا بالوضع الجديد ـ كما كانوا يتوقعون ـ فقاوموه • نقم هؤلاء واولئك ـ الثائرون والمحرضون ـ على علىّ كما نقموا على عثمان من قبل ـ مع اختلاف فى عوامل النقمة بين الحالتين : فقد نقموا على عثمان خروجه فى سياسته العامة على الدين • ولكنهم نقموا على علي تمسكه بالدين فى سياسته العامة •

والشىء الذى لا يرقى اليه الشك ـ بقدر ما يتعلق الامر برغبة الامام فى تسنم امرة المسلمين ـ هو انه اراد عن ذلك الطريق اشاعة العدل بين الناس وفق مستلزمات الدين الحنيف • « اللهم انك تعلم انه لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان ولا التماس شىء من فضول الحطام • ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح فى بلادك : فيأمن المظلومون وتقام المعطلة من حدودك » • فالامام لا يريد

الخلافة للابهة او الانتفاع المادى او المعنوى – كما فعل غيره – • وانما ارادها وسيلة يعيد بها للاسلام هيبته فى الحكم بعد التصدع الذى اصابه منذ وفاه الرسول حتى مصرع عثمان • وبما ان الكثيرين من افراد الشعب قد الفوا حياة التساهل فى تطبيق حدود الله لذلك لم يسهل عليهم ان يتجرعوا مرارة الحق وصرامة العدل فقصروا عن اللحاق بالامام وضعفوا عن الالتفاف حوله • وشعر الامام بذلك فاوسعهم بامض العتاب واعنف التأنيب : « كم اداريكم كما تدارى البكار العمدة والثياب المتداعية كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر • » فلم يكن جمعهم سهلا على الامام لانهم بالاضافة الى ما الفوه بعد وفاة النبى من تساهل فى تطبيق حدود الله على المستحقين كما ذكرنا – كانوا يدعون دائما من قبل خصوم الامام (فى الشام ومناطق أخرى من العراق) الى الحصول على المال والجاه والنفوذ على حساب الدين • ولم يخف ذلك على الامام (ولم يكن من غير المستطاع لو اراد الامام – حاشاه –) ان يداوى الباطل بباطل مثله فيكون كما قال الشاعر :

تداويت من ليلى بليلى ولم يكن دواء ولكن كان سقما معاكسا

« انى لعالم بما يصلحكم ويقيم اودكم • ولكنى لا ارى اصلاحكم فى افساد نفسى » • ولو اصلحهم الامام بافساد نفسه لما حصل هذا البون الشاسع بينه وبين مناوئيه ، ولما اصبح الامام فى خلقه كالطود ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير • فليس امره وامرهم واحدا « انى اريدكم لله وتريدونى لانفسكم•ايها الناس اعينونى على انفسكم : وايم الحق لانصفن المظلوم من ظالمه ولاقودن الظالم بخزامته حتى اورده منهل الحق وان كان كارها » • ويتلخص روح فلسفة الحكم عند الامام بعبارات لا يتجاوز عددها اصابع اليد الواحدة قالها الامام وهذا نصها : « الحق اوسع

الاشياء فى التواصف واضيقها فى التناصف : لا يجرى لاحد الا جرى عليه ولا يجرى عليه الا جرى له ... وقد جعل الله من حقوقه حقوقا لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافأ فى وجوهها ويوجب بعضها بعضا ولا يستوجب بعضها الا ببعض . واعظم ما افترض الله من تلك الحقوق حق الوالى على الرعية وحق الرعية على الوالى ... فليست تصلح الرعية الا بصلاح ولاتها ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية » . لقد حدد الامام فى كلمته الانفة الذكر الصلة بين الحكومة والشعب وفق فلسفته العامة فى الحكم . فوصف تلك الصلة بانها تقوم على وحدة المصالح المشتركة من جهة وعلى قيام كل من الشعب والحكومة بالتزاماته من جهة أخرى .

أما الهيكل العام لفلسفة الحكم عند الامام فيمكن وضعه على الشكل الاتى : يتألف المجتمع ـ بنظره ـ من أفراد وعلاقات تربطهم ببعضهم من النواحى الاخلاقية والسياسية والاقتصادية ، ومن دستور تستند اليه تلك العلاقات وما يتصل بها من قوانين وأنظمة فى جوانبها النظرية ، ومن هيئة حكومية تتولى الاشراف على ذلك وتنفذه . والدستور الذى تستند اليه فلسفة الحكم عند الامام هو كتاب الله . ووظيفة الهيئة الحكومية ـ بنظره ـ هى السير وفق مستلزمات ذلك الدستور من النواحى الخلقية والسياسية والمالية فى تصرفاتها العامة والخاصة تجاه نفسها وتجاه اتباعها وذوى قرباها وتجاه الرعية قولا وعقيدة وفعلا . فنقطة البداية فى الاصلاح الاجتماعى الشامل عند الامام اذن هى صلاح الحكام فى عقائدهم واقوالهم وافعالهم

فى مجال الخلق والسياسة والاقتصاد • واذا حصل العكس تدهور المجتمع وسار فى طريق الفوضى والانحطاط •

تلك هى الخطوط العامة لفلسفة الحكم عند ابى تراب • واقواله التى سنذكر جانبا منها ستبقى خالدة تتحدى الزمان والمكان ــ مع اختلاف فى التعابير والمصطلحات حسب مزاج العصر الذى تبحث فيه • وافعاله ــ المنسجمة مع تلك الاقوال ــ ستبقى هى الاخرى فى عالم الخلود • فعظمة الامام كامنة فى اقواله بقدر ما هى كامنة فى تصرفاته العامة والخاصة مع خصومه وانصاره على السواء • ولم يشهد التاريخ على ما نرى حاكما عادلا مستقيما فى العقيدة والقول والفعل كابن ابى طالب • قال علي ــ فى احدى خطبه ــ « يا ايها الناس : انى والله ما احثكم على طاعة الا اسبقكم اليها ، ولا انهاكم عن معصية الا اتناهى قبلكم عنها • » ولهذا اصبح الامام من الفضيلة انسان عينها بل عين انسانها كما يقول البلغاء • ولعل عظمته تبدو باوضح اشكالها اذا وازنا تصرفاته الديمقراطية بنشأته الارستقراطية • فقد كان عليّ يشارك الجماهير فى وحدة المشاعر والنزعات على الرغم من كونه (بالاضافة الى مقوماته الشخصية) قد تعلق فى نسبه (بمقاييس العرب) ــ من الثريا باقراطها ــ وهو امر له قيمته الكبرى فى المجتمع العربى ، وكثيرا ما كان ذلك يعمل على ابعاد صاحبه عن الاحتكاك بمن هم دونه فى السلم الاجتماعى • وعندى ان الاجيال القادمة ستشهد انصراف كثير من الباحثين ــ من غير العرب والمسلمين ــ الى البحث العلمى النزيه فى هذه الشخصية التاريخية الفذة • فكلما تاهت البشرية فى صحارى الحيرة

من الناحية الاخلاقية ، وكلما اختلت موازينها فى السياسة والاقتصاد ـ وهو أمر على ما يبدو لا سبيل الى التغلب عليه من الناحية الواقعية فى المدى البعيد ـ برز اسم ابن ابى طالب فى مقدمة المرشدين الى الصراط المستقيم(٩) .

بغداد فى : ١٥ـ١٠ـ١٩٥٧ **نورى جعفر**

---

(٩) لقد اقتبسنا كلمات الامام (التى ذكرناها فى هذه المقدمة والكلمات التى سنذكرها فى الفصول القابلة من هذه الدراسة) من شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد بمجلداته الاربعة ، وسوف نشير فى آخر هذه الدراسة الى رقم المجلد ورقم الصفحة التى اخذت منها كلمات الامام . وغرضنا من ذلك هو عدم ارباك القارىء اثناء المطالعة باشارات وهوامش كثيرة العدد قد تقطع عليه سلسلة قراءته .

الفصل الأول

الجانب الاخلاقى

يستطيع المرء – اذا ما درس فلسفة الحكم عند الامام بشىء من التحليل والتعمق – ان يصفها بأنها اخلاقية فى جوهرها . تستند الى الفضيلة : تشجعها وتغرسها فى نفوس الناس . وتكافح الرذيلة وتدعو الى استئصالها من عالم الوجود . تفعل ذلك فى مجال الفكر واليد واللسان . وهذا يعنى ان الاخلاق عند الامام فكرة وسلوك فى آن واحد : سلوك فى القول وسلوك فى العمل . والناس بنظره ثلاثة اصناف : « فمنهم المنكر للمنكر بيده وقلبه ولسانه فذلك المستكمل لخصال الخير . ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخر ومضيع خصلة . ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه فذلك الذى ضيع اشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة . ومنهم تارك الانكار بلسانه وقلبه ويده فذاك ميت الاحياء . » فالتوافق التام بين عقيدة الانسان وبين قوله وعمله هو الغاية القصوى التى يدعو الامام الى غرسها فى نفوس الناس . والعقيدة – بالطبع – هى الاساس الذى يستند اليه المرء فى قوله وعمله . فاذا سلمت العقيدة – من الناحية الخلقية – سلمت الاقوال والافعال المنبثقة عنها . وبالعكس . ولا فرق عند الامام بين فساد العقيدة وصلاحها اذا لم يكن السلوك – فى القول وفى العمل – منسجما معها فى

حالة سلامتها • ومن يدرى فلعل العقيدة الفاسدة أقل ضررا بالمجتمع من العقيدة السليمة التى لا تنسجم اقوال من يدعى انه يحملها مع افعاله فى المدى القريب على احسن الفروض • ذلك لان الناس يسلمون مقدما بفساد تلك العقيدة ـ باعتراف صاحبها ـ فيحزمون أمرهم على مقاومته ومقاومتها بجميع الوسائل المتيسرة لديهم • اما المتظاهر بحمل عقيدة سليمة فليس من السهل اجماع الناس على مقاومته وبخاصة اذا ما وجد من يبرر بعض اقواله واعماله غير المنسجمة معها • يتضح ذلك باجلى مظاهره فى صفوف الحكام ـ القدامى والمحدثين ـ أكثر منه فى صفوف الرعية • ولذلك سهلت مقاومة الحاكم الفاجر المكشوف وصعبت مقاومة الحاكم الفاجر المستور • وفى التاريخ امثلة كثيرة تعزز ما نقول • وقد وضع الامام القاعدة الاخلاقية (التى ذكرناها فى تصنيفه الناس) بشكلها السلبى لعلمه ان انكار المنكر ـ باليد واللسان والقلب ـ معناه ، من الناحية الايجابيه ، التهيوء لاشاعة غير المنكر فكرة وقولا وعملا • على ان ذلك بنظره من اصعب الامور • « فما اصعب اكتساب الفضائل وايسر اتلافها !! » وما اصعب « على من استعبدته الشهوات ان يكون فاضلا • » ولكن اشاعة غير المنكر ، مع هذا ، اصعب من مقاومة المنكر فى الاعم الاغلب • ومقاومة المنكر فى اليد اصعب منها فى اللسان وهى فى اللسان اصعب منها فى القلب • ولهذا نجد الامام يخاطب الناس بقوله : « ان اول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بايديكم ثم بالسنتكم ثم بقلوبكم • » وقد سمى مقاومة المنكر جهادا فى سبيل الله يجاهد المسلمون به ولاة السوء كما يجاهدون المشركين • وقد صدق ظن الامام فى هذا الباب كما صدق ظنه حين قال : « يأتى على الناس زمان لايبقى فيهم من القرآن الا رسمه ومن الاسلام الا اسمه • مساجدهم يومئذ

عامرة من البناء خراب من الهدى • سكانها وعمارها شر أهل الارض : منهم تخرج الفتنة واليهم تاوى الخطيئة • » فقد لوثت السياسة (التى قاومها الامام) منذ مصرعه الى الوقت الحاضر فئة خاصة من رجال الدين واغدقت عليهم الجاه والمال والنفوذ والالقاب لمعاونتها فى تثبيت مظاهر الفساد فى الحكم وايجاد مخارج « شرعية » لموبقات الحاكمين من جهة وصرف الناس عن التحدث عن اعتداء الحكام على مبادىء الدين — والهائهم بوعظ تافه لا يمس جوهر الدين — من جهة أخرى •

ثم خص الامام بالذكر الحاكم فقال : « من نصب نفسه اما ما للناس فعليه ان يبدأ بتاديب نفسه قبل تأديبه غيره • وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه » والا « كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل ان يستقيم ذلك العود • » لان « الداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر » وفاقد الشىء لا يعطيه كما يقولون • والعمل دون شك أكثر أثرا فى النفس من القول عند الفاعل نفسه وعند من يشاهد العمل او يسمع عنه لغرض الاقتداء به او العزوف عنه • والعمل الصالح الذى يقوم به شخص متواضع الحسب يرفع — بنظر الامام — منزلة ذلك الشخص فيشرف حسبه • وبالعكس • فمن « ابطأ به عمله لم يسرع به حسبه • » و « شتان بين عملين : عمل تذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤنته ويبقى أجره • » فلا « تكن ممن ينهى ولا ينتهى ويأمر بمـــا لايأتى ••• يصف العبرة ولا يعتبر ••• فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن • » واذا كان ذلك الخلق خطرا على كيان المجتمع (اذا اتصف به افراد الشعب) فهو على كيان المجتمع اخطر اذا اتصف به الحاكم • قال الامام فى هذا المعنى : « انى لا اخاف على امتى مؤمنا ولا مشركا : اما المؤمن فيمنعه الله بايمانه واما المشرك فيمنعه الله

بشركه • ولكنى اخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون • » فهو يريد من الحاكم ان يتبع ما امره الله به فى سورة «ص» حين قال: « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله • » وعلى هذا الاساس يصبح بنظر الامام « السلطان الفاضل هو من يحرس الفضائل ويجود بها لمن دونه ويرعاها من خاصته وعامته حتى تكثر فى ايامه ويتحسن بها من لم تكن فيه • » هذا من جهة ومن جهة ثانية « فان من لم تستقم له نفسه فلا يلومن من لم يستقم له • » وان « من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها لا واعظ ولا زاجر • »

ثم عاد الى الناس يخاطبهم فقال : « اياكم وتهزيع الاخلاق وتصريفها • اجعلوا اللسان واحدا • ليخزن الرجل لسانه فان هذا اللسان جموح بصاحبه ••• ان لسان المؤمن من وراء قلبه وقلب المنافق من وراء لسانه » وان من « عدم الصدق فى منطقة فقد فجع باكرم اخلاقه • » وما « السيف الصارم فى كف الشجاع باعز من له من الصدق • أذن فالكلام فى وثاقك « ما لم تتكلم به • فاذا تكلمت به صرت فى وثاقه • » فاجعل اقوالك منسجمة مع عقيدتك وافعالك منسجمة مع اقوالك • ولتكن عقيدتك سليمة لتصبح اقوالك وافعالك المنسجمة معها سليمة كذلك • والعقيدة السليمة من وجهة نظر الامام هى الايمان بالله على الطريقة الاسلامية مع جميع مستلزماته من الناحيتين النظرية والتطبيقية العلمية •

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : ان فلسفة الحكم عند الامام تستند من حيث الاساس على وحدة الوسائل والغايات • وهى بهذا المعنى تمقت الانتهازية

أو الوصولية بشتى صورها ومختلف مجالاتها • فلا يمكن على هذا الاساس ان يحقق المرء غاية نبيلة باتباعه وسيلة فاسدة • وبالعكس • لان الوسائل الفاسدة ترافقها وتنتج عنها غايات فاسدة ووسائل أخرى فاسدة كذلك • وبالعكس • والى هذا المعنى يشير الامام بقوله : « والله ما معاوية بادهى منى • ولكنه يغدر ويفجر • » والدهاء بنظر الامام هو قراءة صفحة المستقبل فى ضوء ملابسات الحاضر وامكانياته بالاستناد الى الماضى القريب والبعيد • اما الانتهازية وفساد الوسائل ـ مع فساد الغايات لانبلها ـ والمداهنة والمصانعة ونقض العهد والكذب واضرابها من الموبقات ـ التي تقترن عادة باسم معاوية فى تاريخنا العربى ـ فليست دهاء بالمعنى الذى اشار اليه الامام • والى ذلك يشير الامام ـ من الناحية المبدئية العامة ـ بقوله : « قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من امر الله فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لاحريجة له فى الدين • »

ذكرنا ان فلسفة الحكم عند الامام تستند من الناحية الاخلاقية الى الفضيلة وتمقت الرذيلة • ترى ما الفضيلة ؟ وما الرذيلة بنظر الامام ؟ ومن يعينهما ؟ وما المقياس الذى يتخذه الشخص للتمييز بينهما ؟ وللاجابة عن هذه الاسئلة من وجهة نظر الامام يمكننا ان نقول : تتضمن الفضيلة كل عمل او قول ينطوى ـ بطريقة مقصودة او غير مقصودة ـ على الخير • اما الرذيلة فهى كل عمل او قول ينطوى ـ بطريقة مقصودة او غير مقصودة ـ على الشر • والقصد أو عدمه ـ فى القول او العمل ـ سيان فى عملية التمييز بين الفضيلة والرذيلة بمقدار ما يتعلق الامر بطبيعة العمل نفسه • اما الفرق الكبير بين الفضيلة والرذيلة فيما يتصل بالقصد أو عدمه فيقع فى تعيين مسئولية الشخص الذى يتعاطى فعلهما • فالكذب رذيلة

بغض النظر عن نية الكاذب او قصده • والصدق فضيلة على الاساس نفسه • اما الخير الذى وصفنا الفضيلة بانها مشتملة عليه فهو كل عمل او قول يشيع العدل بين الناس وينشر بينهم الامن والطمأنينة ويشجعهم على التعاون فى خدمة مصالحهم الخاصة ضمن اطار المصلحة العامة لا خارجه او على حسابه • واما الشر فهو استبداد بعض الناس ببعض آخر وانتفاعهم بجهودهم من الناحيتين المادية والفكرية • وقد رسم الامام الخطوط العامة للمجال الذى تقع فيه الرذيلة حين قال : « احذر كل عمل يعمل به فى السر ويستحى منه فى العلانية • » وتتضح لنا اهمية ما ذكره الامام اذا تذكرنا ان الانسان فى العادة لا يعتذر عن عمل ما أو ينكره الا اذا كان ذلك العمل دون المستويات الاخلاقية الرفيعة المسلم بها من الناحية النظرية فى المجتمع الذى يعيش فيه • اما العمل الذى يتعاطاه الانسان فى الخفاء فهو الذى يتعلق بالموبقات (المسلم بها نظريا فى مجتمعه) فى مختلف صورها وشتى مجالاتها • مع العلم ان « من استحيا من الناس ولم يستحى من نفسه فليس لنفسه عنده قدر • » فى حين « ان غاية الادب ان يستحى الانسان من نفسه • » فان « اعجبك ما يتواصفه الناس من محاسنك فانظر فيما بطن من مساوئك • ولتكن معرفتك بنفسك اوثق عندك من مدح المادحين لك • » لان المادحين فى العادة ينظرون اليك بمنظار مصالحهم لا بمنظار واقعك وحقيقة امرك بالنسبة للاخرين • لذلك يجب عليك ان تنظر « وجهك كل وقت فى المرآة • فان كان حسنا فاستقبح ان تضيف اليه فعلا قبيحا تشينه به ، وان كان قبيحا فاستقبح ان تجمع بين قبيحين • »

اما المصدر الذى يعين الفضيلة والرذيلة فهو بنظر الامام كتاب الله • وقد وردت الخطوط العامة لذلك فى سورة الانعام : « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم :

الا تشركوا به شيئا ••• ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ••• واوفوا الكيل والميزان ••• واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا • » وقد لخصت فى سورة الاحقاف بالايمان بالله وباستقامة الاخلاق : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • » واما المقياس الذى وضعه الامام للتمييز بين الفضيلة والرذيلة فهو على حد قوله : « اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك : فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها • ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم • واحسن كما تحب ان يحسن اليك • واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك • وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك • » لان « اكبر العيب ان تعيب ما فيك مثله • » وهذا يدخل فى باب تهزيع الاخلاق وتصريفها — وهو ما شجبه الامام كما رأينا : وهو لون من الوان النفاق الاجتماعى ولعله ابشعها • يضاف الى ذلك ان من يتصف به لاينتفع به كما لا يخفى • ويصدق الشىء نفسه على السامع • وقد اشار الى ذلك ابو الاسود الدؤلى حين قال :

يا ايها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا كيما يصح به وانت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ابدا وانت من الرشاد عديم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

وقد حذر الامام الناس من حملة هذا النوع من الاخلاق حين قال : « احذروا اهل النفاق فانهم الضالون المضلون ••• لهم بكل طريق صريع والى كل قلب شفيع ولكل شجو دموع • يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء ان سألوا الحفوا وان عذلوا

كشفوا وان حكموا اسرفوا ٠ قد اعدوا لكل حق باطلا ولكل قائم مائلا ٠٠٠ ولكل باب مفتاحا ولكل ليل مصباحا ٠ »

ثم قال الامام « ان الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم : وعلى كل داخل فى باطل اثمان : اثم العمل به واثم الرضابه ٠ » وسبب ذلك ـ كما سلف ان ذكرنا ـ هو ان الراضى بفعل قوم هو الذى يؤيدهم ضمنيا عن طريق عدم مقاومته لهم فى القول او العمل ٠ فاذا كان العمل باطلا اصبح الشخص الذى لا يقاومه ـ ولو بقلبه وهو اضعف الايمان ـ فى عداد من وصفهم الامام بموتى الاحياء لعدم انكارهم المنكر بقلوبهم او بالسنتهم او بأيديهم ٠ اما الراضى بالعمل الباطل الذى يقوم به غيره فيتحمل وزرين من الناحية الاخلاقية : وزر اشتراكه به معهم ـ عاطفيا وفكريا ـ عن طريق عدم مقاومته اياه بالقلب او اليد اللسان ٠ ولا يخفى ان السكوت عن الموبقات تشجيع ضمنى لها يساعد على انتشارها ولا يعرقل اتجاه سير من يتعاطاها ٠ وهذا يعنى من الناحية الايجابية مقاومه الفضيلة وقلة اكتراث بسلوك من يتعاطاها : وهو الوزر الثانى الذى اشار اليه الامام ٠

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول ـ مرة أخرى ـ ان الجانب الاخلاقى لفلسفة الامام فى الحكم يستلزم الابتعاد عن الرذائل والموبقات لان « من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته ٠ » فاياك « والشهوات ٠ وليكن مرجعك منها الى الحق ٠ فانك مهما تترك من الحق لا تتركه الا الى الباطل ٠ ومهما تدع من الصواب لا تدعه الا الى الخطأ ٠ فلا تداهنن هواك فى اليسير فيطمع منك فى الكبير ٠ » أى انك « اذا رغبت فى المكارم فاجتنب المحارم ٠ » لان « افضل العبادات الامساك عن المعصية والوقوف عند الشبهة ٠ »

يبدو من هذا ان الامام لم يقل ان افضـــل العبـادات الصـلاة والصيام وما شاكلهـــا ، كما يتوقع كثــير من البسطاء ، لان الصـلاة والصيام ، واضرابهما من العبادات المعروفة ، بنظره وسائل لتربية الاخلاق • ولا يكونان عبادات بالمعنى الدقيق بمجرد القيام الفعلى الميكانيكى بهما مع اهمال جوانبهمـا التثقيفية الخلقية المتعلقة بتعديل السلوك وتوجيهه نحو الخير • فيجب عليكم ــ ايها الناس « ان تجاهدوا شهواتكم كما تجاهدون اعداءكم • » هذا هو الجانب السلبى لموقف الامام من الفضيلة • اما الجانب الايجابى لما ذكرناه فهو « ان تنكر المنكر بيدك وقلبك ولسانك ••• وان لا تأخذك فى الحق لومة لائم • » فمـــا انتقم الانسان من عدوه باعظم من ان يزداد من الفضـائل • » عقيـدة وقولا وفعلا • وبما ان العقيدة لا تعبر عن نفسها الا عن طريق القول ــ أو العمل ــ وبما ان « اللسان آله لترجمة ما يخطر فى النفس فلا ينبغى ان تستعمله فيما لا يخطر لك • » فلا « تقل ما لا تعلم وان قل ما تعلم • » لان « تلافيك ما فرط من صمتك ايسر من ادراكك ما فات من منطقك • » واعلم « ان الذى مدحك بما ليس فيك هو مخاطب غيرك • وثوابه وجوابه قد سقطا عنك • » واذا كان باستطاعتكم ــ ايها الناس ــ « ان تصدق اقوالكم افعالكم وان يوافق سركم علانيتكم ولا تخـــالف السنتكم قلوبكم فافعلوا • » لان المسلم ــ على رأى الامام ــ هو « من سلم الناس من يده ولسانه الا بالحق • فاتقوا الله ايها الناس فى عباده وبلاده • فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم • » وفى هذه العبارات المختصرة من المبادىء الخلقية السامية الواضحة ما لا يحتاج الى تعليق • فقد جعل الامام مسئولية الشخص ــ من الناحية الاخلاقية ــ غير مقتصرة على نتائج اعماله بالنسبة للاخرين

من بنى الانسان (من العرب وغير العرب المسلمين وغير المسلمين) بل جعلها من السعة والشمول بحيث تنتظم الجماد والحيوان ـ وهى أمور تدخل فى صميم حياة الانسان من الناحية المادية على كل حال •

ذلك ما يتصل بجوهر الاخلاق عند الامام • وهناك أمور أخرى ـ تتعلق بذلك الجوهر بشكل مباشر احيانا وبشكل غير مباشر احيانا أخرى ـ يجمل بنا ان نذكرها فى ختام هذا الفصل : « يا حمله العلم اتحملونه !! فانما العلم لمن علم ثم عمل بما علم ووافق عمله علمه ••• وسيكون اقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم : تخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف عملهم علمهم • » فاذا حصل ذلك سار المجتمع الى الوراء من الناحية الاخلاقية وانتشرت بين ابنائه الرذيلة واصبحت علاقات افراده ببعضهم ـ وبالحكومة ـ مبنية على اساس خدمة المصالح الشخصية الضيقة عن طريق المداهنة والنفاق والمواربة • اما اذا استخدم العالم علمه ـ فى شتى ميادين المعرفة الانسانية ـ وسيلة لتحسين سلوكه (فى القول وفى العمل) واتخذ ذلك السلوك بدوره وسيلة لخدمة المجتمع الذى ينتمى اليه ضمن نطاق المجتمع الانسانى الكبير عن طريق نشر الفضيلة ومكافحة الرذيلة فى شتى ميادين الحياة (وهو ما ينبغى ان يكون الامر عليه بنظر الامام) فان المجتمع يسير صعدا فى طريق التقدم والفلاح من الناحيتين المادية والمعنوية • فالعلم ـ كالالة الجارحة ـ يتوقف نفعه وضرره على كيفية استعماله من جهة وعلى الغاية من استعماله من جهة أخرى • « اطول الناس عمرا من كثر علمه فتأدب به غيره او كثر معروفه فشرف به عقبه •» والمراد بالمعروف هناك العمل الصالح بغض النظر عن نوعه ومداه •• و « عليك مجالسة اصحاب التجارب فانها تقوم عليهم بأغلى الغلاء وتأخذها منهم بارخص

الرخص • » « انى وان لم اكن عمرت عمر من كان قبلى فقد نظرت فى اعمالهم وفكرت فى اخبارهم وسرت فى آثارهم حتى عدت كاحدهم • بل كأنى ـ بما انتهى الي من امرهم ـ قد عمرت مع اولهم الى آخرهم • فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره • فاستخلصت لك من كل امر جليله وتوخيت لك جميله • » « قارن اهل الخير تكن منهم • وباين اهل الشر تبن عنهم • » « اذا عاتبت الحدث فاترك له موضعا من ذنبه لئلا يحمله الاحراج على المكابرة • » ويصدق الشيء نفسه على غير الحدث • « احمل نفسك من اخيك عند تباعده على الدنو وعند شدته على اللين وعند جرمه على العذر ••• واياك ان تفعل ذلك مع غير اهله • أو ان تضعه فى غير موضعه • » « لا تتخذ عدو صديقك صديقا فتعادى صديقك • » و « امحض اخاك النصيحة حسنة كانت ام قبيحة • »

الفصل الثانى

الجانب السياسى

لقد مر بنا القول بان فلسفة الحكم عند الامام اخلاقية فى جوهرها . فيصبح على هذا الاساس جانبها السياسى تطبيقا لجوهرها الاخلاقى فى مجال الادارة العامة من حيث علاقة الحكومة بالشعب ومن حيث علاقة افراد الشعب ببعضهم وبالحكومة . كما يصبح جانبها المالى سائرا فى الاتجاه السابق نفسه فيما يتصل بالثروة العامة من حيث انماؤها وتوزيعها واستهلاكها . ويتلخص جوهر سياسة الامام من الناحية السياسية فى اشاعة العدل بين الناس فى شتى ضروب الحياة وفى مختلف المجالات الاجتماعية . والعدل عند الامام افضل من الشجاعة « لان الناس لو استعملوا العدل عموما فى جميعهم لاستغنوا عن الشجاعة . » والمراد بالشجاعة فى هذا الباب القوة المادية المتمثلة فى الجسم او المال او السلاح او النفوذ عندما يستعين المرء بذلك لاسترداد حق مهضوم او لاغتصاب حق من حقوق الناس . ويلجأ الانسان فى العادة الى هذا التصرف اذا فقد العدل وانعدم ناصروه ومنفذوه . ويتجلى ذلك باوضح اشكاله فى عالم الحيوان وفى المجتمعات البدائية وفى الحالات التى ينعدم فيها تطبيق العدالة الاجتماعية فى المجتمعات الراقية الحديثة .

والعدل عند الامام يحتاج الى تعهد ورعاية فى اتباعه وفى قبوله • وهو يحتاج كذلك الى ضبط للنفس وجلد وبخاصة فى تحمل مضضه عند الشخص الذى يطبق عليه • لان الانسان فى العادة يميل – بطريقة لا شعورية احيانا – الى عدم الزام نفسه فى اتباع الحق – فى القول وفى العمل – اذا كان فى عدم الالزام هذا ما يخدم مصالحه او مصالح من يعطف عليهم من الناس • وربما وقف موقف المحايد او عدم المكترث بالباطل والحق فى الحالات التى لا تتعلق به من قريب أو بعيد • اما اذا كان الامر متصلا بمصالحه الخاصة او بمصالح من يعطف عليهم فان عدم اتباع الحق – كما يبدو له – يصبح مثار نقمته وامتعاضه وتحديه • على ان كثيرا من الناس يميلون – بطريقة غير مقصودة احيانا – الى اظهار الباطل بمظهر الحق لاحراز نفع او لتجنب ضرر محتمل الوقوع • وسبب ذلك على ما يبدو هو ان ظهور الشخص بمظهر الباطل – بشكل مكشوف وصريح – لا يضمن حصوله على المنافع ولا يدفع الاضرار عن طريقه فى كثير من الاحيان • يحصل هذا حتى فى المجتمعات التى ينعدم فيها تطبيق الحق على تصرفات المواطنين • لان الاعتراف بالتزام الحق (بغض النظر عن نوعه) من الناحية النظرية أمر مسلم به فى جميع المجتمعات البشرية المعروفة قديما وحديثا •

والعدل عند الامام « صورة واحدة والجور صور كثيرة • ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرى العدل • وهما يشبهان الاصابة فى الرماية والخطأ فيها • وان الاصابة تحتاج الى تعهد ورعاية والخطأ لا يحتاج الى شىء من ذلك • » والعدل عند الامام ينتظم الناس جميعا – مسلمين وغير مسلمين ، عربا وغير عرب حكاما ومحكومين – • لان الناس بنظر الامام صنفان : « اما اخ لك فى الدين

او نظير لك فى الخلق » ــ اخ لك فى الدين يعنى مسلما عربيا او غير عربى ، ونظير لك فى الخلق يعنى انسانا مثلك بغض النظر عن دينه وجنسه . ويجمل بنا ان نذكر هنا : ان احب شيء للامام هو تطبيق العدل بين المواطنين . وكانت الخلافة بنظره احدى الوسائل الفعالة التى تعينه على تطبيق ذلك العدل باوسع مدى ممكن . ويتجلى شعور الامام بضرورة تطبيق العدل على الناس باروع اشكاله ــ قبل ان تنتقل اليه الخلافة ، وبخاصة فى شطر من خلافة عمر وفى اغلب سنى خلافة عثمان ــ اذا تذكرنا ان الامام كثيرا ما كان يتولى بنفسه تطبيق حدود الله على المستحقين كلما قصر الخليفة القائم عن ذلك او تهاون فيه . وفى التاريخ الاسلامى ــ بين وفاة الرسول ومصرع ابن عفان ــ امثلة كثيرة فى هذا الباب .

ذكرنا ان الخلافة لم تكن بنظر الامام وسيلة للابهة او الاثراء غير المشروع او مجالا لتوزيع المناصب والجاه والنفوذ على الاصهار والاتباع وذوى القربى . وانما هى مجال يتسنى به للامام ان يطبق العدل على المواطنين . « قال ابن عباس دخلت على علي بذى قار وهو يخصف نعله . فقال لى ما قيمة هذه النعل ؟ فقلت لاقيمة لها . فقال والله لهى احب الي من امرتكم الا ان اقيم حقا او ادفع باطلا . » وكتب علي الى سهل بن حنيف « اما بعد : فقد بلغنى ان رجالا من قبلك يتسللون الى معاوية . فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ... قد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه . وعلموا ان الناس عندنا فى الحق اسوة فهربوا الى الاثرة ... انهم والله لم يفروا من جور ولم يلحقوا بعدل . » فاذا كانت الغلبة تعنى كثرة الاتباع على الباطل وهى ليست كذلك بالطبع ــ « فاختر ان تكون مغلوبا وانت منصف ولا تختر ان تكون غالبا وانت ظالم . » فافضل شيء بنظر

الامام اطفاء باطل واحياء حق • « فلا يكن افضل ما نلت من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ ولكن اطفاء باطل واحياء حق • وليكن سرورك بما قدمت من ذلك واسفك على ما خلفت منه • » وموقف الامام هذا ـ كما ذكرنا ـ ينتظم الرعية جميعـــا : عربا وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين • اما ما يتصـل بالمسلمين (العرب وغير العرب) فيتضح موقف الامام تجاههم بقولهم : « ذمتي بما اقول رهينة وانا به زعيم ••• والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم • وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا » • ليأخذ كل ذى حق حقه وفق نصوص القرآن والسنة النبوية • وهذا لايتم بالطبع الا اذا اعيد النظر فى علاقات المسلمين بعضهم وبالخليفة وفق ما ذكرناه • وهذا يعنى ـ من الناحية السلبية ـ القضاء على كل ما لا يتفق مع ذلك مما حصل عليه بعض المسلمين ـ على حساب غيرهم او على حساب الدين ـ فى الفترة التى تقع بين وفاة النبى ومقتل عثمان بن عفان • فالحق عند الامام هو الشيء المشروع الذى يستحقه الشخص وان لم يتمتع به من الناحية العملية الواقعية نتيجة لسوء تصرف الحكام • أى ان الحق بنظر الامام « دَيْ جوري » كما يعبر عن ذلك المشرعون الحديثون • والباطل بنظره يشمل (من جملة ما يشمل) حقوقا اكتسبها بعض الناس بطريقة غير مشروعة • فهو بنظره « دَيْ فاكتو » كما يقول المشرعون • أى ان تطبيق الحق بنظر الامام له أثر رجعى •

قال علي « فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان : والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته • فان فى العدل سعة • ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق • » واما موقفه من غير المسلمين فقـد كان يجرى ضمن الاطار

الذى وصفناه . وتتجلى روعة ذلك الموقف اذا تذكرنا قوة ايمان الامام بمبادىء الدين الاسلامى واعتباره اياه ارقى الاديان . ولعل ايمانه العميق بذلك هو الذى جعله يقف من غير المسلمين ذلك الموقف العادل المعروف . قال علي : « من آذى ذميا فكأنما آذانى » . أى ان من اعتدى على يهودى او مسيحى - بطريقه مباشرة او غير مباشرة ، وبشكل مادى او معنوى - فكأنما اعتـدى على جوهر الاسلام المتمثل بالامام آنذاك . وفى هذا الموقف من الروعة فى اتباع العدل ما يعجز عن وصفه البيان . ثم علل الامام موقفه من اولئك الناس بقوله « انما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا واموالهم كاموالنا » يجرى عليهم ما يجرى علينا من الحقوق والواجبات العامة .

ولتحقيق العدالة الاجتماعية من الناحية السياسية وضع الامام شروطا خاصة لتكوين الجهاز الحكومى وتعيين واجباته العامة تجاه الشعب . والاساس الذى يرتكز عليه الجهاز الحكومى هو من الناحية الادارية كما قال الامام : « لاتقبلن فى استعمال عمالك وامرائك شفاعة الا شفاعة الكفاءة والامانة . » هذا من جهة الحاكم . اما انت - ايها المواطن - فمن النقص عليك « ان يكون شفيعك شيئا خارجا عن ذاتك وصفاتك . » وانت - ايها الحاكم - انظر مرة أخرى - « فى أمور عمالك فاستعملهم اختبارا . ولا تولهم محاباة وأثرة فانهما جماع من شعب الجور والخيانة . » فيجب الا يتم تعيين الموظف محاباة له او لمن يشفع فيه ، ولا انعاما عليه . لانهما - أى المحاباة والاثرة - جماع من شعب الجور والخيانة . ومعنى ذلك - كما يقول ابن ابى الحديد - ان هذا النوع من التعيين « يجمع ضروبا من الجور والخيانة : اما الجور فانه - أى الحاكم - يكون قد عدل عن

المستحق • ففى ذلك جور على المستحق • واما الخيانة فلأن الامانة تقضى تقليد الاعمال الاكفاء • فمن لم يعتمد ذلك فقد خان من ولاه • » على ان الامر ـ على ما نرى ـ ابعد أثرا مما ذكره ابن ابى الحديد • فالجور ـ فى هذا الموضوع ـ لا يقتصر على عدول الحاكم فى التعيين عن المستحق الى غير المستحق فقط وانما هو يمس غير المستحق فى الصميم • فقد حل غير المستحق ـ على حد تعبير يحى بن خالد ـ « محل من نهض بغيره • ومن لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل اهلا • » يضاف الى ذلك ان هذا الموظف ـ اذا ما قصر عن اداء واجبه او خانه ـ عرض نفسه للفصل والعقاب • فكأن تعيينه ـ محاباة او اثرة ـ قد مهد السبيل الى اقصائه عن الخدمة وتطبيق حدود الله عليه فى حالة الخيانة • ولكن الامر مع هذا كله يتعدى ضرره المستحق وغير المستحق فينتظم المصلحة العامة ومصالح المواطنين ـ الذين يعنيهم الامر ـ على السواء • هذا ما يتصل بموضوع الجور فى تعيين الموظفين على اسس غير اسس الكفاءة والامانة • اما الخيانة فينطبق عليها ما ذكرناه • لان من لم يعتمد تقليد الاعمال الاكفاء فقد خان من ولا وخان من ولى عليهم وخان المستحق وغير المستحق على السواء •

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : لقد وضع الامام الذى عاش قبل زهاء اربعة عشر قرنا مقياسا للتوظيف لم يصل اليه ارقى القوانين فى المجتمع الغربى الحديث • فلم يكتف الامام بان تسند الوظائف الحكومية لذوى الكفاءة والاختصاص ـ دون غيرهم ـ بل اضاف الى ذلك جانبا آخر لا يقل أهمية عن الكفاءة هو الامانة ونزاهة النفس • فالموظف الكفوء (غير الامين) قد يتجاوز ضرره الاجتماعى ضرر الموظف غير الكفوء : فيتخذ من كفاءته وسيلة لاتقان فن الخيانة

واتقان فن التوارى عن الانظار من جهة واتقان فن التباكى على المصلحة العامة من جهة أخرى • اما الموظف الامين غير الكفوء فيكون ضرره الاجتماعى ـ فى حالة وقوعه ـ غير مقصود فى العادة من جهة وغير موجه نحو بعض الناس على حساب بعض آخر من جهة أخرى • والخيانة ـ بنظر الامام ـ تشمل من يتعاطاها بشكل مباشر بقدر ما تشمل من يعطف على من يتعاطاها او يغض النظر عنه • ولهذا قال الامام ـ « كفاك خيانة ان تكون امينا للخونة • »

لقد مر بنا القول بان مقياس التوظيف عند الامام هو الكفاءة والامانة • ترى ما الكفاءة ؟ وما الامانة ؟ بنظر الامام ؟ وكيف نقيس كلا منهما ؟ وللاجابة عن السؤال الاول نقول : ان الكفاءة هى قدرة الشخص على انجاز الواجب الذى يسند اليه بشكل مرضى • وتقاس الكفاءة فى العـادة بالدراسـة والتخصص وبالشهادة المدرسية • غير ان تلك الامور ـ بشكلها الحاضر ـ لم تكن موجودة فى عهـد الامام • فكان مقياس الكفاءة بنظره هو توسم قيام الشخص بالواجب المنوط به بشكل مرضى • فاذا عين الشخص بمنصبه ولم يثبت ـ بعـد فتـرة من الزمن الكفاءة المطلوبة ـ تحتم فصله عن العمل وتطبيق حدود الله عليه • وبخاصة اذا لم يعمل وجوده فى الوظيفة على جعله قادرا على اداء واجبه على شكله الصحيح • ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد هو ان الخبرة (او وجود الشخص فى الوظيفة) كثيرا ما تكون عاملا من عوامل تخصصه فى ذلك العمل وتدريبه على انجازه على الوجه المطلوب • وبالتالى عاملا من العوامل التى تجعله موظفا كفوءا • اما الامانة فهى الامتناع عن الاعتداء على اموال الاخرين وحقوقهم • فالامانة ذات جانبين : جانب مادى وآخر معنوى يعملان معا فى الاعم الاغلب • فالموظف الامين هو الذى لا يقبل

الرشوة ولا تمتد يده الى ما تحتها من اموال الدولة • هذا من الناحية المادية •
اما من الناحية المعنوية فالموظف الامين هو الذى يعطى كل ذى حق حقه فى المجال
الذى يعمل فيه • فلا يجعل بعض الناس يعتدى على حقوق بعض آخر ولا يجعل
الدولة تعتدى على حقوق الناس او بالعكس • واما مقياس الامانة بنظر الامام فهو
ـ فى بدايته ـ سمعة الشخص ومركز عائلته من الناحية الدينية • كل ذلك بالطبع
يسبق عملية التوظيف • فاذا ظهر الشخص ـ بعد التوظيف ـ بمظهر الخائن وثبت
ذلك عليه وجب اقصاؤه عن الخدمة وتطبيق حدود الله عليه • فالموظف الامين
غير الكفوء يكتفى ـ كما ذكرنا ـ باقصائه عن الخدمة • اما غير الامين فيقصى عن
الخدمة ثم تطبق حدود الله عليه • وسبب ذلك هو ان خيانة غير الكفوء تحصل عفوا
دون قصد فى الاعم الاغلب • اما اذا ثبتت خيانته مع عدم كفاءته فيجب ان يعزل
ثم يعاقب : يعزل لعدم كفاءته ويعاقب لخيانته بعد ثبوت ذلك عليه بالطبع • ويعكس
الامر عند الخائن الكفوء • ويمكن ان يشبه عمل الاول منهما ـ فى حالة حدوثه
بسبب عدم الكفاءة ـ بما يحدثه وقوع حجر من مكان مرتفع على احد المارة • وعمل
الثانى بقذف ذلك الشخص بذلك الحجر من قبل بعض الناس بصورة مقصودة •
فتنتفى المسئولية فى الحالة الاولى مع ما يتبعها من العقاب • هذا بالاضافة الى ان
فى موضوع الخيانة ـ عند الموظف الكفوء غير الامين ـ امرا خلقيا ظاهرا هو وان
كان ذا صلة بعدم كفاءته الا انه شىء مستقل عنه • اما الخيانة ـ عند غير الكفوء ـ
فهى ناتجة عن عدم الكفاءة اللهم الا اذا كان ذلك الموظف يجمع بين الصفتين :
الخيانة وعدم الكفاءة •

اما القضاة فيجب ان تتوافر فيهم ـ بالاضافة الى ما ذكرنا ـ شروط أخرى

هى كذلك على جانب كبير من الاهمية والروعة • وقد نص عليها الامام بقوله :

« ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيتك فى نفسك : ممن لا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفىء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بادنى فهم دون اقصاه • اوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج، واقلهم تبرما بمراجعة الخصم واصبرهم على تكشف الامور واصرمهم عند اتضاح الحكم • ممن لايزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء • » ومن طريف ما يروى عن الامام فى موضوع الاطراء انه حذر المسلمين عامة عن اطرائه ـ لغرض المصانعة ـ على ما يقوم به من الاعمال وذلك لتعويد الحكام على التزام الحق للحق نفسه دون اطراء او اغراء من جهة ، وتعويد الرعية على عدم الاطراء على موظف لمجرد قيامه بواجب هو ملزم ان يقوم به لقاء ما يتقاضاه من أجور ويتمتع به من نفوذ • قال علي : « ربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء ، فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لاخراجى نفسى الى الله من البقية فى حقوق لم افرغ من ادائها وفرائض لابد من امضائها • فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا منى بما يتحفظ به اهل البادرة ولا تخالطونى بالمصانعة ولا تظنوا بى استثقالا فى حق قيل لى ولا اعظام لنفسى • فانه من استثقل الحق ان يقال له او العدل ان يعرض عليه كان العمل بهما اثقل عليـــــه • »

لقد مر بنا ذكر الشروط التى وضعها الامام لانتقاء القضاة وهى شروط لا يتوافر وجودها الا فى القليلين من الناس • وقد فطن الامام الى ذلك حين قال ـ بعد ذكر صفاتهم ـ « واولئك قليل • » فينبغى البحث عنهم والتقاطهم على القدر المستطاع • على ان هؤلاء ـ مع هذا ـ كما سلف ان ذكرنا من الممكن ان يكتسبوا

(عن طريق الخبرة اثناء ممارستهم العمل) كثيرا من المزايا التى جعلها الامام اساسا لانتقائهم ، وان يبرعوا فى الوقت نفسه فى المزايا التى كانت لديهم قبل التوظيف . ومن الممكن ان يحصل ذلك كله اذا تذكر هؤلاء انهم عرضة للفصل والاهانة والعقاب اذا ما قصروا فى اداء واجبهم . وبالعكس فأنهم مؤهلون للمكافأة والترفيع اذا ما قاموا بواجبهم على الوجه المرضى . فالموظفون ـ بعد ان يتم تعيينهم على الشكل الذى وصفناه ـ يجب ان يخضعوا لرقابة حكومية شديدة وان يتعرضوا بصورة مستمرة لتفتيش دقيق ليعرف الصالح منهم فيكافأ على صلاحه والطالح ليلقى جزاءه . وقد اشار الى ذلك الامام بقوله : « ثم تفقد اعمالهم وابعث العيون من اهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك فى السر لامورهم حدوة لهم على استعمال الامانة والرفق بالرعية . » أى ان المفتشين الحكوميين يجب ان يكونوا من أهل الصدق والوفاء لكى يزودوا الوالى والخليفة باوثق الاخبار وادق المعلومات عن الموظفين ـ لان على تقاريرهم واخبارهم يتوقف مصير الموظف فى حالتى الثواب والعقاب . فاذا كذب المفتش او تحيز أو خان ما ائتمن عليه تعرضت اجراءات الوالى ـ او الخليفة ـ المستندة الى تلك الامور ـ الى الزلل والشطط . والغاية من مراقبة الموظفين ـ مراقبة سرية كما ذكرنا ـ هى ان تقدم عنهم تقارير سرية وهم على حقيقتهم غير متظاهرين او مغالطين . يضاف الى ذلك ان هذا النوع من المراقبة يحفزهم على القيام بواجباتهم على الوجه المطلوب « فان احد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت عليه عندك اخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت العقوبة عليه فى بدنه واخذته بما اصاب عمله . ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة . »

فللوظيفة (بقسميها الادارى والقضائى) اذن بنظر الامام جانب تربوى

تثقيفى بالاضافة الى جانبها المتصل بانجاز أمور الناس وفق شروط الشريعة السمحاء ٠
فينبغى والحالة هذه ان تتوخى من المرشحين للوظيفة : « اهل التربية والحياء من اهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام ٠ فانهم اكرم اخلاقا واقل فى المطامع اسرافا وابلغ فى عواقب الامور ٠ » من غيرهم ٠ ثم « لا يكون اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ٠٠٠ ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ٠ فاعمد لاحسنهم كان فى العامة أثرا واعرفهم بالامانة وجها ٠ » أى ان الامام اوصى واليه ان لا ينتقى موظفيه من ابناء الاسر الطالحة التى هدمها الاسلام ، بل من ابناء الاسر المتواضعة التى رفع شأنها الاسلام من حضيض الجاهلية الى مستوياته الرفيعة ٠ ثم اشترط عليه ان يكون المرشحون للتوظيف مع ذلك ـ أى مع كونهم من ذوى الاحساب الاسلامية الرفيعة ـ احسن اولئك فى العامة أثرا واعرفهم بالامانة وجها ٠ لان « من ابطأ به عمله ـ كما ذكرنا ـ لم يسرع به نسبه » وان كان ذووه ممن ينطبق عليهم ما ذكرناه ٠ فالتحدر من الاسر الاسلامية الكريمة شرط اساس من شروط التوظيف ولكنه بحد ذاته غير كاف كما رأينا ٠ فجعل الامام ذلك الشرط مشروطا كذلك ـ اذا جاز هذا التعبير ـ حين اشترط ان يكون الشخص المرشح للوظيفة ـ مع ذلك كله ـ أحسن اولئك (المتحدرين من الاسر الاسلامية الكريمة) أثرا فى العامة واعرفهم بالامانة وجها ٠ واذا لم يحل ذلك كله بين ذلك الشخص ـ بعد توظيفه بالطبع ـ وبين امتداد يده الى ما تحتها من الاموال والمصالح ـ للدولة والناس وجب فصله وتطبيق حدود الله عليه حسبما تستلزم الظروف ذلك ٠ ومن طريف ما يروى عن الامام فى هذا الصدد انه كتب الى المنذر بن الجارود العبدى ـ وكان قد استعمله على بعض النواحى فخان الامانة

فى بعض ما ولاه من اعمال : « اما بعد فان صلاح ابيك قد غرنى فيك • وظننت انك تتبع هديه ••• ولئن كان ما بلغنى عنك حقا لجمل اهلك وشسع نعلك خير منك ••• فاقبل الي ّ حين يصل اليك كتابى • » يتضح من كل ذلك ان الامام نهى عن التحيز ـ بشتى صورة ومختلف مجالاته ـ فى هذه القضية ـ أى موضوع التوظيف ـ وفى غيرها على السوا • « فان كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الافعال • »

ذلك ما يتصل بانتقاء الموظفين للادارة والقضاء • اما ما يتعلق بموقف الوالى منهم فيتجلى ـ فيما يتصل بالاداريين ـ بقوله « ثم اسبغ عليهم الارزاق ••• فان ذلك قوة لهم على استصلاح انفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت ايديهم وحجة عليهم ان خالفوا امرك او ثلموا امانتك • » وهذا الاجراء من انجح الاجراءات وقاء من الرشوة ومن اعدلها فى معاقبة المرتشين • واما القاضى فأكثر « تعاهد قضائه وافسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس • واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن اغتيال الرجال له عندك • » أى ان الامام قد خص القاضى ـ بالاضافة الى ما ينطبق عليه من شروط التوظيف التى ذكرناها ـ بمنزلة رفيعة من الناحيتين المادية والمعنوية • وسبب ذلك كما لا يخفى هو دقة مركزه واهميته من الناحية العامة بالنسبة لحقوق الناس • فأمر الامام الوالى ـ من الناحية المادية ـ ان يفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس • وهو اجراء فطن له مؤخرا بعض فطاحل المشرعين البريطانيين كما هو معروف • على ان الامام مع هذا لم يكتف بذلك بل سبق هؤلاء المشرعين (الذين جاؤا من بعده بمئات السنين) بأمور لم ينتبهوا اليها على ما نعلم حتى كتابة هذه

السطور • فخص القاضى بمنزلة رفيعة من الناحية المعنوية ايضا وذلك بايصائه الولاة ـ والمسئولين الاخرين ـ ان يصادقوا على قرارات القاضى العادل ـ لانها عادلة بالطبع ـ فلا يسمحوا للمتنفذين (الذين لم يتسن لهم التأثير على القاضى نفسه) بالتأثير على من هو فوقه فتنقض قراراته العادلة ويعطل عمله وربما فسد خلقه كذلك • يضاف الى ذلك انه جعل للقاضى ـ العادل ـ منزلة رفيعة عند من هم فوقه فى سلم الرتب الحكومية ليسد بذلك منافذ الموتورين (والمنافقين والمصطادين فى الماء العكر) الى الوالى لكيلا يوغروا صدره عليه فى الباطل والسعاية • وفى ذلك ما فيه من تشجيع للقاضى ـ ولغيره من القضاة واضرابهم ـ على المضى فى توخى العدل فى الحكم بين الناس من جهة وتثبيط عزائم مناوئيه وافساد مؤامراتهم من جهة أخرى •

واما ما يتعلق بموظفى السلك العسكرى « فول من جنودك انصحهم لله ولرسوله ولامامك • وانقاهم جيبا وافضلهم حلما • ممن يبطىء عن الغضب ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الاقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف • فاذا فرغت من انتقائهم على الشكل المذكور « فتفقد من امورهم • ولا يتفاقمن فى نفسك شيء قوتهم به ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وان قل • فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك • ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فأن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسم موقعا لا يستغنون عنه • » فرجال الجيش يجب ان يتم انتقاؤهم ـ بنظر الامام ـ حسب شروط خاصة وان كانت تجرى ، من حيث الاساس ، على المجرى العام الذى ذكرناه حين التحدث عن الموظفين المدنيين • وبما

ان الناحية العسكرية ترتبط بالذهن عادة مع الشدة والقسوة وأخذ الناس بالصرامة والعنف فقد فطن الامام الى ذلك فحدد مجال عمل ذلك من جهة وعمل على اضعافه في المواطن التى تحتاج الى ذلك الاضعاف من جهة أخرى • وقد اشترط الامام اول ما اشترط فى الجنود ـ أى رجال الجيش من مختلف الصنوف المعروفة فى عهده ـ النصيحة للعقيدة الاسلامية لانها ـ بنظره ـ الاساس الذى تستند اليه تصرفات الجندى ـ وغيره من المسلمين ـ فى جميع مجالات الحياة • ثم نص الامام ـ بالاضافة الى ذلك ـ على الشرط العام الذى يجب ان يتوافر فى جميع افراد الجهاز الحكومى (المدنى والقضائى والعسكرى) وهو نقاوة الجيب • ثم اشترط الامام فى الجندى شرطا خاصا ـ ليزيل جانب الصرامة المرتبط بمهنته فى المواضع التى تستلزم ازالته ـ: هذا الشرط هو ان يكون الجندى « ممن يبطىء عن الغضب ويستريح الى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الاقوياء » ـ يبطىء عن الغضب أى لا يوقع العقوبة بمن يعتقد انه يستحقها اثناء غضبه لينتفى عنصر الانتقام فى الموضوع من جهة ، وليتسنى له (أى لمن يوقع العقوبة مباشرة أو من له سلطة الامر بايقاعها) بعد زوال غضبه ان ينظر فى الموضوع برأيه الهادىء لا بعواطفه الثائرة ليكون حكمه سليما من الناحية العقلية • « فان من استقبل وجوه الاراء عرف مواقع الخطأ • » ولا يسهل على من استسلم لعاطفة الغضب ان يستقبل وجوه الاراء ليعرف مواقع الخطأ فيها وفيما يتبعها من الاجراءات كما هو معروف • « املك حمية انفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك • واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك وتملك الاختيار • » وهناك امر لابد من الاشارة اليه فى هذا الصدد هو ان الامام يعتبر العقوبة وسيلة للاصلاح لا للانتقام • وهى ـ بنظره ـ آخر اجراء ينبغى

ان يستعان به • فالمذنب بنظره كالمريض يجب ان يعالج باللطف والارشاد على القدر المستطاع • على ان العقوبة ـ اذا كان لابد من الاستعانة بها لتقويم الاخلاق كما نصت على ذلك العقيدة الاسلامية المتمثلة فى القرآن والسيرة النبوية ـ فيجب ، مع ذلك ، ان يتأخر انزالها (لفترة مناسبة من الزمن) ليرى المذنب جريرته ونتائجها وما يتبعها من عقوبة لعله يرتدع عن الذنب فى المستقبل • « فلا تتبع الذنب العقوبة واجعل بينهما وقتا للاعتذار • » هذا من الناحية السلبية • اما من الناحية الايجابية فازجر « المسىء بثواب المحسن » •

اما الضعفاء فقد اوصى الامام ـ كما رأينا ـ جنوده بضرورة الرأفة بهم فيعاقبونهم عن طريق التهذيب بالتجاوز عن هفواتهم ضمن الحـــدود المعقولة • واما الاقوياء (واصحاب النفوذ) فابطش بهم ـ اذا اذنبوا ـ بطشا يتناسب هو مع طبيعة الذنب • وسبب ذلك هو ان العفو عن القوى ربما يجعله يعتقد بان ذلك العفو ناتج عن نفوذه فيتمادى فى الزلة • هذا من الناحية النفسية • اما من الناحية الاجتماعية فقد يخيل للآخرين ان نفوذ المجرم المتنفذ (المعفو عنه) كان عاملا من عوامل العفو عنه الامر الذى يشجعهم ـ وبخاصة اذا كانوا من ذوى النفوذ او ممن يمتون اليهم بصلة ـ على ارتكاب الباطل • فتنتفى ـ فى الحالتين ـ الغاية من العفو وهى الاصلاح والتهذيب عن طريق العفو نفسه •

اما ترفيع افراد الجيش وترقيتهم (بعد تعيينهم وفق الشروط التى ذكرناها) فقد وضع ذلك الامام بشكل صريح لا يحتاج الى شرح او توضيح • ولكى يكون الترفيع عادلا وجب اولا وقبل كل شىء مراقبة اعمالهم وتقديم التقارير الامينة عنهم والتوصيات العادلة بحق كل منهم • ثم اعطاء كل ذى حق حقه فى مجال الترفيع والتقدير •

ويجب مع ذلك كله ان تقاس قيمة كل منهم بنوع عمله بغض النظر عن الاسر والاحساب • « فمن ابطأ به عمله ـ كما ذكرنا ـ لم يسرع به حسبه • » ولكن ينبغي مع هذا ان يطرى المسئولون على الاعمال الحسنة التى يقوم بها بعض الجنود مهما كانت بسيطة وذلك تشجيعا لهم على الاستمرار عليها واستنهاضا للاخرين على الاقتداء باصحابها • وهناك امران آخران يتصلان بالجيش يجمل بنا ان نشير اليهما قبل الانتقال الى التحدث عن الولاة • واولهما موقف الامام بصورة عامة من الجيش من حيث كونه ركنا من اركان جهاز الحكم فى البلاد • وثانيهما موقفه من القطعات العسكرية التى تجهز للاشتراك الفعلى مع الخصم ، وموقفها ممن تمر بارضهم من المواطنين • وقد لخص الامام الجانب الاول منهما بقوله « ان حقا على الامام ان لا يغيره على رعيته فضل ناله ولا طول خص به • وان يزيده ما قسم الله له من نعمة دنوا من عباده وعطفا على اخوانه • الا وان لكم عندى ان لا احتجز دونكم سرا الا فى حرب ولا اطوى دونكم امرا الا فى حكم • ولا أؤخر لكم حقا عن محله ولا اقف به دون مقطعه وان تكونوا عندى فى الحق سواء • ولى عليكم الطاعة وان لا تنكصوا عن دعوة ولا تفرطوا فى صلاح وان تخوضوا الغمرات الى الحق • فان انتم لم تستقيموا لي فلم يكن احد اهون عليّ ممن اعوج منكم • » فالامام يريد ان يطبق مبدأ العدالة الاجتماعية تاما غير منقوص • وفق مستلزمات الشريعة الاسلامية على الجنود وعلى غيرهم من افراد الشعب ومن اعضاء الحكومة • وهو يريد من افراد الجيش ان يعينوه على ذلك فى مجال عملهم • ومع ذلك كله « فلم يكن احد اهون عليه ممن اعوج منهم » فيجب ان لا يدفعهم مركزهم العسكرى (واعتماد الخليفة عليهم فى حفظ الامن والوقوف للاعداء بالمرصاد) الى الزهو وعدم

الاكتراث بالقانون فان ذلك يعرض اصحابه للعقاب . فليس احد - من هذا الجيش العزيز - باهون على الامام ممن اعوج فى تصرفاته من افراده . اما ثانى الامرين اللذين ذكرناهما فقد نص عليه الامام بقوله : (فى كتاب له الى العمال الذين يطأ الجيوش عملهم) « ... اما بعد فانى سيرت جنودا هى مارة بكم . وقد اوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الاذى وصرف الشذى وانا ابرأ اليكم والى ذمتكم - يعنى اليهود والنصارى - من معرة الجيش ..... وانا بين ظهر الجيش - أى فى اعقابه - . فارفعوا اليّ مظالمكم وما عراكم مما يغلبكم من امرهم وما لا تطيقون دفعه الا بالله وبى اغيره بمعونة الله . » أى ان الامام يريد من الجيش - فى حالة مسيره الى المعركة او رجوعه منها - ان يتحلى بالخلق الاسلامى - الذى وصفناه - فيما يتصل بالاماكن التى يمر بها وفى موقفه من المسلمين وغير المسلمين من اهل الذمة . ومن يخالف ذلك يقع - دون شك - تحت طائلة العقاب . ثم يختتم الامام موقفه من رجال السلك العسكرى بالملاحظات التالية : « ثم افسح فى آمالهم وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما ابلى ذوو البلاء منهم فان كثرة الذكر لحسن افعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل . ثم اعرف لكل امرىء منهم ما ابلى . ولا تضيفن بلاء امرى الى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه . ولا يدعونك شرف امرىء الى ان تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرىء الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما . »

واما الولاة فينطبق عليهم ما ذكرناه مع اختلاف كبير ذى جانبين : احدهما هو ان الامام نفسه يعين الولاة بصورة مباشرة فى حين انهم (- منفردين - فى الاعم الاغلب) يعينون الموظفين الآخرين . وثانيهما عظم المسئولية الملقاة على عاتق الوالى فيما

يتصل بادارة شئون المصر الذى يخضع له من الناحية السياسية والمالية والخلقية .
فالامام يحكم الاقاليم الاسلامية المختلفة بطريقة غير مباشرة . أى انه يحكمها عن
طريق الولاة . فالوالى اذن هو الخليفة (مصغرا) فى ولايته . فعليه اذن ـ كما
على الخليفة ـ واجبات خلقية وسياسية ومالية فى حدود اضيق ، من حدود الخلقة
من الناحية المكانية ، واوسع من حدود الموظفين الاخرين . وواجبات الوالى هى ـ
من الناحية الاخلاقية : « ان ينصر الله بيده وقلبه ولسانه ... وان يكسر من نفسه
عند الشهوات وينزعها عند الجمحات . » و « ليكن احب الذخائر اليك ـ ايها
الوالى ـ ذخيرة العمل الصالح . فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لها . فان
الشح بالنفس هو الانصاف منها فيما احبت او كرهت . » والانصاف من النفس فيما
احبت يعنى ان لا يسىء الوالى استعمال منصبه الرفيع فيتخذه وسيلة للانتفاع الشخصى
ـ بطريقة غير مشروعة ـ بما تحت يديه من ممتلكات ومال ونفوذ ، او لخلع ذلك
على ذويه والمقربين اليه . اما الانصاف من النفس فيما كرهت فيستلزم ان يأخذ
الحق مجراه ـ فى حالة العقوبة ـ مع النفس ومع المقربين اليه ومع ذوى قرباه ،
وفى حالة الثواب ـ او المكافأة او استرجاع حق مهضوم (مع الخصوم ومع من هم
على شاكلتهم) . اى ان الوالى يجب ان يكون ـ بعبارة أخرى ـ كالخليفة نفسه فى
تطبيق حدود الله على المستحقين فى جميع الاحوال دون تمييز من أى نوع كان .
واما واجبات الوالى تجاه الرعية فقد رسمها الامام بقوله : « اشعر قلبك الرحمة للرعية
والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم » . لان
الرعية صنفان ـ كما ذكرنا ـ اما اخ لك فى الدين او نظير لك فى الخلق .
« فاخفض لهم جناحك والن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآس بينهم فى اللحظة

والنظرة • » وبذلك يكون عدلك شاملا لا يشوبه تحيز الا للحق • فاذا عرف الناس ذلك منك عندئذ « لايطمع العظماء فى حيفك لهم ولا ييئس الضعفاء من عدلك عليهم • » فيجب عليك « ان لاتسخط الله برضا احد من خلقه • لان سخط الله يحصل من فقدان العدالة الاجتماعية بين الناس نتيجة محاباة الوالى بعضهم وايثاره اياهم – دون حق – على حساب الاخرين • « انى لا اخاف على امتى مؤمنا ولا مشركا اما المؤمن فيمنعه الله بايمانه • واما المشرك فيمنعه الله بشركه• ولكنى اخاف عليكم كل منافق اللسان عالم الجنان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون • » فالامام اذن لا يخشى على امته جورا من مؤمن لأن فى نفسه رادعا من تقوى الله ، ولا جورا من مشرك لعدم احتمال توليته أمور المسلمين لان الله لا يجيز ذلك اللهم الا اذا كان ذلك خارج نطاق ارادتهم وهنا ينتفى الشرط من اساسه • ولكن الامام يخاف من المشرك المقنع بقناع الاسلام • على انك – ايها الوالى – يجب ان تتذكر دائما فيما يتصل بعلاقتك برعيتك « انك فوقهم وولى الامر فوقك والله فوق من ولاك » فلا تتعد حدودك التى رسمها لك الله فان الخليفة فوقك يحاسبك على ذلك حسابا عسيرا والله فوق من ولاك يحاسبه ويحاسبك على السواء • وبما انك بحكم مركزك عرضة للزهو والكبرياء « فاذا حدث لك ما انت فيه من سلطانك ابهة او مخيلة فانظر الى عظم الله فوقك • » لان ذلك يريك صغر نفسك وضآلة شانك وحقارة سلطانك فيكبح جماحك ويستثير التواضع فيك ويدفعك على تحرى الصواب فى احكامك • « واعلم انه ليس شىء بادعى الى حسن ظن وال برعيته من احسانه اليهم وتخفيفه المؤنات عنهم وترك استكراهه اياهم ما ليس قبلهم • » ذلك لان هذا التصرف يجعل الرعية تشعر بان الوالى منها واليها ، وانه ساهر على خدمتها بجميع

الوسائل المشروعة المتوافرة لديه . وهذا يؤدى بدوره الى تعاونها معه فى اقامة الحق واشاعة العدل ومكافحة الرذائل سواء اكان ذلك عن طريق الترفع عن تعاطيها ام بالكشف عمن يتعاطاها لردعه من قبل الحكومة وازدرائه من قبل افراد الشعب .

ثم يوجه الخليفة انتباه الوالى الى ظاهرة اجتماعية عامة تتصل بالرعية بمجموعها فيقول « ان الرعية تفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على ايديهم فى العمد والخطأ ... وان فى الناس عيوبا الوالى احق من سترها . فلا تكشفن عما غاب عنك منها فان عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك ... فتغاب عن كل مالا يضح لك . » وفى هذه النقطة بالذات تتضح فروق رئيسة بين فلسفة الامام فى الحكم وبينها عند عمر بن الخطاب . فقد سار عمر — كما معروف — على قاعدة تختلف هى وما ذكرناه كل الاختلاف . وفى كتب التاريخ الاسلامى من الامثلة على ذلك الشىء الكثير(1) .

ذكرنا ان الرعية تفرط منهم الزلل كما قال الامام . فيجب عليك ايها الوالى مع ذلك ان تعطيهم « من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى ان يعطيك الله من عفوه وصفحه . » ولا يستطيع القارىء ان يتصور مقدار الصفح الذى ينبغى للوالى ان يعطيه لرعيته الا اذا تذكر ان الانسان محتاج — من وجهة نظر الامام — الى عفو الله فى جميع الظروف والاحوال ما دام على قيد الحياة . هذا مع العلم ان الامام كان المثل الاعلى فى اطاعة اوامر الله ونواهيه فى قلبه ولسانه ويده فى تصرفاته العامة والخاصة مع خصومه وانصاره على السواء . استمع اليه فى احدى وصاياه « اعلم انك انما خلقت للاخرة لا للدنيا ... وانك طريد الموت الذى لاينجو منه

(1) لقد ذكرنا جانبا منها فى كتابنا . « على ومناوئوه » الفصل الثالث .

هاربه ... فكن منه على حذر ان يدركك وانت على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك ... واعلم – يابنى – ان من كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان كان واقفا ويقطع المسافة وان كان مقيما وادعا.»

فالامام ، مع هذه الحالة من الورع ومخافة الله ، كان مؤمنا اشد الايمان واعمقه بانه احوج ما يكون الى عفو الله ومغفرته . اما الوالى (أى والٍ) فهو بحكم كونه دون ورع الامام بمراحل) احوج الى عفو الله ومغفرته دون شك . غير ان عفو الله كما هو معلوم له حدود لايتعداها وعفو الوالى يجب ان يسير ضمن نطاق الاسلام . والغاية المتوخاة من هذا العفو هى التهذيب والتوجيه لا التسيب وفقدان المحاسبة على الموبقات . لان فقدان المحاسبة على الموبقات عامل من عوامل انتشارها – وهو أمر يأباه الاسلام . فعفو الوالى يجب ان يكون واسعا كسعة عفو الله رقيقا لينا كرقته ولينه صارما كلما مس العمل حدا من حدود الله فتجاوزه أو خرج عليه . على ان العفو مع هذا لابد من اللجوء اليه كلما كان ذلك ممكنا.« فلا تند من على عفو .ولا تبجحن بعقوبة ولا تسرعن الى بادرة وجدت عنها مندوحة . » لان النفس البشرية تميل فى العادة الى الترنح بين نقيضين كلما عملت عملا بطريقة معينة وكانت النتيجة على خلاف ما كانت تتوخاه . فاذا صفح الحاكم مثلا عمن ارتكب جرما يستحق العقاب (لغرض ردعه وتهذيبه عن طريق العفو عنه) وكانت النتيجة تمادى ذلك الشخص فى سلوكه الشائن بدلا عن اقلاعه عنه فان الحاكم يميل فى العادة الى الاستعانة بالشدة فى معالجة امثال تلك الامور لا فيما يتصل بذلك الشخص فقط بل فيما يتصـــل بغيره من النـــاس . أى ان الحاكم (بدلا من ان يعتبر تصرف ذلك الشخص خروجا على قاعدة الصفح فى حالة خاصة – ربما تكون شاذة – فيعاقبه اذا

عاد الى تعاطى ذلك العمل فى المستقبل محتفظا بمبدأ الصفح سليما قابلا للتطبيق على تصرفات الاخرين) يثور على مبدأ الصفح فلا يصفح عنه _ اذا جاز هذا التعبير • وبالعكس • قال الامام فى هذا المعنى من الناحية الاخلاقية العامة « لا يزهدنك فى المعروف من لا يشكره لك • فقد يشكرك عليه من لا ينتفع بشىء منه • »

ثم اوصى الوالى بأمور أخرى تتصل بشخصه فقال له « اطلق عن الناس عقدة كل حقد وارفع عنهم سبب كلا وتر ••• ولا تعجلن على تصديق ساع • وليكن احب الامور اليك اوسطها فى العدل واجمعها لرضى الرعية فان سخط العامة بجحف برضى الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة • » ذلك لانه يستحيل على الوالى _ من الناحيـة العمليـة _ ان يرضى فى كل تصرف من تصرفاته جميع الاشخاص الذين يعنيهم الامر من قريب او بعيد بصورة مباشرة او غير مباشرة • أى ان كل تصرف _ مهما كان عادلا _ يرضى بعض الناس ويسخط بعضا آخر • فاذا رضى جميع الذين يعنيهم الامر بذلك التصرف العادل (وهو ما يهدف اليه الامام) فلا مشكلة هناك • اما اذا لم يحصل ذلك فان رضى العامة هو مقياس سلامة التصرف لان الخاصة من اصحاب المصالح تميل فى العادة نحو المحافظة على مصالحها المركزة بشتى الوسائل ومختلف الجهود • فتغضب وتثور وتحتج وتملأ الدنيا ضجيجا وتهديدا ومغالطة وتضليلا اذا ما تعرضت مصالحها للتصدع او الانهيار • ثم ايها الوالى ان طبيعة مركزك _ من حيث كونك واليا _ تستلزم اتصالك بالرعية بصورة مستمرة لتتفقد شئونها « فلا تطولن احتجابك عن الرعية » لان « الاحتجاب عنهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم عندهم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل • وانما الوالى بشر لا يعرف ما توارى عنه

الناس من الامور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب • »
أى ان احتجاب الوالى عن الرعية قد يخلق جوا من الريبة والدعاية الكاذبة التى
يقوم بها الموتورون والمستهترون واصحاب المصالح التى زعزع الباطل منها عدل
الحاكم • هذا من جهة • ومن جهة ثانية فان الاحتجاب قد يشجع الوالى على
تعاطى الموبقات وعلى الارتماء باحضان اصدقاء السوء • ثم انك ايها الوالى « احد
رجلين ـ اما امرؤ سخت نفسك بالبذل فى الحق ففيم احتجابك من واجب تعطيه
أو فعل كريم تسديه ؟ » فلا معنى لاحتجابك عن الرعية اذن ولا لزوم له •
بل لابد من العمل على عكسه • « او انك مبتل بالمنع • فما اسرع كف الناس عن
مساءلتك اذا ايسوا من بذلك • » وبذلك يفسد احتجابك عنهم وينتفى تحقيق ما
كنت تصبو اليه • هذا « مع ان كثرة حاجات الناس اليك ما لا مؤنة فيه عليك
من شكاة مظلمة او طلب انصاف فى معاملة • » فواجبك اذن يستلزم عدم احتجابك
عن الناس •

ثم « الصق باهل الورع والصدق ورضهم على ان لا يطروك فى باطل لم تفعله
ويبجحوك بباطل لم تفعله • » لان ذلك يفسد ورعهم ويلوث صدقهم من جهة
ويسوقك الى صحارى الزهو والخيلاء من جهة أخرى • « ولا يكونن المحسن
والمسىء عندك بمنزلة سواء ـ فان فى ذلك تزهيدا لاهل الاحسان فى الاحسان
وتدريبا لاهل الاساءة على الاساءة • » فضع كل شخص فى منزلته وصارحه بحقيقة
أمره كى تستقيم لك الناس وتعاونك على القضاء على عوامل الفساد والدس والمواربة
والتضليل • « وأكثر من مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه
أمر بلادك واقامة ما استقام به الناس • » فان العلماء والحكماء ذوو خبرة واسعة

وبصيرة نافذة فى الامور وذوو اخلاص فى اسداء النصح للحكام الصالحين •
والقاعدة العامة التى يجب ان يخضع لها سيرك العام هى ـ فى هذا المجال وامثاله ـ
ان « رضا الناس غاية لا تدرك • فتحر الخير بجهدك ولا تبال بسخط من لايرضيه
الحق » • ثم اوصاه بعدم الطيش والاندفاع ونهاه عن قتل النفس التى حرم الله الا
بالحق فقال له « اياك والدماء وسفكها بغير حلها ••• ولا عذر لك عند الله وعندى
فى قتل العمد ••• املك حمية انفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك •
واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك
الاختيار • » فلا تتبع « الذنب العقوبة ـ كما ذكرنا ـ • واجعل بينهما وقتا
للاعتذار » من قبل المذنب ، وفترة لتجنب ايقاع العقوبة بشكل أكثر مما يستحقه
الجرم فى حالة الغضب والاندفاع • اما القاعدة العامة التى وضعها الامام فى هذا
الباب فهى « ينبغى للوالى ان يعمل بخصال ثلاث : تأخير العقوبة منه فى سلطان
الغضب والاناة فيما يرتئيه من رأى وتعجيل مكافأة المحسن بالاحسان • فان فى
تأجيل تأخير العقوبة امكان العفو • » على ان العفو يجب ان يكون فى مواضعه ومع
اهله • « لان العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح من الكريم • » ـ اللئيم الذى
يعتبر العفو عنه تهربا من ايذائه فيركب رأسه ويسير سادرا فى طريق الضلال •
اما الكريم فهو الذى يعتبر العفو عنه وسيلة لزجره وارشاده فيسير فى طريق
الهداية متحاشيا تعاطى الموبقات فى تصرفاته اللاحقة •

ذلك ما يتعلق بشخصية الوالى وتصرفاته العامة المباشرة وغير المباشرة تجاه
الرعية • اما ما يتصل بحاشيته والمقربين اليه وتصرفاتهم تجاه الناس ـ فلكل وال
حاشية مقربون وذوو قربى يكونون عونا له احيانا فى اصلاح الاوضاع العامة

ووبالا عليه وعلى الناس احيانا اخرى فقد ذكره الامام بقوله : « ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف فى معاملة • فاحسم مادة اولئك بقطع اسباب تلك الاحوال • فلا تقطعن لاحد من خاصتك قطيعة ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب او عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم • » ثم اوصاه قائلا : « انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة اهلك وممن لك فيه هوى من رعيتك • « وانصاف الله يتحقق – فى هذا الباب – عن طريق السير وفق شريعته السمحاء • وانصاف الناس يتحقق بواسطة تطبيق تلك الشريعة على الاحكام والمعاملات • واعلم « ان من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء • » وقديما قيل :

الى الماء يسعى من يغص بريقه فقل اين يسعى من يغص بماء !!

« وليكن ابعد رعيتك منك اطلبهم لمعايب الناس • » لكيلا يتخذ من التحدث المشين عن اعراض الناس وسيلة يتقرب بها منك فيتمادى – بعد ذلك – فى غيه مختلقا المثالب والموبقات وواصما الناس بها دون حساب • هذا من جهة • ومن جهة ثانية فان « فى الناس عيوبا الوالى احق من سترها ••• » كما سلف ان ذكرنا • « ان شر وزرائك من كان قبلك للاشرار وزيرا ، ومن شركهم فى الاثام فلا يكونن لك بطانة • » ذلك لانه ألف – منذ عهدهم – اساليب الجور واصبحت له منذ ذلك الحين مصالح مركزة واتباع ومؤيدون فى الباطل • يضاف الى ذلك ان تصرفاته الشريرة لابد ان تكون قد ازعجت الصالحين من الناس فشجبوها الامر الذى يجعله يتحين الفرص للايقاع بهم • ففتش عن وزراء صالحين « وانت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل ارائهم ونفاذهم وليس عليه اوضارهم واوزاهم

وآثامهم • » ولا يخفى عليك ان الوزراء الجدد يختلفون – مع صلاحهم – فى نفاذ البصيرة ودقة الملاحظة وفى الاقدام واتباع الحق فليكن « آثرهم عندك اقولهم للحق • »

ذلك هو الجانب السياسى من فلسفة الحكم عند الامام • وقد لخص خطوطه العامة – من الناحية السياسية التى شرحناها والمالية التى سنبحثها فى الفصل القابل – بقوله – : « انه ليس على الامام الا ما حمل من امر ربه : الابلاغ فى الموعظة والاجتهاد فى النصيحة والاحياء للسنة واقامة الحدود على مستحقيها واصدار السهمان على اهلها • » ايها الناس : « انا رحل منكم • لى ما لكم وعلى ما عليكم • والحق لا يبطله شيء[٢] • »

---

(٢) جميع الفقرات المقتبسة من كلام الامام – التى ذكرناها فى الفصل السابق وفى هذا الفصل والتى سنذكرها فى الفصول القابلة – مأخوذة من شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ، سوف نشير فى آخر فصل من فصول هذا الكتاب الى مواقعها بالضبط ذاكرين اسم المجلد الذى اقتبسناها منه مع رقم صفحته • وغرضنا من ذلك – كما سلف ان ذكرنا – هو تفادى التكرار من جهة وعدم ارباك القارىء باشارات وهوامش كثيرة قد تفسد عليه تسلسل مطالعته •

الفصل الثالث

الجانب المالى

ذكرنا فى الفصل الاول ان فلسفة الحكم عند الامام فلسفة اخلاقية فى جوهرها ، وان الجانب المالى منها (وهو موضوع هذا الفصل) ما هو الا تطبيق للمثل الاخلاقية العليا عند الامام فى مجال الثروة والخدمات الاجتماعية ، وما يتعلق بذلك من صلات اجتماعية فى شتى ميادين الحياة • وللناحية الاخلاقية ، فى فلسفة الحكم عند الامام ، أهمية خالدة تتخطى حدود الزمان والمكان • ويتجلى أثرها اذا تذكرنا ان السياسة (من حيث هى نظرية فى الحكم واسلوب فى العمل) تقترن ـ فى العادة ـ عند كثير من الناس ببعدها عن المستويات الاخلاقية الرفيعة ، وباستنادها الى المداهنة والمراوغة ، او على الدس والتضليل او الانتهازية والوصولية ـ كما هو معروف • ويصدق الشىء نفسه على الاقتصاد فى نواحيه النظرية والعملية على السواء • وقد شذ عن ذلك علي بن ابى طالب فى فلسفته الاقتصادية كما سنشرحها ، وفى فلسفته السياسية التى شرحناها •

وقد لخص الامام الجانب الاقتصادى فى فلسفته فى الحكم فى يوم السبت لاحدى ليلة بقين من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ، وهو اليوم الذى تلا اليوم الذى

بويع فيه خليفة للمسلمين ، حين قال : « اما بعد : فانه لما قبض رسول الله استخلف الناس ابا بكر • ثم استخلف ابو بكر عمر فعمل بطريقته ، ثم جعلها شورى بين ستة فافضى الامر الى عثمان ، فعمل ما انكرتم منه ••• ثم حصر وقتل • ثم جئتمونى طائعين ••• وانى حاملكم على منهج نبيكم » • ومنهج نبيهم ، الذى يستند الى القرآن، هو (من الناحية الاقتصادى) المساواة فى العطاء بين المسلمين بغض النظر عن جميع الاعتبارات التى تميز العرب المسلمين عن المسلمين غير العرب من جهة والتى تميز ، بين العرب انفسهم ـ حسب منزلتهم فى الجاهلية التى شجبها الاسلام ـ من جهة أخرى • ثم التفت الامام ـ بعد فراغه من كلمته ـ يمينا وشمالا وقال : « الا لا يقولن رجال منكم غدا (قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الانهار ، وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الرقيقة ، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا) اذا ما منعتهم ما كانوا يخرضون فيه واصرتهم الى حقوقهم التى تعلمون » انى اعتيدت على حقوقهم المشروعة • فلا يتذمر هؤلاء الذين وصلوا الى ما هم عليه من الناحية المالية بطرق ملتوية ـ بعد وفاة الرسول ـ ويقولون « حرمنا ابن ابى طالب حقوقنا » التى اكتسبناها ـ تلك الحقوق والامتيازات المالية التى حصلت على حساب المسلمين ، مع ما يرافقها من نفوذ سياسى واجتماعى ، وما يتعلق بذلك من صرف لها فى غير اوجهها المشروعة •

ولعل السبب الذى دعا الامام الى اعلان سياسته الاقتصادية بالشكل الانف الذكر ـ بالاضافة الى مستلزمات الشريعة السمحاء ـ هو ذلك التفاوت المالى المريع بين المسلمين : اقلية مترفة مرابية لاتتقيد الا ببعض مظاهر الدين فى المواضع التى لا تتضارب هى ومصالحها ، واكثرية معدمة يبيت اغلبها على الطوى • فى حين انهم

جميعا « عباد الله والمال مال الله يقسم بينهم بالسوية ، لافضل لاحد على احد » ٠
ذكر الامام ذلك كله على مرأى ومسمع ممن حضر الاجتماع ـ من المهاجرين والانصار واهل السابقة فى الاسلام ٠ فاختلفت مواقفهم منه باختلاف مصالحهم ٠ فارتاع ذوو المصالح المركزة واسروا فى انفسهم الامتعاض والحقد لعلمهم ان ابن ابى طالب يعنى ما يقول : وانه ينجز وعده مهما كلف الامر من مشقة وتضحية ٠ ثم التفت الى السامعين وقال : « واذا كان غد ان شاء الله فاغدوا علينا فان عندنا مالا نقسمه بينكم ، ولا يتخلفن احد منكم ـ عربى ولا عجمى ـ كان من اهل العطاء أو لم يكن الاحضر » ٠ وغرضه من هذا بالطبع هو ان يريهم عدله ، من الناحية العملة الواقعية ، ليكيفوا سلوكهم وفق ذلك فى المستقبل ٠

فلما كان من الغـــد غدا علي وغدا الناس لقبض المال ٠ فأمر علي كاتبـه (عبدالله بن ابى رافع) أن : « ابدأ بالمهاجرين فنادهم واعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير » ٠ لله انت يا ابن ابى طالب !! تأمر كاتبك ان يدفع ثلاثة دنانير لطلحة ابن عبيدالله والزبير بن العوام ومروان بن الحكم ـ ومن هم على شـاكلتهم ممن اعتاد فى زمن عثمان خاصة ـ ان يأخذ من بيت المال مبالغ ضخمة لايكاد العقل ان يصدقها ٠ فلا عجب اذن ان امتعض هؤلاء السادة وحقدوا على علي الذى ساواهم فى العطاء مع مواليهم ، ومع من هم دونهم فى الاحساب ـ بمقاييس الجاهلية ـ من المسلمين ٠ واذا نظرنا الى موضوع المساواة فى العطاء من زاوية أخرى امكننا ان تقول انه يتضمن أكثر من مجرد حرمان اصحاب الامتيازات المالية من امتيازاتهم المادية ـ ذلك لانه يمتد الى مراكزهم الاجتماعية فيضعضعها ٠ وينعكس الامر عند طبقة العامة ٠ ولعل الحرمان المادى لم يثر امتعاض ذوى المصالح ولم يثر احقادهم

(نظرا للاثراء الفاحش الذى كانوا يتمتعون به) بمقدار ما اثار تطبيق مبدأ المساواة نفسه فى التقسيم ذلك الامتعاض وهذا الحقد • فقد عومل اولئك السادة كما يعامل غيرهم من المسلمين ، وفى هذا ما فيه (بنظرهم ونظر كثير من الناس) من تصديع لهيبتهم وخدش لكرامتهم • على ان الامر لم يقف عند هؤلاء وحدهم لان مبدأ المساواة قد شمل الانصار كذلك ، فلم يصبح هناك فضل لاحد على احد • ولهذا نجد عليا بعد ان فرغ من المهاجرين يخاطب عبدالله بن ابى رافع ، كاتبه ، على مرأى ومسمع من الناس بقوله : « ثم ثن بالانصار فافعل معهم مثل ذلك » • أي اعط كلا منهم ثلاثة دنانير : قفة فى العطاء لم يألفوها منذ وفاة النبى ، وضعضعة فى النفوذ والجاه •

ثم انتقل الخليفة الى موضوع المسلمين من غير العرب فقال لكاتبه : « ومن حضر من الناس كلهم – الاحمر والاسود – فاصنع به مثل ذلك » • اعط ثلاثة دنانير لكل مسلم بغض النظر عن الجنس والمركز الاجتماعى وما شاكلهما من الاعتبارات الجاهلية التى مسخها الاسلام • فارتاع اصحاب المصالح المركزة كما ذكرنا وفرح بذلك اغلب المسلمين • ومن الطريف ان نذكر فى هذه المناسبة ان سهل ابن حنيف – الصحابى الجليل المعروف – جاء مع المسلمين لتسلم حصته من المال « وجاء معه غلام له كان قد اعتقه فى يوم القسمة ، فقال للامام : يا امير المؤمنين هذا غلامى بالامس وقد اعتقته اليوم • فقال علي نعطيه كما نعطيك • واعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل احدا على احد » • ومما يروى فى هذا المجال ان طلحة والزبير وعبدالله ابن عمر بن الخطاب وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم (ومن هم على شاكلتهم من اصحاب المصالح المركزة) قد امتنعوا عن تسلم الدنانير الثلاثة التى فرضها لهم

الامام.(فعلوا ذلك بالطبع لعدم حاجتهم اليها اولا ، ولان ذلك يجرح كرامتهم ثانيا). فاجتمع هؤلاء فى ناحية من المسجد ـ على مرأى من الامام ـ وتحدثوا نجيا مدة من الزمن ، ثم ارسلوا الوليد بن عقبة بن ابى معيط ليعاتب الامام على تصرفه فى التقسيم . فجاء الوليد وشرح للخليفة وجهة نظر القوم ، وبين له سابقة بعضهم فى الاسلام وما كانوا يمتازون به من العطاء فى عهد عمر وعثمان ، وناشده الرأفة بهم وباحسابهم العربية الاصيلة ... وبعد ان انتهى ابن ابى معيط من حديثه مع الخليفة ارتقى علي منبر النبى وخاطب الحاضرين « اما بعد : فافضل الناس عند الله منزلة واقربهم من الله وسيلة اطوعهم لامره واعملهم بطاعته واتبعهم لسنته واحياهم لكتابه . ليس لاحد عندنا فضل الا باطاعة الله واطاعة رسوله . » فاسقط فى ايدى القوم وتأكدوا ان ابن ابى طالب لا يحيد عن تطبيق خطته التى رسمها له القرآن وسار رسول الله وفق مستلزماتها . فأسر بعضهم فى نفسه الشر ، ولجأ الى تدبير المؤامرات واحداث القلق والفوضى فى جسم المجتمع الاسلامى انذاك . فكانت حرب الجمل وصفين والنهروان فالتحكيم فمصرع الامام كما هو معروف .

الحق ان الخليفة لم يقم بشىء يستوجب تلك الضجة . : انه سار فى التقسيم وفق ما نص عليه القرآن وسار عليه رسول الله . وكان المفروض بطلحة والزبير (بصورة خاصة) ان يكونا عونا للامام فى ذلك . « فأما هذا الفىء فليس لاحد على احد فيه أثرة . وقد فرغ الله من قسمته . فهو مال الله وانتم عباده . » امر على جانب كبير من البساطة والوضوح . فالمال لله والمسلمون عباده ، والخليفة واسطة لتوزيع ذلك المال (بالطريقة التى عينها صاحبه) على عباده ـ لان التقسيم على طريقة أخرى خروج على ارادة صاحب المال ، وهو أمر يأباه الامام . « فمن لم

يرض به فليتول كيف شاء • » وله كل الحق فى ذلك فاما ان يمتنـع عن تسلم العطاء ، او ان يطلب من الامام عدم التقيد بالقرآن وسنة النبى فى هذا الباب • كل ذلك كان بابه مفتوحا امام الممتعضين • وهناك ، بالاضافة الى ذلك ، باب للشر انفتح امام علي على مصراعيه : هو باب الكيد للخليفة والدس عليه وتأليب البسطاء والحاقدين على الوضع القائم فاتخذ « قميص عثمان » رمزا لذلك •

وروى ان عليا ـ بعد ان فرغ من القاء كلمته التى ذكرناها ـ نزل عن المنبر فصلى ركعتين وامر عمار بن ياسر ان يستدعى طلحة والزبير ـ وكانا قد انتحيا ناحية من المسجد كما رأينا ـ لمواجهته • فحضرا • فقال لهما الامام : « نشدتكما الله هل جئتمانى طائعين للبيعة ودعوتمانى اليهما وانا كاره لها !؟ » قالا نعم • فقال : « فما دعاكما بعد الى ما ارى ؟ » فقالا انك استبددت دوننا بالامر ولم تستشرنا فى ما يعرض لك من الامور ، ولم تحفظ لنا مكانتنا الاجتماعية والمالية التى حصلنا عليها فى خلافة عمر وابن عفان فخاب ظننا فيك • فأجاب علي : « نقمتما يسيرا وارجأتما كثيرا » • فاذا كانت سياستى فى القسمة (التى نص عليها القرآن وسار عليها النبى) لا توافقكما فان هناك أمور أخرى كثيرة فى سياستى لا تزعجكما وخاصة فى القضايا التى لا تتعلق بمصالحكما : لقد تناسيتم ذلك كله فامتعضتم من طريقتى فى العطاء !! « الا تخبرانى ! ـ ادفعتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما اياه ! » لكى ارتدع عن ذلك ـ فى حالة حدوثه ـ لتعيدا النظر فى موقفكما الذى يخالف نص القرآن وسيرة النبى • « افوقع حكم او حق لاحد من المسلمين فجهلته او ضعفت عنه ؟ » لكى استشيركما او استشير غيركما من ذوى السابقة فى الاسلام فاستعين بهم على تفهمه فى حالة الجهل به ،

او على تنفيذه فى حالة ضعفى عن القيام بما يستلزمه انجازه من متاعب وصعوبات ؟
واذا لم يحصل شيء من هذا القبيل ايجيز الاسلام لكما ان تقفا منى هذا الموقف
الغليظ ؟ وانا سائر على نهج الاسلام القويم اسوق الناس مساقا واحدا ، ولا ارفع
ولا اضع الا وفق نصوص القرآن والسيرة المحمدية ؟ فقال طلحة والزبير معاذ الله ان
يحصل جهلك بنصوص القرآن او سنة النبى • او ان يحدث ضعفك فى وضع
الامور الاسلامية العليا فى اماكنها المشروعة — وانت من نعرف من العلم والاستقامة
والحزم • فقال علي : « فما الذى كرهتماه من أمرى حتى رايتما خلافى ؟ »
بينا ذلك لي وتداولا معى • فان كان رايكما وجيها — من الناحية الاسلامية — كيفت
سلوكى وفقا له ، وان لم يكن كذلك وجب عليكما — ان كنتما مسلمين حقا —
الاقلاع عن منابذتى ومحاولة صدى عن تطبيق مبادىء الدين الحنيف — • انى
اتوقع منكما أكثر من ذلك — اكثر من عدم معارضتى — وهو الجانب السلبى من
الوقوف من سياستى • اننى اتوقع ان تكونا لي عونا فى تنفيذ تلك السياسة والحد من نشاط
من يحاول عرقلتها — هذا اذا كنتما جادين فى اعتناق الاسلام واتباع اوامره ونواهيه •
فتململ الرجلان ووجما فترة من الزمن كأن على رؤوسهما الطير • ثم قالا — فى
صوت واحد — اننا ننقم عليك اختلافك عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فى
القسمة • فقد حطمت امالنا واهنت عزتنا وجرحت كرامتنا بمساواتنا بالدهماء
والرعاع من العرب والعجم • فارتاع الامام وغضب لله اشد الغضب • ولكنه كعادته
كظم غيظه وضغط على اعصابه التى عودها على ذلك فى امثال تلك الامور (وما اكثرها
فى حياته) ثم قال بكل هدوء ورقة مشيرا الى موقفه وموقفهما من بيعته وزعمهما انه
لم يستشرهما فى تنفيذ سياسته العامة : « فاما ما ذكرتما من الاستشارة فوالله ما كان

لي فى الولاية رغبة ، ولكنكم دعوتمونى اليها وجعلتمونى عليها فخفت ان اردكم فتختلف الامة • » وموقفكما من عثمان ـ الذى تساهل معكما فى العطاء الى درجة الافراط ـ معروف • فلقد البتما الناس عليه حتى لقى حتفه ، وبقى المسلمون ـ بعد ذلك ـ دون خليفة زمنى يصرف شؤنهم • ومن ثمة انثال الناس عليّ من كل جانب ، وانتما فى المقدمة ، مع علمكما برأيي فى السياسة والاقتصاد • « فلما افضت الخلافة اليّ نظرت فى كتاب الله وسنة رسوله فامضيت ما دلنى عليه واتبعته • ولم احتج الى رأيكما فيه ولا رأى غيركما • ولو وقع حكم ليس فى كتاب الله بيانه ولا فى السنة برهانه واحتيج الى المشاورة فيه لشاورتكما فيه • » ولعلي ، فى المستقبل ، واجد شيئا من هذا القبيل فانتما عندئذ من اولى الناس بالاستشارة • اما الان (ولم يحدث ما يستلزم الاستشارة) او الاستعانة لفهم حكم من الاحكام او لتنفيذه فلا مبرر لهذا الامتعاض وهذه الضجة الفارغة المفتعلة • واما القسم والاسوة فان ذلك امر لم احكم فيه بادىء بدء • قد وجدت انا وانتما رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به • » فليس هناك وجه للاعتراض • واننى لم اضع التشريع المذكور ولم اكن البادىء بتطبيقه ـ فقد وضعه الله وطبقه رسوله ، وانتما تعرفان ذلك كما اعرفه • فاذا كان لكما اعتراض فليوجه الى الله عن طريق نقد شريعته ، او الى رسول الله عن طريق نقد سيرته • فاذا حصل ذلك كان موقفكما صريحا وجريئا ، ويكون للخليفة عندئذ معكما شأن آخر • اما انكما تتظاهران بالموافقة على المبدأ النظرى كما جاء فى القرآن ، وبالاستسلام لتطبيقه فى عهد النبى ، وتنقمان عليّ فى الوقت نفسه سيرى فى ذلك الاتجاه فامر لا يقره العقل ولا ترتضيه الشريعة ولا يتفق مع الانصاف والمروءة •

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول ان المبدأ العام لفلسفة الامام فى الحكم (من الناحية الاقتصادية) هو المساواة بين المسلمين فى العطاء من بيت المال • والسبب الذى دعا الامام الى اتباع مبدأ المساواة فى التقسيم هو ، كما ذكرنا ، نص القرآن وسيرة النبى • وقد سار الامام على ذلك بكل صراحة وحزم على الرغم من عتاب العاتبين وتذمر المتذمرين وحقد الحاقدين من ذوى المصالح المركزة • وكان الامام فى ذلك كله عادلا الى اقصى حدود العدل فلا غرو ان خاطب الحاقدين وذوى النفوس المريضة بمرض الجاهلية الخبيث فقـــال : « اتامرونى ان اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه !! والله لا اطور به ما سمر سمير — ••• ولو كان المال مالى لسويت بينكم ، فكيف وانما المال مال الله !! ان اعطاء المال فى غير حقه تبذير واسراف ، وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ويضعه فى الاخرة ويكرمه فى الناس ويهينه عندالله • » اما اذا كانت المطالبة (بتغيير سياسة الامام) مبنية على الدعوة الى احداث تغيير فى اسس التشريع الذى جاء به الاسلام فذلك أمر آخر • غير ان المتذمرين لم يطلبوا ذلك — وانما دعوا الامام الى الخروج عليه من الناحيــة العملية • وسبب ذلك واضح وبسيط : هو ان تلك المطالبة تخرجهم — عند الناس — من حضيرة الاسلام • لذلك فقد صمتوا عن نص القرآن واكتفوا بمطالبة الخليفة بمخالفة ذلك النص • وعندى لو ان الخليفة انصاع لما ارادوه وخالف القرآن والسيرة النبوية لما رضى عنه اولئك المتذمرون الحاقدون — بل لا تخذوا (على العكس من ذلك) خروجه على القرآن والسنة وسيلة جديدة من وسائل التأليب عليه•

لقد مر بنا القول ان الامام سار فى سياسته العامة ، من الناحية الاقتصادية ، على مبدأ المساواة فى التقسيم بين المسلمين جميعا بما فيهم الخليفة نفسه وخاصة

اهله وذوو قرباه . وقد فعل ذلك كله ليقيم العدل بين الناس . « قال عبدالله ابن عباس دخلت على علي بذى قار – وهو يخصف نعله . – فقال لي ما قيمة هذه النعل ؟ فقلت لا قيمة لها . فقال والله لهى احب الي من امرتكم الا اقيم حقا او ادفع باطلا . » وذكر الشعبى « قال دخلت الرحبة بالكوفة – وانا غلام – فاذا انا بعلي قائما على صبرتين من فضة وذهب – ومعه مخفقة – وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع الى المال فيقسمه حتى لم يبق منه شيء . ثم انصرف ولم يحمل معه الى بيته قليلا ولا كثيرا . ورجعت الى ابى فقلت له لقد رأيت اليوم خير الناس – او احمق الناس – . قال : من هو يا بنى ؟ قلت علي بن ابى طالب . رأيته يصنع كذا – فقصصت عليه . فبكى وقال يا بنى بل رأيت خير الناس . وروى محمد بن فضيل عن هرون بن عنترة عن زادان قال انطلقت (مع قنبر غلام علي) فاذا هو يقول : قم يا امير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئة ! قال وما هو ويحك ؟ قال قم معى . فقال وانطلق به الى بيته واذا بغرارة مملوءة جامات ذهبا وفضة فقال يا امير المؤمنين رأيتك لا تترك شيئا الا قسمته . فادخرت لك هذا من بيت المال فقال علي ويحك يا قنبر ! لقد احببت ان تدخل بيتى نارا عظيمة . ثم سل سيفه وضرب ضربات كثيرة فانتثرت : من بين اناء مقطوع نصفه وآخر ثلثه ونحو ذلك ثم دعا الناس فقال اقسموه بالحصص – ثم قام الى بيت المال فقسم ما وجد فيه ... وروى مجمع التميمى قال كان علي يكنس بيت المال كل جمعـــة ويصلى فيـه ركعتين ... وروى هرون بن سعيد قال قال عبدالله بن جعفر بن ابى طالب لعلي : يا امير المؤمنين لو امرت لي بمعونة او نفقة ! فوالله ما لي نفقة الا ان ابيع دابتى .

فقال علي لا والله ما اجد شيئا الا ان تأمر عمك فيسرق فيعطيك[١] ـ ٠٠ وروى اسحق الهمدانى ان امرأتين اتيا عليا : احداهما من العرب والاخرى من الموالى ـ فسألتاه : فدفع اليهما دراهم وطعاما بالسواء ٠ فقالت احداهما انى امرأة من العرب والاخرى من العجم ٠ فقال انى والله لا ارى لبنى اسماعيل فى هذا الفيء فضلا على بنى اسحق ٠٠٠ وروى عليّ بن يوسف المدائنى ان طائفة من اصحاب عليّ مشوا اليه فقالوا : يا امير المؤمنين اعط هذه الاموال وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم واستمل من تخاف خلافه من الناس وفراره ـ وانما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع فى المال ٠ فقال لهم : اتأمروننى ان اطلب النصر بالجور !! لا والله لا افعل ذلك ما طلعت شمس وما لاح فى السماء نجم ٠ والله لو كان المال مالى لواسيت بينهم ، فكيف

(١) وتتجلى روعة موقف الامام ـ فى هذه القضية ـ اذا وازناه بموقف عثمان بن عفان من ذوى قرباه فى امثال هذه الامور اثناء خلافته آخذين بنظر الاعتبار ان عبدالله ـ المار ذكره ـ هو ربيب على وزوج ابنته وابن اخيه جعفر بن ابى طالب الذى كناه رسول الله بأبى المساكين لما رآه من عطفه عليهم واتصاله بهم ٠ وفى معرض التحدث عن حب رسول الله جعفرا ـ وجهاده فى سبيل الاسلام ـ يقول الاصبهانى فى مقاتل الطالبيين (ص ١١) « لما فتح النبى خيبر قدم جعفر من الحبشة فالتزمه رسول الله وجعل يقبل بين عينيه ويقول : ما ادرى بأيهما انا اشد فرحا !! بقدوم جعفر ! أم بفتح خيبر !٠٠٠ ولما قدم جعفر من ارض الحبشة بعثه رسول الله الى مؤته ٠٠٠ لسنة ثمان من الهجرة ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : ان اصيب زيد فجعفر بن ابى طالب على الناس ، فان اصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ٠ » وقد قتل جعفر آنذاك كما هو معروف ٠ اقول تتجلى روعة موقف الامام فى هذه القضية اذا وازناه بموقف عثمان بن عفان ـ اثناء خلافته ـ من ذوى قرباه فى امثال هذه الامور ٠ فقد اغدق عثمان العطايا غير المشروعة الى حد الاسراف على ذوى قرباه ، مع مواقفهم الخشنة من الاسلام ومن رسول الله ٠ وامتنع على باحجام عن تلبية ابسط الطلبات لمن هم على شاكلة نجل من كان سرور النبى بعودته من الحبشة (التى هاجر اليها فى سبيل الاسلام) لا يقل عن سروره بفتح خيبر وما نتج عنه من نتائج بعيدة المدى فى النصر المؤزر لرسول الله على المشركين ٠

وانما هى اموالهم !![2] » .

يتضح مما ذكرنا احد الجوانب العامة لفلسفة الحكم عند الامام من الناحية الاقتصادية . وكتب التاريخ الاسلامى والادب العربى طافحة بامثلة من جنس ما رويناه . وبما ان دراستنا منصبة من حيث الاساس (فى الفصول الثلاثة الاولى من هذه الدراسة) ـ كما ذكرنا فى المقدمة ـ على نهج البلاغة فقد اكتفينا بذكر طائفة من الامثلة التى وردت فى الكتاب المذكور . وباستطاعة الذين يريدون المزيد من ذلك استشارة امهات كتب التاريخ والادب . فالامثلة على ذلك تنطق جميعها بان الامام حرم على نفسه (وعلى أى فرد من المسلمين) الاستئثار بدرهم واحد من اموال المسلمين ـ وكان باستطاعته (لو اراد) ان يستأثر بالمال والجاه والنفوذ كما فعل غيره . « ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز . ولكن هيهات ان يغلبنى هواى ويقودنى جشعى الى تخير الاطعمة . ولعل بالحجاز وباليمامة من لا طمع له فى القرص ولا عهد له بالشبع . او ابيت مبطانا وحولى بطون غرثى واكباد حرى !! واكون كما قال القائل :

وحسبك عارا ان تبيت ببطنة   وحولك اكباد تحن الى القد

اقنع من نفسى بان يقال هذا امير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر !! او اكون اسوة لهم فى خشونة العيش ! فما خلقت ليشغلنى اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها . »

لقد كان الامام سائرا على ذلك المنوال (المساواة فى العطاء) تجاه المسلمين وتجاه نفسه وذوى قرباه كما رأينا ، وكان يهدف من وراء ذلك الى تحقيق

---

(٢) ابن ابى الحديد : شرح نهج البلاغة المجلد الاول ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

امرين : تطبيق مبادىء الدين على شئون الحياة تطبيقا تاما عادلا ، وتشجيع المسلمين على الاقتداء به على قدر ما يستطيعون • لان : « لكل مأموم اماما يقتدى به ... الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعامه بقرصيه ، الا وانكم لا تقدرون على ذلك : ولكن اعينونى بورع واجتهاد وعفة وسداد • » وكان علي يقول وهو يروى قصة اخيه عقيل : « لئن ابيت على حسك السعدان مسهدا او اجر فى الاغلال مصفدا احب الي من ان القى الله ورسوله ، يوم القيمة ، ظالما لبعض عباده وغاصبا لشيء من الحطام • وكيف اظلم احدا لنفس يسرع الى البلى قفولها ويطول فى الثرى حلولها !! والله لقد جاءنى عقيل(٣) وقد املق حتى استماحنى من بركم صاعا • ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الالوان : عاودنى مرددا وكرر علي القول مؤكدا ـ فاصغيت اليه ـ سمعى فظن انى ابيعه دينى واتبع قياده مفارقا طريقتى • فاحميت له حديدة ثم ادنيتها من جسمه ليعتبر بها • فضج ضجيج ذى

---

(٣) كان لابى طالب اربعة اولاد : طالب وعقيل وجعفر وعلى • وكان ابو طالب يحب عقيلا اكثر من سائر بنيه لذلك قال للنبى وللعباس ـ حين اتياه ليقتسما بنيه فى عام المحل فيخففا عنه ثقلهم ـ دعوا الى عقيلا وخذوا من شئتم • فأخذ العباس جعفرا وأخذ النبى عليا • وكان عقيل يكنى ابا يزيد • قال رسول الله يا ابا يزيد انى احبك حبين : حبا لقرابتك منى ، وحبا لما كنت اعلم من حب عمى اياك • اقبل عقيل مسلما مهاجرا قبل الحديبية وشهد غزاة مؤتة مع اخيه جعفر ، وتوفى أثناء حكم معاوية فى سنة ٥٠ هـ • ولم يشهد مع اخيه عليا شيئا من حروبه ايام خلافته ، وعرض نفسه وولده عليه فاعفاه • وكان انسب قريش واعلمهم بايامها ، وكانت له طنفسة تطرح فى مسجد رسول الله فيصلى عليها ويجتمع اليه الناس فى علم النسب وايام العرب ، وكان حينئذ ذهب بصره • وكان اسرع الناس جوابا واشدهم عارضة • قال معاوية لعقيل يا ابا يزيد اين يكون عمك ابو لهب اليوم ؟ قال اذا دخلت جهنم فاطلبه تجده مضاجعا لعمتك ام جميل بنت حرب بن امية • وكان فى قريش اربعة يتحاكم اليهم فى علم الانساب وفى ايام العرب وهم : عقيل بن ابى طالب ومخرمة بن نوفل الزهرى وابو الجهم من حذيفة العدوى وحويطب بن عبد العزى العامرى •

دنف من المها وكاد يحترق من مسها • فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل !! تئن من حديدة حماها انسانها للعبه !! وتجرنى الى نار سجرها جبارها لغضبه[٤] • »

ومن طريف ما يروى عن عقيل بن ابى طالب ـ من جنس ما ذكرناه ـ ماكتبه ابن الاثير (اسد الغابة ج ٤ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥) وملخصه : ان عقيـلا « لزمه دين فقدم على عليّ بن ابى طالب فى الكوفة ـ اثناء خلافته ـ فأمر عليّ ابنه الحسن فكساه • فلما امسى دعا علي بعشائه فاذا خبز وملح وبقل ••• فقال عقيل : فتقضى دينى ؟؟ قال وكم دينك ؟ قال اربعون الفا • قال ما هى عندى ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فانه اربعة آلاف فادفعه اليك • فقال له عقيل بيوت المال بيدك وانت تسوفنى بعطائك ؟ فقال اتأمرنى ان ادفع اليك اموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها ؟ قال فانى آت معاوية • فاذن له • فاتى معاوية فقال له ـ معاوية ـ يا عقيل كيف تركت عليا واصحابه ؟ قال كأنهم اصحاب محمد الا انى لم ار رسول الله فيهم • وكأنك واصحابك ابو سفيان واصحابه الا انى لم ار ابا سفيان فيكم • »

ذلك ما يتصل بفلسفة الحكم عند الامام من الناحية الاقتصادية بقدر ما يتعلق الامر بالعطـاء • اما ما يتعلق بصلة الامام بموظفى الدولة ، وصلة الحكومة بالشعب ـ من الناحية الاقتصادية ـ فهو ما سنبحثه فى الفقرات التالية : تتكون الرعية بنظر الامام من طبقات يعتمد بعضها على بعض « ولا يصلح بعضها الا ببعض : فمنها جنود الله ، ومنها كتاب الخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها اهل الجزية والخراج من اهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها

(٤) ابن ابى الحديد : شرح نهج البلاغة المجلد الثالث ص ٨٠ ـ ٨٣ •

التجار واهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجات والمسكنة . »
فليس المجتمع (بنظره) مكونا من طبقتين : مستغلة ـ بكسر الغين ـ ومستغلة ـ بفتحها ـ كما ذهب الى ذلك بعض المفكرين الحديثين . بل هو مكون ، فى زمنه على كل حال ، من الطبقات الكثيرة التى ذكرناها . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان المجتمع (بطبقاته المذكورة) ليس متنافرا بطبيعته ـ اذا ساد العدل بين ابنائه ـ وانما هو متعاون ومتضامن . وقد ذكر علي هذا المعنى (من الناحية السياسية العامة) مخاطبا رعيته ـ كما سلف ان ذكرنا ـ حين قال : « اما بعد : فقد جعل الله لى عليكم حقا بولاية امركم : ولكم علي من الحق مثل الذى لى عليكم . والحق اوسع الاشياء فى التواصف واضيقها فى التناصف . لا يجرى لاحد الاجرى عليه . ولا يجرى عليه الاجرى له ... ثم جعل الله من حقوقه حقوقا لبعض الناس على بعض . فجعلها تتكافأ فى وجوهها ويوجب بعضها بعضا ولا يستوجب بعضها الا ببعض . واعظم ما افترض الله من تلك الحقوق حق الوالى على الرعية وحق الرعية على الوالى ... فليست تصلح الرعية الا بصلاح ولاتها ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية . فاذا ادت الرعية الى الوالى حقه وادى الوالى الى الرعية حقها عز الحق بينهم ... واذا غلبت الرعية واليها او اجحف الوالى برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور ... فليس احد وان اشتد على رضى الله حرصه وطال فى العمل اجتهاده ببالغ حقيقة ما الله اهله من الطاعة . ولكن من اوجب حقوق الله على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون فى اقامة الحق بينهم . وليس امروء وان عظمت فى الحق منزلته ... بفوق ان يعان على ما حمله الله من حقه . ولا امرؤ وان حقرته النفوس واقتحمته العيون بدون ان يعين على

ذلك او يعان عليه • »

يتضح من العبارة السالفة الذكر الاساس الذى يجب ان ترتكز عليه صلة الحكومة بالشعب وواجبات كل منهما تجاه الاخر • فللحكومة على الشعب حقوق معينة فى المقدار وفى النوع • ولافراد الشعب على بعضهم وعلى الحكومة مثل ذلك • على ان تعيين حقوق افراد الشعب على بعضهم (وتعيين حقوق الحكومة على الشعب) وتحقيق ذلك من الناحية العملية الواقعية لا يتم الا عن طريق الحكومة نفسها • فنقطة البداية فى الاصلاح الاجتماعى الشامل عند الامام اذن ـ كما سلف ان ذكرنا ـ هى صلاح الحكام • فليست تصلح الرعية على حد قوله الا بصلاح ولاتها • وصلاح الولاة لا يتحقق ـ على وجهه الاتم ـ بنظر الايام (كما ذكرنا) الا اذا كانوا صالحين (بالمقاييس الاسلامية المعروفة التى نص عليها القرآن واعلنتها سيرة النبى) فى القلب واللسان واليد • ولا يستطيع الحاكم ـ كما هو معروف ـ ان يسير وفق ما ذكرناه الا اذا ارتفعت الرعية فى سلوكها ـ عقيدة وقولا وفعلا ـ من حضيض العنعنات الجاهلية والمصالح الفردية الضيقة الى المستويات الرفيعة التى جاء بها الاسلام • ولهذا قال الامام « ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية • » أى ان الولاة لا يستطيعون ان يستجيبوا للعدل الاجتماعى من حيث تطبيقه على الناس الا اذا استجابت الرعية الى ذلك فيما يتصل بما لها وما عليها • على ان سلوك الرعية ـ بمظاهره الثلاثة ـ او باحدها ـ اذا كان ملوثا (نتيجة تعرض الرعية لفترة من الحكم غير المستقيم فى السابق) فان تلك الرعية تعمل بدورها على تلويث سلوك حكامها • وقد تنجح محاولتها تلك « اذا صادفت هوى فى الفؤاد » كما يقول المتنبى • وقد جرت تلك المحاولة عبثا فى عهد الامام • فاشار الى ذلك بقوله

« انى لعالم بما يصلحكم ويقيم اودكم • ولكنى لا ارى اصلاحكم بافساد نفسى »•
يصلحكم أى يجعلكم أقل تمردا على النظام • ولا يتم هذا الا اذا روعيت مصالحهم
الخاصة على حساب الدين • ولو ان الامام « اصلحهم » بتلك الطريقة لما حصل
هذا البون الشاسع بينه وبين مناوئيه ولما اصبح من الفضيلة انسان عينها او عين
انسانها كما ذكرنا • فليس امره وامرهم واحدا • « انى اريدكم لله وتريدوننى
لانفسكم • » ايها الناس « اعينونى على انفسكم • وايم الحق لانصفن المظلوم من
ظالمه ولا قودن الظالم بخزامته حتى اورده منهل الحق وان كان كارها • » فلا تصلح
الولاة اذن الا باستقامة الرعية • فاذا استقامت الرعية (فى القلب واللسان واليد)
للحاكم الصالح وانصاعت لاوامره ونواهيه العادلة سار المجتمع فى طريق التقدم
والفلاح من الناحيتين المادية والفكرية • « واذا غلبت الرعية واليها » أى اذا تمردت
على القانون العادل (فى تطبيقه عليها خاصة) وسدرت فى طريق الغواية والضلال
او اذا تنكر الحاكم لمبادئه الانسانية و « اجحف برعيته » ساد الشقاق فى المجتمع
« وظهرت معالم الجور » • فالتعاون بين الحاكم والمحكوم اذن فى نشر العدل واشاعة
الأمن والطمأنينة بين الناس ـ دون تمييز من أى نوع كان ـ ضرورى لاستدامة
الحياة من هذه الناحية • والحاكم (مهما سمت منزلته المادية والمعنوية) محتاج لكى
يحقق ما ذكرناه الى معاونة ابسط فرد من رعاياه • والعكس صحيح بالطبع •

ويجرى مجرى ما ذكرناه قوله • « ربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء •
فلا تثنوا على بجميل ثناء لاخراجى نفسى الى الله واليكم من البقية فى حقوق لم
افرغ من ادائها وفرائض لابد من امضائها فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابرة ولا
تخالطونى بالمصانعة ولا تظنوا بى استثقالا فى حق قيل لى ولا التماس اعظام لنفسى

فانه من استثقل الحق ان يقال له او العدل ان يعرض عليه كان العمل بهما اثقل عليه • فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل • فانى لست فى نفسى بفوق ان اخطىء ولا آمن ذلك فى فعلي • » ان فى هذه العبارة جملة أمور تسترعى انتباه الباحثين – اهمها ان الامام (رغم انصرافه الكلى الى تطبيق مبادىء الحق والعدالة الاجتماعية بين الناس) يعلن – وهو على حق – ان هناك حقوقا أخرى وفرائض (سياسية واجتماعية واقتصادية) فى بعض نواحى الحياة آنذاك قد حال بينه وبين تحقيقها – مؤقتا – انشغاله بتحقيق أمور من نوعها استلزمتها الظروف العامة كما قدرها • ومع ذلك فالامام يحث رعيته على تنبيهه بصورة مستمرة الى الامور التى يرون ان الخليفة ملزم – بحكم القرآن والسنة المحمدية – بتنفيذها من الناحية الشرعية فى مختلف مجالات الحياة • كما انه يطلب اليهم ان لا يظنوا انه يمتعض من ذلك التنبيه لان من يمتعض من سماع قول الحق فهو من فعل الحق اكثر امتعاضا • وقد حل الامام من الفضيلة فى ذؤابتها حين قال – وهو الواثق من تصرفاته – ان الانسان الذى هو بمنزلته ربما ساقه اجتهاده الى رأى لم تساعده الظروف والملابسات الى التوصل الى أحسن منه فى القول وفى العمل ولهذا فهو يحتاج الى التنبيه المستمر من جانب الرعية •

فكل فرد من افراد المجتمع اذن قد سمى « الله له سهمه ، ووضع على حده وفريضته فى كتابه وسنة نبيه • » أى ان لكل صنف من اصناف المهن فى المجتمع سهما ماليا (يتناسب مع طبيعة عمله) نص عليه الله فى كتابه • فاذا فهم ذلك واعطى الناس حقوقهم كما هى كاملة غير منقوصة ساد العدل المجتمع وانتشر بين ابنائه النظام والتعاون • واذا حدث العكس شاع التذمر وسادت الفوضى وتزعزع النظام •

« فالجنود – بأذن الله حصن الرعية وسبل الامن • ثم لاقوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج • ثم لاقوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ، ولا قوام لهم جميعا الا بالتجار وذوى الصناعات ••• ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم • »

« اما الخراج فتفقد امره بما يصلح اهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لسواهم • ولا صلاح لمن سواهم الا بهم • لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله • » ولما كانت الارض هى المصدر الوحيد للانتاج أنذاك فلا غزو أن تعهدها الخليفة بعطفه ورعايته • « وليكن نظرك فى عمارة الارض ابلغ من نظرك فى استجلاب الخراج • لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة • ومن طلب الخراج بغير عمارة اخرب البلاد واهلك العباد ولم يستقم امره الا قليلا • » ولا تتم عمارة الارض الا بالعناية بالفلاحين وسد حاجاتهم الزراعية وفى مقدمتها العناية بالرى • « فان شكا الفلاحون ثقلا او علة او انقطاع شرب او بالة او احالة ارض اغتمرها غرق او اجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم • ولا يثقلن عليك شىء خففت به المؤنة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك • » والعناية بالفلاح – كما لاحظنا – لاتتم عن طريق تخفيف ما يدفعه للحكومة من عوائد فقط او اعفائه عن ذلك بل تتم احيانا عن طريق مد الحكومة يد المساعدة له بالمقدار الذى يحتاج اليه من المال وبالشكل الذى يستلزمه وضعه الاقتصادى والزراعى • على ان ثمرة ذلك كله تعود – فى المدى البعيد – على الحكومة وعلى الشعب بالنفع العميم • « فلا يثقلن عليك – ايها الحاكم – شىء خففت به المؤنة عنهم فأنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك » •

ثم اوصاه بالتجار وذوى الصناعات القريبين منهم والبعيدين على السواء • أى الذين يتعاطون اعمالهم التجارية فى دار الخلافة ـ وهم القريبون منه ـ او خارجها فى الاطراف • وقد نص الامام على البعيدين لعلمه ان الحكومة تميل فى العادة الى العناية بسكان العاصمة اكثر من العناية بسكان الاطراف احيانا ، وعلى حسابهم احيانا أخرى • هذا من جهة ومن جهة ثانية فان التجار وذوى الصناعات القريبين منهم يكونون اكثر خوفا من الحكومة ـ الا اذا سندهم المتنفذون من رجال الحكومة لسبب من الاسباب ـ واكثر تعرضا لمراقبتها وعقابها من البعيدين ـ اللهم الا اذا سندهم المتنفذون من رجال الحكم لسبب من الاسباب وهو ما لا ينبغى ان يحدث من وجهة نظر الامام كما رأينا • ولكى يتحقق العدل الاجتماعى على مقياسه الكبير ـ بنظر الامام ـ يجب ان يشمل فى هذه القضية مراقبة التجار وذوى المهن في شتى ارجاء العالم الاسلامى آنذاك • ثم قال له واعلم مع هذا « ان فى كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما فى البياعات ـ وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة • وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل واسعار لا تجحف بالطرفين من البائع والمبتاع • » اى ان الضيق الفاحش والشح القبيح واحتكار المنافع والتحكم فى البياعات توجد فى بعض التجار وذوى الصناعات لا فيهم كلهم • وسبب ذلك راجع دون شك الى تقصير الحكومة عن اداء واجبها فى هذا الشأن • فى الماضى القريب والبعيد • هذا مع العلم ان ذلك الضيق الفاحش والشح القبيح الخ ••• يظهر فى الاسعار احيانا كما يظهر في المكاييل احيانا ثانيه وفيهما معا احيانا ثالثة • وفى هذا ما فيه من ضرر للمستهلك وخاصة طبقة العامة من ذوى الدخل الضئيل • هذا بالاضافة الى كونه مظهرا من

مظاهر فساد الحكم ـ وهو أمر يتنافى مع مبادىء الحكم السليم • فيجب اذن ان تراقب الحكومة التجار وذوى الصناعات ـ القريبين منهم والبعيدين ـ من حيث الاسعار ومن حيث الاوزان ولتضع ذلك كله بشكل لا يجحف بأى فريق من الفرقاء الذين يعنيهم الامر • ولا يتم تحقيق ذلك الا اذا اعلن ذلك للناس ومن ثم روقبوا • فاذا خالف بعضهم ذلك تحتم تطبيق القانون عليه وعقابه من غير اسراف » • وهذا يعنى ان يأخذ المخالف عقوبة تتفق هى ونوع مخالفته لا ان يشبع الحاكم عاطفة الغضب عنده فيأخذ الناس بالاحقاد والضغينة ـ وهو أمر نهى الامام عنه كما سلف ان ذكرنا • على ان العقوبة التى تناسب المخالفة يجب ان لا تأخذ مجراها ـ بالطبع ـ الا بعد ان يثبتها التحقيق النزيه •

« ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، من المساكين والمحتاجين ••• اجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى الاسلام فى كل بلد • فان للاقصى منهم مثل الذى للادنى ••• ولا يشغلنك عنهم بطر • » لانهم احوج اليك من غيرهم « فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم • » لان ذلك يعمل على تشجيعهم على مقابلتك والاتصال بك للتداول معك فى حاجاتهم ومشاكلهم • « وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال » لان فيهم من العقد النفسية ما يمنعهم من الوصول اليك • « ففرغ لاولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع • ليرفع اليك امورهم » • لانهم كثيرون وليس من السهل عليك تفقد احوالهم بنفسك مع ما لديك من مشاغل كثيرة تتصل بهم وبغيرهم من الرعية • فاوكل امرهم « لاهل الخشية والتواضع » ممن تعتمد عليهم وتثق باخلاصهم وصدقهم ، اما خشيتهم وتواضعهم فيعملان على جعلهم

يخفضون (لاولئك المساكين) جناح الرحمة والشفقة ، ويجعل اولئك المساكين - بدورهم - يطمعون فى ذلك فلا يترددون عن التصريح بخوالج النفس ومتاعب الحياة . « فان هؤلاء من بين الرعية احوج الى الانصاف من غيرهم » . وذلك لضيق ذات يدهم وضآلة مراكزهم الاجتماعية وتفاهة حياتهم بصورة عامة . ولا تنس ان تتعهد « اهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لاحيلة له . » كل ذلك صعب عليك دون شك « والحق كله ثقيل » .

« واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ فيه لهم شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما تتواضع فيه لله الذى خلقك.» كى تشجعهم على حضور مجلسك وعرض ظلاماتهم عليك . ولا تنس ان فى حاشيتك وحرسك احيانا من الغلظة والشدة ما يزم اولئك المحتاجين عنك . فاقعد « عنهم جندك واعوانك من حرسك وشرطك حتى يكلمك مكلمهم غير متعتع » . وتذكر ان فى بعضهم ترددا وتلكؤا فى الحديث « فاحتمل الخرق منهم والعى ونح عنهم الضيق والانف » .

« وهناك أمور أخرى لابد لك من مباشرتها : منها اجابة عمالك بما يعيى عنه كتابك . ومنها اصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تحرج به صدور اعوانك . وامض لكل يوم عمله فان لكل يوم ما فيه ... واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله افضل تلك المواقيت . واجزل تلك الاقسام - وان كانت كلها لله اذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية ... واذا قمت فى صلاتك فلا تكونن منفرا ولا مضيعا فان فى الناس من به العلة وله الحاجة . » فلا تعطل عمل اليوم الى الغد ولا تهمل عمالك بعدم اجابتهم او تأخير تلك الاجابة - فان فى ذلك ما لا يشجعهم على الاستمرار فى

الكتابة اليك ، وفيه ايضا ما لا يردعهم عن الرذيلة اذا علموا انك مشغول عنهم بغيرهم . ولا تنس عبادتك ـ مع العلم ان قيامك بواجباتك حسب مستلزمات الدين الحنيف هو عبادة فى حد ذاته . اما صلاتك فى الجماعة فلا ينبغى ان تكون ثقيلة او طويلة او مملة ...

تلك هى اهم جوانب فلسفة الحكم من الناحية الاقتصادية عند الامام . اما جوانبها الاخرى فتتضح فى الوصايا التى يزود بها عمال الصدقات . « لا تروعن مسلما ولا تجتازن عليه كارها » أى لا تفزعن مسلما ولا تمرن على منازل لا يجوز لك ان تمر بها لتتجنب الاعتداء على الناس وتتوخى ممانعتهم اياك بسبب ذلك . « فاذا قدمت على الحى فانزل بمائهم من غير ان تخالط ابياتهم » . اى كن بعيدا عنهم ولا تفاجئهم فتدخل بيوتا لا يجوز لك ان تدخلها . او تطلع على أمور عائلية لا يجوز لك ان تطلع عليها نتيجة لدخولك المفاجىء الذى ربما لا تقصد به الاطلاع على اعراض الناس واموالهم ـ وما شاكلها من أمور لا يرغب اصحابها فى ان تطلع عليها بحكم كونك غريبا عن اهلها من جهة ، وموظفا ماليا للحكومة من جهة أخرى . ثم امض اليهم بالسكينة والوقار ـ حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتحية لهم . ثم تقول : عباد الله ارسلنى اليكم ولى الله وخليفته لاخذ منكم حق الله فى اموالكم . فهل فى اموالكم لله من حق فتؤدوه الى وليه ؟ »

أى ان الامام امر عامل الصدقات ـ بعد الذى ذكرناه ـ ان يمضى الى القوم بهدوء وتوءدة فيسلم عليهم سلاما كاملا غير منقوص ، ثم يخبرهم بمهمته (بذلك الشكل المؤدب الرقيق) ليشعرهم بان الموظف خادم للشعب لا سيد كما هى الحال فى الحكومات الظالمة المستبدة . ثم ينتظر اجابتهم . « فان قال قائل لا ، فلا

تراجعه » فلعله دفع ما عليه لجاب قبلك ، او لعله متمرد على الحكومة فليس من حقك الدخول فى جدل معه او الزامه دفع ما عليه من الصدقات (فى حالة التمرد) او مطالبته بالبينة فى حالة زعمه ان دفع ما عليه الى غيرك . ان ذلك من واجبات الوالى : فارفع اسمه اليه بعد فراغك من ذلك . وهناك جانب آخر فى هذا التصرف الحكيم : هو عدم تأليب الاخرين من ابناء الحى على الجابى (بحكم العصبية التى تربطهم بالشخص الممتنع ، وتتجسم الحكمة فى ذلك اذا علمنا ان الجابى اعزل من السلاح . وان الغاية من قدومه ليست اجبار القوم على الدفع بل تنبيههم بحلول موسم الدفع ، واخذ ما يعطيه اياه بعضهم من الاموال وايصال ذلك الى الجهة المسئولة . اما الممتنعون عن الدفع فلا يعنيه أمرهم لان هناك جهة مسئولة أخرى غيره تحاسبهم على ذلك .

« وان انعم لك منعم فانطلق معه من غير ان تخيفه او توعده او تعسفه أو ترهقه . فخذ ما اتاك من ذهب او فضة . » سر معه بلطف فانه اخوك فى الدين وزميلك فى المواطنة ومصدر من مصادر عيشك وعيش عائلتك . وخذ منه ما اعطاك دون تبرم او تخويف او توعد او اظهار شك فى نواياه . وان « كان له ماشية او ابل فلا تدخلها الا بأذن منه فان اكثرها له » . فاذا دخلت على الماشية او الابل اماكنها « فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به » . ليشعر بانك لا تريد ارغامه او اهانته ، وانما تطلب منه (بلطف ومروءة) تأدية ما عليه من واجبات فرضها الاسلام فى ما تملكه يمينه من ثروة وماشية . وليس لك ان تروع الحيوان فتربكه عليه : « فلا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوأن صاحبها فيها » . ثم اقسم الحصص ، واترك له الخيار « فاصدع المال صدعين . ثم خيره . فاذا

اختار فلا تعرضن لما اختاره • فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله

فى ماله • فاقبض حق الله منه » • وقبل ان تتوجه الى غيره « فان استقالك

فاقله » • « فاذا أخذت حق الله منه فلا تأخذن عودا ولا هرمة ولا مكسورة

ولا مهلوسة ولا ذات عوار • » أى لا تأخذ المسن من الابل

ولا العجوز من اناثها ولا المريضة • فاذا انتهى ذلك فابعث ما حصلت عليه مع من

تثق به • « ولا تامنن عليها الا من تثق بدينه ، رافقا بمال المسلمين • حتى يوصله

الى وليهم فيقسمه بينهم • ولا توكل بها الا ناصحا شفيقا وامينا حفيظا غير معنف

ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب • » اى لا ترسل الماشية او الابل مع ذى عتف

(الذى هو ضد الرفق) او مع المجحف الظالم او المتعب المعيى • بل ارسلها مع ذى

الرفق والشفقة • « فاذا أخذها امينك فاوعز له ان لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ،

ولا يحصر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهد بها ركوبا ، ويعدل بينها وبين

صويحباتها فى ذلك • وليرفه على اللاغب ، وليستأن بالتعب والضالع ويوردها ما

تمر به من الغدر ولا يعدل بها عن نبت الارض الى جواد الطرق ، وليروحها

فى الساعات ، وليمهلها عند النطاف والاعشاب » • اوصاه ان لا يسوقه جشعه

أو تدفعه قساوته (فى حالة وجودهما) الى الحيلولة بين الناقة وطفلها ، وان

لا يستنزف جميع لبنها فلا يترك منه ما يكفى لرضاع الطفل•ثم أمره ان لايتعبها فى

الركوب ولا يسير بها بمشقة دون راحة ، وان يدارى التعب فى الركوب وفى

السير ، وان يفعل مثل ذلك مع الضالع ••• واوصاه ايضا ان يتبع الطريق التى

يمر بها الماء ويتوافر فيها العشب • « حتى تأتينا بأذن الله بدنا منقيات غير متعبات

ولا منهوكات » • اى ان تجلب لنا ابلا سمينة سليمة مستريحة « لنقسمها على

كتاب الله وسنة نبيه بين المسلمين • »

والخلاصة ـ ان الجانب المالى لفلسفة الحكم عند الامام يتضح جوهره (فى خطوطه العامة) فى وصيته الى عماله على الخراج • وهذا نصها ـ « انصفوا الناس من انفسكم واصبروا لحوائجهم فانكم خزان الرعية ووكلاء الامة وسفراء الائمة • ولا تحشموا احدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبه ولا تبيعن الناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا تضربن احدا سوطا مكان درهم ولا تمسن مال احد من الناس من مسلم ولا معاهد ••• ولا تدخروا انفسكم نصيحة ولا الجند حسن سيرة ولا الرعية معونة • » لابد ان القارىء قد لاحظ معنا الجوهر الاخلاقى الذى تستند اليه اقوال الامام الآنفة الذكر فى معرض تحدثه مع الجباة وغيرهم من المختصين بالنواحى المالية لبلاد المسلمين•ولاشك أن السير وفق مستلزماتها يجنب الحكومة (والشعب) كثيرا من المتاعب ويبعد الجانبين عن كثير من اوجه الكفاح السلبى ـ الهادم ـ الذى نشاهده منتشرا فى كثير من الاقطار فى التاريخ القديم والحديث •

الفصل الرابع

فلسفة الحكم عند الامام فى ضوء ملابساتها التاريخية

استعرضنا فى الفصول السابقة فلسفة الحكم عند الامام فى جوانبها الثلاثة : الخلقى والسياسى والاقتصادى وقلنا ان ابن ابى طالب كان يسير (فى سياسته العامة من الناحيتين النظرية والعملية) وفق مستلزمات كتاب الله • ولقد كان الرسول كذلك سائرا فى سياسته العامة من الناحيتين النظرية والعملية وفق مستلزمات القرآن • ترى ما الذى حال بين الامام وبين انتشار نهجه القويم فى الحكم ؟ وبعبارة أخرى : لماذا صرع الامام قبل انجازه رسالته الخالدة (المستمدة من القرآن وسنة الرسول) ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عنه فى هذا الفصل من فصول الكتاب • ولكى نستنزف جميع امكانيات البحث المتيسرة لدينا فقد رأينا ان نقسم هذا الوجه من وجوه الدراسة قسمين : سمينا الاول منهما « بين رسول الله وعلي بن ابى طالب » واطلقنا على الثانى عبارة « الامام وقوى الشر • »

١ - بين رسول الله وعلى بن ابى طالب

هناك اوجه شبه كثيرة بين الفترة التى عاش فيها الرسول - منذ نزول الوحى عليه حتى وفاته - وبين الفترة التى عاش فيها الامام منذ تسنمه منصب الخلافة

حتى مصرعه . فكأن تاريخ الفترة قضاها النبى مبشرا بالاسلام — (ويبلغ طولها زهاء ربع قرن قضى رسول الله منها اربعة عشرة سنة فى مكة قبل الهجرة واحدى عشرة سنة فى المدينة) قد اعيد مضغوطا — فى خطوطه العامة بالطبع — فى السنين الخمس التى حكم اثناءها الامام . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هناك اوجه شبه كثيرة ايضا بين سيرة الرجلين وبين طبيعة المشاكل التى تعرض لها كل منهما من جهة وبين اسلوب معالجته اياها من جهة أخرى . وقد فطن الى ذلك ابو جعفر بن ابى زيد الحسين نقيب البصرة قبل زهاء سبعة قرون ، فاوجز الخطوط العامة للسيرتين — فى مواقع التشابه — وفى الظروف والملابسات التى احاطت بكل منهما . والى القارىء نص ملاحظات النقيب فى هذا الموضوع الطريف كما ذكرها ابن ابى الحديد فى شرح نهج البلاغة[1] « انه لا فرق عند من قرأ السيرتين : بين سيرة النبى وسياسة اصحابه ايام حياته ، وبين سيرة امير المؤمنين وسياسة اصحابه ايام حياته . فكما ان عليا لم يزل امره مضطربا معهم بالمخالفة والعصيان والهرب الى اعدائه وكثرة الفتن والحروب ، فكذلك كان النبى لم يزل ممنوا بنفاق المنافقين واذاهم وخلاف اصحابه عليه وهرب بعضهم الى اعدائه وكثرة الحروب والفتن . الست ترى القرآن العزيز مملوء بذكر المنافقين والشكوى منهم والتألم من اذاهم !! كما ان كلام عليّ مملوء بالشكوى من منافقى اصحابه والتألم من اذاهم له والتوائهم عليه . وذلك نحو قوله تعالى : الم تر الى الذين نهو عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ... اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ...

---

(١) المجلد الثانى ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال انفا اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم ... ارايت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليـــه من الموت فاولى لهم طاعة وقول معروف ... ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان يخرج الله اضغانهم ، ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيمائهم ... سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا ...

واصحاب النبى هم الذين نازعوا فى الانفال وطلبوها لانفسهم حتى انزل الله : قل الانفال لله والرسول ... وهم الذين التووا عليه فى الحرب يوم بدر وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم وذلك قبل ان تتراءى الفئتان ، وانزل الله فيهم يجادلونك فى الحق بعد ما تبين لهم كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون . وهم الذين كانوا يتمنون لقاء العدو حتى انهم ظفروا برجلين فى الطريق فسألوهما عن العير فقالا لا علم لنا منهـــا ، وانما رأينـــــا جيـش قريـش وراء ذلك الكثيب - فضربوهما ، ورسول الله قائم يصلى - فلما ذاقا من الضرب قالا بل العير امامكم فاطلبوها . فلما رفعوا الضرب عنهما قالا والله ما رأينا العير ، ولا رأينا الا الخيل والسلاح والجيش . فاعادوا الضرب عليهما مرة ثانية . فقالا - وهما يضربان - العير امامكم فخلوا عنا . فانصرف رسول الله من الصلاة وقال اذا صـــدقاكم ضربتموهما ، واذا كذبا خليتم عنهما !! دعوهما فما رأيا الا جيش اهل مكة - وانزل الله : واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ... وهم الذين فروا عنه يوم احد واسلموه واصعدوا فى الجبل وتركوه حتى شج الاعداء

وجهه ••• ونزل فى ذلك قوله : اذ تصعدون ولا تلوون على احد ، والرسول يدعوكم فى اخراكم ـ أى ينادى فيسمع نداءه آخر الهاربين لان اولهم اوغلوا فى الفرار وبعدوا ••• وهم الذين عصوا امره فى ذلك اليوم حيث اقامهم على الشعب فى الجبل ـ وهو الموضع الذى خاف ان تكر عليه خيل العدو من ورائه ، وهم اصحاب عبدالله بن جبير فانهم خالفوا امره وعصوه فيما تقدم به اليهم ورغبوا فى الغنيمة ••• وذلك ما اشار اليه تعالى بقوله : حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما اراكم كما تحبون ، منكم من يريد الدنيــا ومنكم من يريد الاخرة ـ وهم الذين عصوا امره فى غزاة تبوك بعد ان اكد عليهم الاوامر ، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه فانزل الله فيهم قوله : يا ايها الذين امنوا اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الاخرة الا قليل • الا تنفروا يعذبكم الله عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير ••• ـ حتى لقد كاشفوه مرارا فقال لهم يوم الحديبية احلقوا وانحروا مرارا فلم يحلقوا ولم ينحروا ولم يتحرك احد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم ـ وهو يقسم الغنائم : اعدل يا محمد فانك لم تعدل • وقالت الانصار له مواجهة يوم حنين اتأخذ ما افاء الله به علينا بسيوفنا فتدفعه الى اقربائك من اهل مكة !! حتى افضى الامر الى ان قال لهم فى مرض موته ائتونى بدواة وكتف اكتب لكم ما لا تضلون بعده فعصوه••• فمن تأمل حال الرجلين وجدهما متشابهين فى جميع امورهما او فى اكثرها • وذلك لان حرب رسـول اللـه مع المشركين كانت سجالا : انتصر يوم بدر ، وانتصر المشركون عليـــه يوم احــد ، وكانت يوم الخنــدق كفــافا ـ خرج هــو

وهم سواء لا عليه ولا له لانهم قتلوا رئيس الاوس سعد بن معاذ وقتل منهم فارس قريش ـ وهو عمرو بن عبد ود ، وانصرفوا عنه يوم الاحزاب بغير حرب بعد تلك الساعة التى كانت • ثم حارب بعدها قريشا يوم الفتح فكان له الظفر • وهكذا كانت حروب علي : انتصر يوم الجمل ، وخرج الامر بينه وبين معاوية على سواء ـ قتل من اصحابه رؤساء ومن اصحاب معاوية رؤساء ، وانصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه • ثم حارب بعد صفين اهل النهروان فكان الظفر له • ومن العجب ان اول حروب رسول الله كانت بدرا ، وكان هو المنصور فيها ، واول حروب علي الجمل ، وكان هو المنصور فيها • ثم ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية وصفين • ثم دعا معاوية فى آخر ايام علي الى نفسه وتسمى بالخلافة ، كما ان مسيلمة والاسود العنسى دعوا الى انفسهما فى آخر ايام النبى وتسميا بالنبوة ـ واشتد على علي ذلك كما اشتد على رسول الله امر الاسود ومسيلمة ، وابطل الله أمرهما بعد وفاة النبى ، وكذلك ابطل أمر معاوية وبنى امية بعد وفاة علي • ولم يحارب رسول الله احد من العرب الا قريش ما عدا يوم حنين ، ولم يحارب عليا من العرب احد الا قريش ما عدا يوم النهروان • ومات علي شهيدا بالسيف ، ومات رسول الله شهيدا بالسم ، وهذا لم يتزوج على خديجة ام اولاده حتى ماتت ، وهذا لم يتزوج على فاطمة ام اشرف اولاده حتى ماتت • »

ذلك هو كلام النقيب ابى جعفر فى معرض التحدث عن وجوه التشابه بين سيرة النبى وسيرة علي بن ابى طالب • وقبل ان ننتقل الى عرض جوانب أخرى من تشابه السيرتين ـ فات النقيب ان يذكرها ـ يجمل بنا ان نعرض للقارىء

ـ بشىء من الايجاز غير المخل ـ أهم ما ورد فى كلام النقيب من حوادث تاريخية اكتفى هو بمجرد الاشارة اليها •

ولكى يكون عرض تلك الحوادث مستوفيا شروطه التاريخية فسوف نجعل مؤرخى السيرة المحمدية يخاطبون القارىء مباشرة فيقصون عليه ـ كل باسلوبه الخاص ـ تلك الحوادث حسب التسلسل الذى ذكره السيد النقيب •

١ ـ فيما يتصل بالانفال : قال ابن هشام (سيرة النبى محمد ج ٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٣) : « فلما انقضى امر بدر انزل الله فيه من القرآن سورة الانفال باسرها : يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين • فكان عبادة بن الصامت ـ فيما بلغنى ـ اذا سئل عن الانفال قال فينا معشر اهل بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل يوم بدر فانتزعه الله من ايدينا حين ساءت فيه اخلاقنا فرده على رسول الله فقسمه بيننا عن سواء ـ أى على السواء • »

٢ ـ موقف المسلمين من النبى فى بدر : قال ابن هشام (سير النبى محمد ج ٣ ص ٣١٢ ـ ٣١٥) « ثم ذكر الله فى سورة الانفال القوم وسيرهم مع رسول الله حين عرف القوم ان قريشا قد ساروا اليهم ، وانما خرجوا يريدون العير طمعا فى الغنيمة فقال : كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون • يجادلونك بالحق بعد ما تبين لهم كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ـ أى كراهية للقاء القوم وانكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم • واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان لو غير ذات الشوكة تكون لكم ـ أى الغنيمة دون الحرب • ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ـ أى

بالوقيعة التى اوقع بصناديد قريش وقادتهم يوم بدر • اذ تستغيثون ربكم ـ أى لدعائهم حين نظروا الى كثرة عدد العدو وقلة عددهم • فاستجاب لكم ـ أى بدعاء رسول الله ودعائكم ـ انى ممدكم بالف من الملائكة مردفين • يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون ـ أى لاتخالفوا أمره وانتم تسمعون لقوله وتزعمون انكم منه • ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ـ أى المنافقين ••• ولو علم الله بهم خيرا لاسمعهم ••• ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون ••• يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم • ـ أى للحرب التى اعزكم الله بها بعد الذل ••• واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الارض ••• فآواكم وايدكم بنصره ••• »

٣ ـ موقفهم فى احد : ذكر ابن هشام (سيرة النبى محمد ج ٣ ص٦٦-٦٨)

« ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بأذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم ••• ـ لقد وفيت لكم بما وعدتكم من النصر على عدوكم اذ تحسونهم بالسيوف ـ أى القتل باذنى وتسليطى ايديكم عليهم وكفى ايديهم عنكم ••• حتى اذا فشلتم ـ أى تخاذلتهم ـ وتنازعتم فى الامر ، أى اتلفتم فى أمرى ـ أى تركتم امر نبيكم وما عهد اليكم ـ يعنى الرماة ـ من بعد ما اراكم ما تحبون ـ أى الفتح وهزيمة القوم من نسائهم واموالهم • منكم من يريد الدنيا ـ أى الذين ارادوا النهب فى الدنيا وترك ما امروا به من الطاعة التى عليها ثواب الاخرة ••• ثم اتبهم بالقرار عن نبيهم وهم يدعون ولا يعطفون عليه لدعائه اياهم ••• ثم قال لنبيه ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل

احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم لاخوف عليهم ولا هم يحزنون • »

٤ ـ موقفهم منـــه فى تبـوك : جاء فى السـيرة الحلبيـة (ج ٣ ص ١٦٧) تخلف عنه فى غزوة تبوك عشرة منهم ابو لبانه « فلما رجع اوثق سبعة منهم انفسهم بسوارى المسجد ـ منهم ابو لبانة ـ • فلما مر بهم رسول الله قال من هؤلاء ؟ قالوا ابو لبانة واصحابه تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم • قال وانا اقسم بالله لا اطلقهم ولا اعذر هم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ويعذرهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين • فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق انفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا • فانزل الله : وآخرون اعترفوا بذنوبهم ••• الى قوله : وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم او يتوب عليهم ـ وهم الذين لم يربطوا انفسهم بالســوارى • عنـــد ذلك اطلق رسول اللـه ابا لبـــانة واصحابه الستة •

٥ ـ تفاصيل قصة الحديبية : ذكر ابن هشام (سيرة النبى محمد ج ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٨) امر الحديبية فى العام السادس للهجرة عن ابن اسحق ان رسول الله خرج من المدينة الى مكة معتمرا « يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالا • وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ••• حتى اذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ••• وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم ابدا ، وهــذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم ••• فأمر رسول الله الناس فقال اسلكوا ذات اليمين ••• فسلك الجيش ذلك الطريق • فلما رأت

خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم رجعوا راكضين الى قريش ...
وخرج رسول الله حتى اذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس خلأت
الناقة - أى حرنت - فقال رسول الله ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن
حبسها حابس الفيل عن مكة . » وحانت صلاة الظهر فصلاها النبى بالمسلمين ،
وفات المشركين ان يهجموا على الرسول وصحبه اثناء الصلاة . غير ان خالد بن
الوليد ، احد ابطال المشركين انذاك ، اخبر قومه بوجوب التريث حتى تحين صلاة
العصر للانقضاض على النبى واتباعه اثناءها . فنزل القرآن على النبى يأمره بأداء
فريضة العصر بطريقة خاصة عرفت بعد ذلك بصلاة عسفان او صلاة الخوف .
تفاديا لغدر المشركين وافسادا لمؤامرة ابن الوليد . والى القارىء نص ذلك القرآن
كما جاء فى سورة النساء : « واذا كنت فيهم فاقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك
وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتات طائفة أخرى لم
يصلوا وليأخذوا حذرهم واسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم
وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر
او كنتم مرضى ان تضعـوا اسلحتكم ، وخذوا حـذركم ان الله اعد للكافرين
عذابا مهينا . »

لقد اصر المشركون على منع النبى واصحابه من دخول مكة . وحدثت
مداولات بين الفريقين المتنازعين تمهيدا لعقـد صلح بينهما . ويقول المقريزى
(امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٩٣) « بينا الناس قد اصطلحوا والكتاب لم يكتب اقبل
ابو جندل بن سهيل بن عمرو ... وقد افلت يرسف فى قيد ... حتى اتى
رسول الله وهو يكاتب اباه سهيلا ... ففرح المسلمون به فرفع سهيل رأسه فاذا

بابنه ابى جندل ، فقام اليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلبيبه ــ فصاح ابو جندل بأعلى صوته يا معشر المسلمين اارد الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد المسلمين ذلك شرا الى ما بهم ... وقال سهيل بن عمرو هذا اول من قاضيتك عليه ... فرده النبى عليه ... وعاد عمر بن الخطاب الى رسول الله فقال : الست رسول الله ؟ قال بلى . قال الست على الحق ؟ قال بلى.قال اليس عدونا على الباطل ؟ قال بلى . قال فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال انى رسول الله ولن اعصيه ولن يضيعنى ... فوثب عمر الى ابى جندل يمشى الى جنبه ويقول اصبر يا ابا جندل فانما هم المشركون ، وانما دم احدهم دم كلب ... يا ابا جندل ان الرجل يقتل اباه فى الله ، والله لو ادركنا اباءنا لقتلناهم فى الله . فرجل برجل . فقال ابو جندل ما لك لا تقتله انت ! قال عمر نهانى رسول الله عن قتله وقتل غيره . فقال ابو جندل ما انت احق بطاعة رسول الله منى . » فلما التأم الجمع دعا النبى علي بن ابى طالب فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو لا اعرف هذا . ولكن اكتب باسمك اللهم ... ثم قال الرسول اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم ابيك(٢) فقال النبى لعلي بن ابى طالب : « امح رسول الله ... واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو ... فان لك مثلها ... اشارة لما سيقع بين علي ومعاوية : فانهما بصفين وقعت بينهما المصالحة ... فلما كتب الكاتب : هذا ما صالح عليه امير المؤمنين علي بن ابى طالب معاوية بن ابى سفيان قال عمرو بن العاص لا تكتب امير المؤمنين ...

---

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٦٥ ــ ٣٦٦ .

وارسل معاوية ايضا لعمرو بن العاص يقول لا يكتب امير المؤمنين ، لو كنت اعلم ان عليا امير المؤمنين ما قاتلته ... ولكن اكتب على بن ابى طالب ... فقال اصحاب علي لا تمح امارة المؤمنين ... فلم يسمع منهم ، وقال للكاتب امحها ... ثم تذكر قول رسول الله ان لك مثلها فقال الله اكبر مثلا بمثل[3] » .

وبعد أخذ ورد طويلين بين النبى وسهيل بن عمرو من جهة ، وبين النبى واصحابه من جهة أخرى كتب كتاب الصلح بين الطرفين ، وهذا نصه : « باسمك اللهم ـ هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض . على انه لا اسلال ولا اغلال ، وان بيننا عيبة مكفوفة ، وانه من احب ان يدخل فى عهد محمد وعهده فعل ، ومن احب ان يدخل فى عهد قريش وعهدها فعل . وانه من اتى محمدا منهم بغير اذن وليه رده محمد اليه ، وانه من اتى قريشا من اصحاب محمد لم يردوه . وان محمدا يرجع عنا عامة هـذا باصحابه ويدخل علينا فى قابل فى اصحابه فيقيم بها ثلاثا ـ لا يدخل علينا بسلاح الا سلاح المسافر : السيوف فى القرب[4] » « وفى رواية لمسلم من حديث انس ان قريشا صالحت النبى علي ان من جاء منكم لا نرده اليكم ومن جاءكم منا رددتموه الينا . فقالوا يا رسول الله انكتب هذا ؟ قال نعم ... فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه . فابى سهيل بن عمرو الا ذلك . فكاتبه النبى على ذلك ، فقال المسلمون متعجبين : سبحان الله كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلما ؟ وكان ممن قال ذلك عمر بن الخطاب ... وفى

---

(٣) سيرة دحلان ج٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .
(٤) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٩٧ .

رواية ان عمر قال يا رسول الله اترضى بهذا ؟ فتبسم رسول الله وقال من ذهب منا اليهم فقد ابعده الله ، ومن جاء منهم الينا رددناه فسيجعل الله لهم فرجا ومخرجا »[٥] . « فلما فرغ رسول الله من الكتاب وانطلق سهيل بن عمرو واصحابه قال رسول الله لاصحابه قوموا فانحروا واحلقوا وحلوا فلم يجبه احد الى ذلك . فرددها ثلاثا فلم يفعلوا . فدخل على ام سلمة ـ وهو شديد الغضب ـ فاضطجع . فقالت ما لك يا رسول الله ! مرارا ولم يجبها . ثم قال عجبا يا ام سلمة !! انى قلت للناس انحروا واحلقوا وحلوا مرارا فلم يجبنى احد من الناس وهم يسمعون كلامى وينظرون فى وجهى . فقالت يا رسول الله انطلق انت الى هديك فانحره فانهم سيقتدون بك . فاضطبع بثوبه وخرج وأخذ الحربة ويمم هديه واهوى بالحربة الى البدنة رافعا صوته بسم الله والله اكبر ـ ونحر . فتواثب المسلمون الى الهدى وازدحموا ينحرون ... فلما فرغ رسول الله من نحر البدن دخل قبة له من ادم حمراء فيها الحلاق فحلق رأسه ، ثم اخرج رأسه من قبته وقال رحم الله المحلقين والمقصرين ... فحلق ناس وقصر آخرون »[٦] وبعد ان انتهى النبى من ذلك كله « قال عمر ورجال آخرون : يا رسول الله الم تكن حدثتنا انك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين ؟ وهدينا لم يصل الى البيت ولا نحن ؟ فقال قلت لكم فى سفركم هذا ؟ فقال عمر لا . فقال الرسول انكم ستدخلون وآخذ مفتاح الكعبة واحلق رأسى ورؤوسكم ببطن مكة واعرف مع المعرفين . ثم اقبل على عمر وقال : انسيتم يوم احد ؟ اذ تصعدون ولا تلوون على احد !! وانا ادعوكم

(٥) سيرة دحلان م ٢ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .
(٦) المقريزى ، المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

فى اخراكم ! انسيتم يوم الاحزاب ! اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم ! واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر !! »[7] « وروى الامام احمد وابو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية الانصارى الاوسى ـ قال : شهدنا الحديبية . فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله واقفا عند كراع الغميم ... وقد جمع الناس وقرأ عليهم : انا فتحنا لك فتحا مبينا ... لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ـ السورة التى نزلت عند انصرافهم من الحديبية . فقال رجل يا رسول الله او فتح هذا ؟ قال أى والذى نفسى بيده انه لفتح ... وروى موسى بن عقبة والزهرى والبيهقى عن عروة بن الزبير قال اقبل النبى راجعا فقال رجل من اصحابه : ما هذا بفتح ، لقد صددنا عن البيت ، وصد هدينـــا ، ورد رسول الله رجلين من المسلمين كانا خرجا اليـه ـ ابا جندل بن سهيل بن عمرو وابا بصير ـ . فبلغ النبى قول ذلك الرجل فقال بئس الكلام ، بل هو اعظم الفتح[8] » .

لا شك ان القارىء قد لاحظ معنا ـ فى قضية الحديبية التى ذكرناها ـ جملة أمور على جانب كبير من الخطورة . فقد تعرض النبى الى عدد من الصعوبات والمشاكل التى اثارها خصومه من جهة ، وبعض انصاره ـ وفى مقدمتهم عمر من جهة أخرى . غير ان رسول الله ـ كما لاحظنا ـ قد تغلب على ذلك كله بالوحى الذى نزل عليه آنذاك اولا وقبل كل شىء . فقد حبس ناقته ـ كما رأينا .

(٧) المصدر نفسه ج١ ص ٢٩٣ .
(٨) سيرة دحلان ج ٢ ص ٢٢٧ .

حابس الفيل عن مكة ، ونزل قرآن يأمره باقامة صلاة الخوف اثناء تلك المحنة ، وكانت سورة الفتح خاتمة المطاف • اما علي فلم يحصل له شيء من هذا القبيل اثناء التحكيم •

٦ ـ قصة الرجل الذى امر النبى بالتقوى : ذكر مسلم عن ابى سعيد الخدرى : « قال بعث علي ـ وهو باليمن ـ بذهبة وهى بتربتها الى رسول الله • فقسمها رسول الله بين اربعة نفر : الاقرع بن حابس وعيينة بن حصن وعلقمة بن علاثة وزيد الخير • فغضبت قريش وقالوا : يعطى صناديد نجد ويدعنا • !! فقال رسول الله انى انما فعلت ذلك لاتألفهم • فجاء رجل وقال اتق الله يا محمد • فقال رسول الله فمن يطع الله ان عصيته !! يأمننى على اهل الارض ولا تأمنونى ؟ وهناك حوادث أخرى تجرى هذا المجرى • نذكر منها ما يلى :

(أ) جلس النبى بعد غزوة الطائف « وفى ثوب بلال فضة يقبضها للناس على ما اراه رسول الله • فاتى ذو الخويصرة التميمى ـ واسمه حرقوص ـ فقال اعدل يا رسول الله • فقال ويلك فمن يعدل اذا لم اعدل[٩] •

(ب) « وقال معتب بن قشير العمرى (بعد الطائف ـ والرسول يعطى العطايا) : انها لعطايا ما يراد بها وجه الله !! فتغير لونه ، ثم قال : يرحم الله اخى موسى فقد اوذى بأكثر من هذا فصبر »[١٠] •

(ج) ذكر الغرالى فى احياء علوم الدين (ج ٢ ص ٢٥٣) انه « اتى رسول الله بقلادة من ذهب وفضة فقسمها بين اصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال

---

(٩) المقريزى ، المصدر السابق ج ١ ص ٤٢٥ •
(١٠) المصدر نفسه ج١ ص ٤٢٦ •

يا محمد والله لئن امرك الله ان تعدل فما اراك تعدل !! فقال ويحك فمن يعدل عليك بعدى ؟ ... وروى جابر ان الرسول كان يقبض الناس - يوم خيبر - من فضـــة فى ثوب بلال فقـــال له رجل يا رسول الله اعـــدل . » وروى المؤلف المذكور (المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٤) شيئا آخر يجرى هذا المجرى حين قال : « جاء اعرابى يطلب من الرسول شيئا ، فاعطاه ثم قال له احسنت اليك ؟ قال الاعرابى لا ولا اجملت . فغضب المسلمون وقاموا اليه . فاشار اليهم النبى ان كفوا . ثم قام النبى ودخل منزله وارسل الى الاعرابى وزاده شيئا . ثم قال احسنت اليك ؟ قال نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيرا . فقال له النبى انك قلت ما قلت ، وفى نفس اصحابى منك شىء من ذلك فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك !! قال نعم . فلما كان الغد أو العشى جاء ، فقال النبى ان هذا الاعرابى قال ما قال فزدناه فزعم انه رضى - أكذلك ؟ فقال الاعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبى ان مثلى ومثل هذا الاعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنى ارفق بها واعلم . فتوجه لها صاحب الناقة فأخذ من قمام الارض فردها هونا هونا حتى استناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها » .

لقد ذكرنا بان هناك وجوها أخرى تتماثل فيها السيرتان - سيرة النبى وسيرة الامام - لم يشر اليها ابو جعفر النقيب . والى القارىء أهم ما عثرنا عليه منها :

١ - خروج النبى مهاجرا من مكة الى المدينة ، وخروج علي من المدينة الى الكوفة .

٢ ـ ظهور المستهزئين بالنبى ، من كفار قريش ، وظهور زملائهم من الخوارج : مع التشابه الكبير بين موقف النبى من المستهزئين وموقف الامام من الخوارج المستهزئين ٠

٣ ـ تأليب الامويين النـاس على حرب النبى وحرب عليّ على السواء قاد أبو سفيان المشركين لحرب الرسول وقاد ابنه معاوية الناس لحرب الامام(١١) ٠

٤ ـ تحمس اصحاب النبى ـ بعد ظفرهم ببدر ـ للخروج الى احد ٠ وتحمس اصحاب الامام ـ بعد ظفرهم بالجمل ـ للخروج الى صفين ٠

٥ ـ التشابه بين مواقع رايات الامام ـ اثناء حربه مع مناوئيه ـ وبين مواقع رايات النبى فى حربه المشركين ٠

٦ ـ التشـابه بين فتح النبى مكة وسـيرته فيهـا وبين فتـح علي البصرة وسيرته فيها ٠

٧ ـ هذا التراث اللغوى الفكرى الرائع الذى خلفه النبى فى احاديثه وخلفه علي فى « نهجه » ٠

٨ ـ تماثل السيرتين فى الخلق والسياسة العامة :

(أ) تطبيق حدود الله على المستحقين من الناس دون استثناء ٠

(ب) المساواة فى العطاء ٠

(ج) المروءة وسعة الصدر ٠ والى القارىء تفصيل ما ذكرناه ٠

---

(١١) ومن الغريب ان يصادف الباحث لكل هاشمى خصما من الامويين ـ فى الجاهلية والاسلام ـ يسير كل منهما فى الاتجاه الذى يسير فيه اجداده ٠ فهذا هاشم وذاك امية ٠ وهذا عبدالمطلب وذاك حرب وهذا محمد وذاك ابو سفيان٠ وهذا على وذاك معاوية ٠ وهذا الحسين وذاك يزيد ٠ راجع كتابنا « الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام » ٠

١ ـ هاجر النبى من مكة الى المدينة عندما تآمر عليه كفار قريش ليقتلوه فوجد فى المدينة انصارا بذلوا للمحافظة عليه وصيانة دعوته حياتهم واموالهم • وخرج علي الى الكوفة عندما تآمر عليه اصحاب الجمل ، فوجد فيهـا انصارا ومحبين ـ غير الذين افسدهم دعاة الامويين وغير المخذلين وفى مقدمتهم ابو موسى الاشعرى ـ بذلوا فى سبيل نصرته اموالهم وارواحهم •

٢ ـ تعرض رسول الله الى اذى جماعة من الاوباش اطلق عليهم مؤرخو المسلمين اسم المستهزئين ـ وفى مقدمتهم العاص بن وائل السهمى ابو عمرو ، والحكم بن ابى العاص ابو مروان ، وتعرض علي الى اذى مجموعة من الاوباش اطلق عليهم اسم الخوارج • وكان رسول الله حليما مع المستهزئين الى اقصى حدود الحلم • وسار عليّ على منواله • وبما ان المستهزئين كانوا افرادا متفرقين ، وكان اذاهم منصبا على شخص النبى فى الاعم الاغلب ـ بسبب رسالته بالطبع ـ لذلك نجده يقف منهم موقف المتسامح ، لذاته ، المتعالى بنفسه • والى هذا الحد يصدق الشيء نفسه على الامام • ولما تجاوز اعتداء الخوارج حدود شخص الامام فشمل المسلمين وعرض امن البلاد الى الاضطراب والفوضى ، والعقيدة الاسلامية الى الاعتـداء نهض الامام فوضع فى رقابهم السيف ، كما فعـل النبى قبل ذلك مع المستهزئين •

٣ ـ تعرض رسول الله لفتنة مسلحة قادها الامويون ضده تحت زعامة ابى سفيان ، وتعرض علي لفتنة مسلحة قادها الامويون ضده تحت زعامة معاوية بن ابى سفيان • وقد انكر ابو سفيان على النبى نبوته ، كما انكر معاوية على عليّ خلافته •

وحارب ابو سفيان النبى رافعا اللات والعرى بين يديه ، وحارب معاوية عليا وبيده قميص عثمان .

٤ ـ تحمس اصحاب النبى للخروج الى المشركين فى احد ، وتحمس اتباع الامام لملاقاة القاسطين فى صفين . واراد اصحاب النبى جهاد المشركين : اما الظفر أو الاستشهاد فى ساحات القتال ، واراد اصحاب علي « جهاد » القاسطين : اما الظفر او الاستشهاد فى ساحات القتال . « فقال مالك بن سنان ـ ابو ابى سعيد الخدرى ـ يا رسول الله نحن بين احدى الحسنيين : اما ان يظفرنا الله بهم ـ فهذا الذى نريده ، والاخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة . والله يا رسول الله لا ابالى ايهما كان : ان كلا نفيه الخير ... وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة ـ اخو بنى سالم ـ يارسول الله لا تحرمنا الجنة ، فو الذى لا اله الا هو لادخلنها ... وقال خيثمة ـ ابو سعد ـ يا رسول الله ان قريشا مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومن تبعها من احابيشها . ثم جاؤونا . فلنخرج ليهم : عسى الله ان يظفرنا بهم او تكون الاخرى وهى الشهادة . لقد اخطاتنى وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا ... وقال انس بن قتادة : يا رسول الله هى احدى الحسنيين : اما الشهادة واما الغنيمة والظفر بهم . »(١٢) وقال عمار بن ياسر لعلي : « يا امير المؤمنين ان استطعت الا تقيم يوما واحدا فافعل . اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ... فوالله ان سفك دمائهم والجد فى جهادهم لقربة عند الله ، وهو كرامة ... وقال قيس بن

---

(١٢) وقال اخرون مثل ذلك ـ راجع الواقدى ، مغازى رسول الله ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

سعد بن عبادة : يا امير المؤمنين انكمش بنا الى عدونا ولا تعرّد . فوالله لجهادهم احب الي من جهاد الترك والروم لادهانهم فى دين الله واستذلالهم اولياء الله ...

وقال عتبة بن جويرية ... قد كنت اتمنى الشهادة واتعرض لها فى كل حين فابى الله الا ان يبلغنى هذا اليوم . الا وانى متعرض ساعتى هذه لها وقد طمعت الا احرمها . فما تنتظرون عباد الله من جهاد اعداء الله[13] . »

كان ذلك قبل الخروج للمعركتين : احد وصفين . اما اثناء وقوعهما فمن اروع ما عثرنا عليه (فى احد) قصة عمرو الجموح « وكان عمرو الجموح رجلا اعرج . فلما كان يوم احد ـ وكان له بنون اربعة يشهدون مع النبى امثال الاسد ـ اراد بنوه ان يحبسوه ... فأتى رسول الله فقال : يا رسول الله ان اولادى يريدون ان يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك ، والله انى لارجو ان اطأ بعرجتى هذه الجنة فقال رسول الله اما انت فقد عذرك الله ، ولا جهاد عليك . فابى عمرو الا الخروج معهم الى احد . فقال ابو طلحة نظرت الى عمرو بن الجموح فى الرعيل الاول يقول انا والله مشتاق الى الجنة ، وابنه فى أثره حتى قتلا . »[14]

وفى صفين " خرج ابن مقيد الحمار الاسدى ـ وكان ذا بأس وشجاعة ـ وهو من اهل الشام فنادى الا من مبارز ؟ فقام المقطع العامرى ، وكان شيخا كبيرا فقال له عليّ اقعد انك شيخ كبير ... فقال يا امير المؤمنين والله لا تردنى : اما ان يقتلنى فاتعجل الجنة ، او اقتله فاريحك منه ... وقال ابو عرفاء ـ جبلة بن عطية الذهلى ـ

---

(١٣) نصر بن مزاحم ، صفين ص ١٠٤ ـ ١٠٦ ، ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .
(١٤) الواقدى ، مغازى رسول الله ص ١٦٩ .

للحصين بن المنذر يوم صفين : هل لك ان تعطينى رايتك احملها فيكون لك ذكرها ويكون لى اجرها ؟ فقال الحصين وما غناى يا عم عن اجرها مع ذكرها . قال لا غنى بك عن ذلك . اعرها الى عمك ساعة فما اسرع ما ترجع اليك !! فعلم انه يريد ان يستقتل . قال فما شئت . فأخذ الراية ابو عرفاء وقال يا اهل هذه الراية ان عمل الجنة كره كله ، وهو ثقيل ... وان الجنة لا يدخلها الا الصابرون الذين صبروا انفسهم على فرائض الله وامره ، وليس شىء مما افترض الله على عباده اشد من الجهاد ... فاذا رايتمونى قد شددت فشدوا . ويحكم !! ما تشتاقون الى الجنة !! فقاتل ابو عرفاء حتى قتل . »[١٥]

٥ ـ سعى علي الى الاقتداء برسول الله فى كل شىء حتى فى مواقع راياته بالنسبة لمواقع رايات خصومه . فركز راياته ـ فى صفين مثلا ـ فى الاتجاه الذى كان الرسول يضع راياته فيه اثناء حربه مع المشركين ، ووضع معاوية راياته فى مواقع رايات اسلافه المشركين . ذكر اسماء بن حكيم الفزارى ـ على ما يروى نصر بن مزاحم[١٦] « قال كنا بصفين ـ مع علي ـ تحت راية عمار بن ياسر ارتفاع الضحى وقد استضللنا برداء احمر اذ اقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى الينا وقال : ايكم عمار بن ياسر ؟ فقال عمار انا . قال ابو اليقظان ؟ قال نعم . قال ان لى اليك حاجة ، افانطق بها سرا او علانية ؟ قال اختر لنفسك ايهما شئت . قال لا بل علانية . قال فانطق بها . قال انى خرجت من اهلى مستبصرا حتى ليلتى هذه فانى رأيت مناديا تقدم فأذن وشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، ونادى بالصلاة . ونادى مناديهم مثل ذلك . ثم اجتمعت الصلاة فصلينا

(١٥) نصر بن مزاحم ، صفين ص ٣١٥ و٣٤٣ .
(١٦) المصدر نفسه ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .

صلاة واحدة وتلونا كتابا واحدا : ودعونا دعوة واحدة . فادركني الشك في ليلتي هذه . فبت بليلة لا يعلمها الا الله حتى اصبحت فاتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له . فقال هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت لا . قال فالقه فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه . فجئتك لذلك . قال عمار : تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي ؟ فانها راية عمرو بن العاص قاتلها رسول الله ثلاث مرات وهذه الرابعة - فما هي بخيرهن ولا ابرهن بل شرهن وافجرهن . اشهدت بدرا واحدا ويوم حنين ؟ او شهدها اب لك فيخبرك عنها ؟ قال لا . قال فان مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله يوم بدر ويوم احد ويوم حنين ، وان رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الاحزاب . »

٦ - دخل النبي مكة فاتحا بعد ان استعمل قسم كبير من اهلها شتى صنوف القسوة والاعتداء عليه ، ولكنه عاملهم بالصفح والتسامح . وسار عليٌ على منواله عندما دخل البصرة ظافرا بعد معركة الجمل . فعفا رسول الله عن هند ام معاوية وعن زوجها ابي سفيان ، وعن هبار الاسود الذي اعتدى على زينب ابنته - ومن هم على شاكلتهم من الطلقاء . ولما دخل علي البصرة ذهب الى عائشة - وهي في دار عبدالله بن خلف ... وكانت صفية زوج عبدالله مختمرة ... فلما رأته كلمته بكلام غليظ . فلم يرد عليها شيئا ، ودخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها . ثم قال جبهتنا صفية ... فلما خرج اعادت صفية عليه قولها . فكف بغلته وقال هممت ان افتح هذا الباب - واشار الى باب الدار - واقتل من فيه ، وكان فيه ناس من الجرحى ، فاخبر بمكانهم فتغافل عنهم ... وكان مذهبه الا يقتل مدبرا ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا ... ولما

خرج علي قال له رجل من اسد : والله لاتغلبنا هذه المرأة • فقال لاتهتكن سترا ولا تدخلن دارا ولا تهيجن امرأة باذى وان شتمن اعراضكم وسفهن امراءكم وصلحاءكم ••• ومضى فلحقه رجل فقال يا امير المؤمنين قام رجلان على الباب فتناولا من هو امض شتما لك من صفية • قال ويلك !! لعلها عائشة ! قال نعم • فبعث القعقاع بن عمرو الى الباب فاقبل بمن كان عليه • فاحالوا رجلين من ازد الكوفة ـ وهما عجلان وسعد ابنا عبدالله • فضربهما مئة سوط واخرجهما من ثيابهما ••• ثم جهز عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الامن احب المقام ، وأعد لها اربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات • وسير معها اخاها محمد بن ابى بكر ••• وشيعها علي اميالا وسرح بنيه معها يوما[17] • »

٧ ـ ومن ابرز الادلة على تشابه السيرتين هذا التراث الخالد ـ فى التفكير والتعبير ـ الذى خلفه النبى فى احاديثه وخطبه ورسائله والذى تركه عليّ فى رسائله وخطبه واقواله • فقد جاءت احاديث الرسول ـ وخطبه ـ ورسائله آية فى روعة الاداء وسمو المعنى ونفاذ البصيرة فى مكنونات النفس البشرية وتحليل نوازعها ودوافعها وعمق المعرفة فى أثر البيئة فى الفرد من الناحية الفكرية والعاطفة وفى التوجيه السليم من الناحيتين الفردية والاجتماعية • وقد سار عليّ على منواله واقتفى أثره الى حد يستحيل معه على الباحث ـ فى كثير من الاحيان ـ ان يميز بين ما تركه علي ـ فى هذا الباب ـ وبين ما خلفه رسوله الله •

٨ ـ وهناك جوانب أخرى تتماثل فيها السيرتان كل التماثل بحيث تصبح

---

(١٧) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٠٥ ـ ١٣٢ •

احداهما صورة الاخرى للثانية : فتتماثل السيرتان فى تطبيق حدود الله على المستحقين ، وفى المساواة فى العطاء والمعاملة بين المسلمين وفى خضد شوكة العصبية الجاهلية فيما يتصل بموقف العرب المسلمين من المسلمين غير العرب ، وفى موقف قريش من سائر العرب وفى موقف ذوى الاحساب والمكانة من قريش تجاه ذوى الاحساب المتواضعة والمكانة غير المرموقة (بمقاييس العهد الجاهلى) . ويتجلى التماثل بين السيرتين كذلك فى المروءة والاسماح او العفو وسعة الصدر والوفاء بالعهد للخصوم . والامثلة على ذلك تكاد لاتقع تحت حصر . نذكر منها الامثلة التالية :

« قال ابو سفيان لنفر من قريش « الا احد يقتل محمدا ؟ فانه يمشى فى الاسواق . فاتاه رجل من الاعراب – فى منزله – فقال قد وجدت اجمع الرجال قلبا واشدهم بطشا واسرعهم شدا – أى جريا – فان انت قويتنى خرجت اليه حتى اغتاله ، ومعى خنجر مثل خافية النسر ... فقال ابو سفيان انت صاحبنا . فاعطاه بعيرا ونفقة ، وقال اطو امرك . فخرج ليلا ... ثم اقبل يسأل عن رسول الله حتى دل عليه ... فاقبل على رسول الله وهو فى مسجد بنى عبد الاشهل ، فاقبل الرجل ومعه خنجر ليغتاله ... فذهب لينحنى على رسول الله فجذبه اسيد بن حضير بداخلة ازاره – أى طرفه وحاشيته – فاذا بالخنجر . فاسقط فى يده – أى ندم – فقال رسول الله اصدقنى ما انت ؟ قال وانا آمن !! قال نعم . فاخبره بخبره . فخلى سبيله . »[١٨] وذهب النبى الى سعد بن عبادة يعوده من شكوى اصابته « فمر بعبدالله بن ابى – وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله نزل فسلم

(١٨) سيرة دحلان ج ٢ ص ١٩٠ .

ثم جلس قليلا فتلا القرآن ودعا الى الله . حتى اذا فرغ قال ابن ابى انه لا احسن من حديثك !! ان كان حقا فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدثه اياه ومن لم يأتك فلا تغته به ولا تاتيه فى مجلس بما يكره منه ... فقام رسول الله فدخل على سعد بن عبادة . »(١٩) وعندما اراد الرسول المسير الى احد لمقابلة المشركين قال لاصحابه : « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ فقال ابو خيثمة ـ اخو بنى حارثة ـ بن الحرث : انا يا رسول الله . فنفذ فى حرة بنى حارثة وبين اموالهم حتى سلك فى مال لمربع بن قيظى ـ وكان رجلا منافقا ضرير البصر ـ فلما سمع حس رسول الله ومن معه من المسلمين قام يحثو التراب فى وجوههم ، وأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال والله لو انى اعلم لا اصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ؟ فابتدره القوم ليقتلوه . فقال رسول الله لا تقتلوه . »(٢٠) واقترح احدهم على النبى ان يأتى عبدالله ابن ابى سلول « متألفا له ليكون ذلك سببا لاسلام من تخلف من قومه وليزول ما عنده من النفاق . فانطلق رسول الله وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون معه فلما اتاه النبى قال اليك عنى لقد آذانى نتن حمارك . فقال رجل من الانصار : والله لحمار رسول الله اطيب ريحا منك . فغضب لعبدالله رجل من قومه فشتمه . فغضب لكل واحد منهما اصحاب فكان بينهما ضرب بالجريد والايدى والنعال .

(١٩) ابن هشام ، سيرة النبى محمد ج ٣ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ . ومن الطريف ان نذكر فى هذه المناسبة ان عبدالله بن رواحة كان جالسا فى رجال عنده من المسلمين ، فلما سمع قول ابن ابى للنبى قال اغشنا فى حديثك فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ... فتمثل ابن ابى ـ حين سمع ذلك ـ بقول القائل :

متى ما يكن مولاك خصمك لاتزل ... تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه ... وان جذ يوما ريشه فهو واقع

(٢٠) ابن هشام سيرة النبى محمد ج ٣ ص ٩

فكفهم رسول الله وعفا عنه . »[21]

ذلك ما يتعلق بالنبى . اما ما يتصل بعلي فهو كثير . وقد مر بنا ذكر جانب منه ويتجلى ضبط الامام لاعصابه وعفوه وسعة صدره فى مواقفه من الخوارج على باطلهم . والى القارىء مثلا واحدا من مئات الامثلة فى هذا الباب دخل احد الخوارج مسجد الكوفة وعلي فيه « والناس حوله . فصاح لا حكم الا لله ولو كره المشركون فتلفت الناس . فنادى لاحكم الا لله ولو كره المتلفتون . فوجه علي برأسه اليه . فقال لاحكم الا لله ولو كره ابو حسن . فقال علي ان ابا الحسن لا يكره ان يكون الحكم لله ... وكان علي يوما يؤم الناس - وهو يجهر بالقراءة - فجهر ابن الكواء من خلفه : ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . فلما جهر ابن الكواء بها - وهو خلفه - سكت عليّ . فلما انهاها ابن الكواء عاد علي فاتم قراءته . فلما شرع عليّ فى القراءة اعاد ابن الكواء الجهر بتلك الآية . فسكت علي . فلم يزل كذلك مرارا حتى قرأ على : فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . فسكت ابن الكواء ، وعاد علي الى قراءته »[22] .

اما الوفاء بالعهد فيتجلى - فى السيرتين - باروع اشكاله فى القصتين التاليتين : ذكر البخارى فى صحيحه (ج ٢ ص ٨٩) باسانيده المختلفة عن حذيفة بن اليمان انه قال : « ما منعنى ان اشهد بدرا الا انى خرجت انا وابو حسيل فاخذنا كفار قريش فقالوا انكم تريدون محمدا !! فقلنا اننا ما نريده ، نريد المدينة . فأخذوا

---

(٢١) السيرة الحلبية ج٢ ص ٦٨ - ٦٩ .
(٢٢) ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة المجلد الاول ص ٢١٦ .

منا عهد الله وميثاقه لننصرفن الى المدينة ولا نقاتل معه • فاتينا رسول الله فخبرناه الخبر فقال انصرفا نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عزوجل • »

وحدث مثل ذلك لعلي فى حرب البصرة فوقف منـــه كموقف الرسول كما ذكرنا • قال الاحنف بن قيس بينما انا فى البصرة « اذ اتانى آت فقال هذه عائشة وطلحة والزبير قد نزلوا جانب الحريبة • فقلت ما جاء بهم ؟ قالوا ارسلوا اليك يستنصرون بك على دم عثمان • فقلت لهم اختاروا منى واحدة من ثلاث خصال : اما ان تفتحوا لى جسرا فالحق بارض العجم حتى يقضى الله من أمره ما قضى ، او الحق بمكة فاكون فيها حتى يقضى الله من أمره ما قضى ، او اعتزل فاكون قريبا • قالوا نأتمر ثم نرسل اليك • فائتمروا وقالوا اجعلوه ههنا قريبا • فاعتزلت بالجلجاء من البصرة على فرسخين • وقدم عليّ فنزل الزاوية واقام اياما • فارسلت اليه ان شئت اتيتك !! فارسل الي عليّ : كيف بما اعطيت من اصحابك من الاعتزال ؟ قلت ان من الوفاء لله قتالهم • فارسل اليّ ان كف من قدرت عليـــه • »(٢٣) •

تلك هى أهم وجوه التشابه بين سيرة النبى وسيرة ابن عمه • ترى لماذا اخفق خصوم النبى فى القضاء عليه او تعطيل رسالته ، ولم يخفق خصوم الامام ؟ وبعبارة أخرى : لماذا لم يتسع المقام لعليّ لنشر رسالتـــه المستندة الى القرآن وسنة النبى ؟ هناك على ما ارى اربعة عوامل كبرى ادت الى ذلك :

اولا ــ كان المجال الذى تحدث فيه تصرفات الرسول اوسع مدى من المجال الذى تحدث فيه تصرفات الامام • وكان الوحى بجانب النبى ينزل عليه بالتدريج وبصورة

(٢٣) الطبرى ، تاريخ آلامم والملوك ج ٥ ص ١٩٧ •

مستمرة ، ولم يفارقه منذ نبوته حتى وفاته • فكان الوحى ينزل عليه طريا فى كل مناسبة ليعين له النهج الذى ينبغى له ان يسير عليه ـ فى حياته الخاصة والعامة مع خصومه وانصاره على السواء • وكان ذلك كله يحدث بالطبع ضمن نطاق الاسلام الذى كان آنذاك فى طريقه الى النمو والتكامل • فكان الوحى يخرج النبى من المآزق الحرجة ـ فى حالة مواجهته اياها ـ احيانا ، ويعمل على صيانته من التعرض لها ـ قبل وقوعها ـ احيانا أخرى • وهذا يعنى ان اطار تصرفات النبى كان يتسع بصورة مستمرة : يتكيف للزمان والمكان احيانا ، ويكيفهما له احيانا أخرى ـ حسب مستلزمات المصلحة العليا للدين الحنيف • اما علي فكان يتصرف ضمن حدود الاطار الثابت الذى خلفه له النبى فى القرآن والسيرة المحمدية • ولقد كان بامكانه ـ لو اراد ـ ان يخرج على تلك الحدود (اذا استلزمت مصلحة زمنية عارمة) كما فعل غيره من الخلفاء • ولكنه بقى مقيدا بقيود الدين فى تصرفاته العامة والخاصة مع خصومه وانصاره على السواء • فاذا حصل خلاف بين علي وبين خصومه من جهة ، أو بينه وبين اتباعه من جهة ثانية استعان علي بنصوص قرآنية ثابتة وبتصرفات محمدية هى الاخرى ثابتة ايضا • على حين ان خصومه والمعارضين من اتباعه يلجأون الى المغالطة والدس والتضليل لانهم يؤمنون ـ فى الظاهر ـ بما هو مؤمن به ، ولاينكرون تلك النصوص القرآنية والتصرفات المحمدية بل يفسرونها لصالحهم او لغير صالحه [24]

---

(٢٤) وفى هذه النقطة بالذات يكمن سر العامل الثانى الكبير الذى حال بين الامام وبين نشر رسالته (من الناحية العملية) ـ تلك الرسالة المستندة الى القرآن وسنة النبى ، وهو ما سنبحثه بعد فراغنا من العامل الاول الذى هو بين ايدينا الآن •

أى ان الرسول كان مشرعا - بأمر الله بالطبع - ولم يكن علي كذلك . والى القارىء نماذج مما ذكرناه سقناها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر :

١ - فيما يتصل بالعبادات : لم يكن بامكان عليّ - دون ان يتعرض لنقد أو تجريح او تكفير - مثلا ان يصلى العصر بعد المغرب ، او ان يصلى الصبح بعد فوات اوانه ، أو ان يصلى العصر بجماعة من المسلمين بطريقة غير مألوفة ، أو ان يصلى دون وضوء ، او ان يفطر يوما من رمضان - بعد الظهر - ويستمر على ذلك الافطار مدة تتجاوز نصف رمضان ، او ان يحول قبلة المسلمين . اما النبى فقد فعل ذلك كله بأمر من الله - عندما استلزمت ذلك المصلحة العليا للدين بالطبع . والى القارىء تفاصيل ذلك . روى صاحب السيرة الحلبية (ج ٢ ص ٣٤٤) « ان رسول الله صلى المغرب فلما فرغ قال : احد منكم علم انى صليت العصر ؟ قالوا يا رسول الله ما صلينا لا نحن ولا انت . فأمر المؤذن فاقام الصلاة فصلى العصر ثم اعاد المغرب . »(٢٥) واستيقظ النبى فى احدى غزواته بعد فوات صلاة الصبح فقال لاضير ارتحلوا فارتحلوا . فسار غير بعيد ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ، ونودى بالصلاة فصلى بالناس ... وفى دلائل النبوة للبيهقى عن بعض الصحابة : وبعد ان صلينا وركبنا جعل بعضنا يهمس الى بعض : ما كفارة ما صنعناه بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال النبى ما هذا الذى تهمسون دونى ؟ فقلنا يا رسول الله بتفريطنا فى صلاتنا . قال اما لكم فيّ اسوة حسنة ؟ ثم قال ليس فى النوم تفريط ، انما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجىء وقت أخرى »(٢٦) . وتفصيل ما

(٢٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٤٤ .
(٢٦) السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٧٥ - ٤٧٦ .

ذكرناه ـ فى رواية ابى قتادة[27] . « بينما نحن نسير مع رسول الله وهو قافل من تبوك وانا معه اذ خفق خفقة ـ أى نام نومة خفيفة ـ وهو على راحلته فمال على شقه . فدنوت منه فدعمته فانتبه فقال من هذا ؟ قلت ابو قتادة يا رسول الله خفت ان تسقط فدعمتك ... ثم سار غير كبير ، ثم فعل مثلها فادعمته فانتبه فقال : يا ابا قتادة هل لك فى التعريس ؟ ـ أى الاستراحة لما تبقى من الليل ـ فقلت ما شئت يا رسول الله . فقال انظر من خلفك ؟ فنظرت فاذا رجلان او ثلاثة . فقال ادعهم . فقلت اجيبوا رسول الله ، فجاؤا فعرسنا ، ونحن خمسة ومعى اداوة فيها ماء فنمنا فما انتهينا الا بحر الشمس . فقلت انا لله !! فاتنا الصبح . فقال رسول الله لنغيظن الشيطان كما اغاظنا . فتوضأ من ماء الاداوة ... ثم صلى بنا الفجر بعد طلوع الشمس ... وركب فلحق الجيش عند زوال الشمس ، ونحن معه . » وحانت صلاة الظهر اثناء الحديبية « فصلاها النبى بالمسلمين . فقال خالد بن الوليد ـ وهو على شركه ـ قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم اصبنا منهم . ولكن ستأتى الساعة صلاة أخرى . فنزل جبرئيل بين الظهر والعصر بقوله تعالى : واذا كنت فيهم فاقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ـ الاية . فحانت صلاة العصر والعدو وجهه للقبلة فصلى بهم النبى صلاة الخوف : فرتب القوم صفين وصلى بهم . فلما سجد سجد معه صف وحرس صف . فلما قام ـ هو ومن سجد معه ـ سجد من حرس ولحقوه . وسجد معه فى السجدة الثانية من حرس اولا وحرس الاخرون . فلما جلس سجد من حرس . وتشهد بالصفين وسلم . وهذه الكيفية تعرف بصلاة عسفان »[28] . وقد ذكر ذلك بشىء من الاختلاف المقريزى (امتاع

(٢٧) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ .
(٢٨) سيرة دحلان ج ٢ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

الاسماع ج ١ ص ١٨٨ - ١٩١) « ثم كانت غزاة ذات الرقاع سنة ٤ هـ وسببها ان قادما قدم بجلب له - أى ما يجلب من خيل وابل - من نجد الى المدينة واخبر ان بنى انمار بن بغيض وبنى سعد بن ثعلبة قد جمعا لحرب المسلمين . فخرج النبى فى اربعمائة ... وصلى صلاة الخوف ، فكان اول ما صلاها يومئذ . وقد خاف ان يغيروا عليه - وهم فى الصلاة - فاستقبل القبلة وطائفة خلفه وطائفة مواجهة للعدو . فصلى بالطائفة التى خلفه ركعة وسجدتين ثم سلموا وجاءت الطائفة الثانية فصلى بهم ركعة وسجدتين ، والطائفة الاولى مقبلة على العدو . فلما صلى بهم ثبت جالسا حتى اتموا لانفسهم ركعة وسجدتين . ثم سلم . هكذا ذكر ابن اسحق والواقدى وغيرهما من اهل السير . وهو مشكل : فانه قد جاء فى رواية الشافعى واحمد والنسائى عن ابى سعيد - ان رسول الله حبسه المشركون يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعا ، وذلك قبل نزول صلاة الخوف . قالوا نزلت صلاة الخوف بعسفان كما رواه ابو عياش الزرقى قال : كنا مع النبى بعسفان فصلى بنا الظهر - وعلى المشركين يومئذ خالد بن الوليد - فقالوا لقد اصبنا منهم غفلة ... ثم قالوا ان لهم صلاة بعد هذا هى احب اليهم من اموالهم وابنائهم . فنزلت - يعنى صلاة الخوف - بين الظهر والعصر . فصلى بنا العصر ففرقنا فرقتين ... وقد ذكر خلاف ذلك ان صلاة عسفان كانت بعد الخندق فاقتضى هذا ان ذات الرقاع بعدها ... وقد قال بعض من ارخ ان غزوة ذات الرقاع حدثت اكثر من مرة : فواحدة كانت قبل الخندق وأخرى بعدها . »

وفقدت السيدة عائشة عقدا لها فى احدى غزوات النبى - غير العقد الذى فقدته فى غزوة بنى المصطلق التى نزلت فيها ايات الافك - « فارسل النبى فى طلبه

رجلين من المسلمين احدهما اسيد بن حضير • فحضرت الصلاة • صلاة الصبح
ـ وكانوا على غير ماء ، فنزلت آية التيمم ••• فعن عائشة قالت لما كان من أمر
عقدى ما كان وقال اهل الافك ما قالوا فخرجت مع النبى فى غزوة أخرى فسقط
أيضا عقدى حتى حبس التماسه الناس ••• وجاء الناس الى ابى بكر وشكوا اليه
ما نزل بهم • فجاء الى عائشة ـ ورسول الله واضع رأسه الشريف على فخذها ـ
فقال لها حبست رسول الله والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجعل
يطعن بيده فى خاصرتها ويقول : فى كل سفرة تكونين عناء وبلاء ••• فاستيقظ
رسول الله وحضرت الصلاة فلم يجد ماء فانزل الله الرخصة بالتيمم ••• آية
النساء ••• فقال ابو بكر ـ عند ذلك ـ والله يا بنى انك ـ ما علمت ـ مباركة ،
وقال لها رسول الله ما اعظم قلادتك ، وقال اسيد بن حضير ما هذا باول بركتكم
يا آل ابى بكر ••• جزاك الله خيرا فما نزل بك امر تكرهينه الا جعل الله
منه مخرجا وللمسلمين فيه خيرا • »(٢٩) وخرج النبى الى بدر فى رمضان « فصام
يوما او يومين ثم نادى مناديه يا معشر العصاة انى مفطر فافطروا ـ وذلك انه
قد كان قال لهم قبل ذلك افطرو افطروا فلم يفعلوا »(٣٠) • وخرج النبى الى
فتح مكة « يوم الاربعاء لعشر خلون من رمضان ـ بعد العصر ـ ولما خرج من
المدينة نادى مناديه من احب ان يصوم فليصم ومن احب ان يفطر فليفطر • وصام
هو حتى إذا كان بالعرج صب على رأسه ووجه الماء من العطش • فلما كان بالكديد
ـ بين الظهر والعصر ـ أخذ اناء فى يده حتى رآه المسلمون ثم افطر تلك

(٢٩) السيرة الحلبية ج ٢ •
(٣٠) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٧٣ •

الساعة • ويقال كان فطر يومئذ بعد العصر • وبلغه ان قوما صاموا فقال اولئك العصاة • وقال بمر الظهران : انكم مصبحو عدوكم ، والفطر اقوى لكم »[٣١] •

ذلك ما يتصل بالصلاة والصيام • اما ما يتعلق بتغيير القبلة فان ابن اسحق قال عنه ما يأتى : « لما صرفت القبلة عن الشام الى الكعبة ـ على رأس سبعة عشر شهرا ـ من مقدم رسول الله المدينة • ـ اتى رسول الله رفاعة بن قيس وآخرون فقالوا يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ـ وانت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه ؟ ارجع الى قبلتك التى كنت عليها ونصدقك • فانزل الله : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ـ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم • وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا • وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ••• ثم قال قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها : فول وجهك شطر البيت الحرام ، وحيث كنتم فولوا وجهكم شطره »[٣٢] •

اما كيف حصل ذلك من الناحيتين التشريعية النظرية والواقعية العملية فقد ذكره الزمخشرى فى الكشاف (ج ١ ص ١٤٨ ـ ١٥٢) • فقد جاء ، من الناحة النظرية التشريعية ، فى سورة البقرة : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون • ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت

(٣١) المقريزى ، المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ •
(٣٢) ابن هشام سيرة النبى محمد ج ٢ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ •

يتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين • » اما من الناحية العملية الواقعية : فعن البراء بن عازب (على رواية الزمخشري فى المصدر الانف الذكر ج ١ ص ١٥٢) « قدم رسول الله المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا• ثم وجه وجهه الى الكعبة• وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ، ورسول الله فى مسجد بنى سلمة وقد صلى باصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجد القبلتين • »

٢ ـ فيما يتصل بالحروب : لم يكن باستطاعة علي ان يحارب خصومه بأمر من الله ينزل خصيصا لذلك ، ولم ينزل قرآن فى وصف خصومه وموقف انصاره منه اثناءها ، ولم يؤذن له ان يقاتل خصومه فى الاشهر الحرم ، او تحارب الملائكة الى جانبه بحيث يراها بعض الناس ، او ان تنزل بحقه « براءة من الله لمن عاهدتم من المشركين » عندما الح عليه الخوارج بضرورة استئناف القتال ضد اهل الشام بعد التحكيم • ولكن ذلك كله قد حصل للرسول ـ واليك تفاصيله : ذكر ابن هشام (سيرة النبى محمد ج ٢ ص ٧٥ ـ ٧٦) انه لم يؤذن للرسول ـ قبل بيعة العقبة ـ ان يقاتل المشركين ، بل كان يؤمن بالدعاء الى الله والصبر على الاذى والصفح عن الجاهل وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه ـ من المهاجرين ـ حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم • وكانت اول آية نزلت فى اذنه له بالحرب : « اذن الله للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير • الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ••• ولينصرن الله من ينصره ان الله

لقوى عزيز ... وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ... » اما ما نزل من الايات اثناء معركة بدر وبعدها فقد ذكرناه . « وكان مما انزل الله فى يوم احد من القرآن ستون آية من آل عمران ... فمنها : ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ـ أى لكم تكون العاقبة ـ ان كنتم مؤمنين ـ أى ان كنتم صدقتم نبيى بما جاءكم به عنى ـ ان يمسسكم قرح ـ أى جراح ـ فقد مس القوم قرح مثله ـ أى جراح مثلها ـ وتلك الايام نداولها بين الناس ـ أى نصرفها بين الناس للبلاء والتمحيص ـ وليعلم الله الذين امنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ـ أى ليميز بين المؤمنين والمنافقين ويكرم من اكرم من اهل الايمان بالشهادة ـ والله لا يحب الظالمين ـ أى المنافقين الذين يظهرون بالسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية ـ وليمحص الله الذين آمنوا ـ أى يختبرهم بالبلاء الذى نزل بهم وكيف صبرهم ويقينهم ـ ويمحق الكافرين ـ أى يبطل من المنافقين قولهم بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم حتى يظهر منهم كفرهم الذى يستترون به . ثم قال ـ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ـ ... ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رايتموه وانتم تنظرون ـ أى لقد كنتم تمنون الشهادة على الذى انتم عليه من الحق قبل ان تلقوا عدوكم ، يعنى الذين استنهضوا رسول الله الى خروجه بهم الى عدوهم لما فاتهم من حضور اليوم الذى كان قبله ببدر ، ورغبة فى الشهادة التى فاتتهم به ... ثم قال وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ـ أى لقول الناس قتل محمد وانهزامهم عند ذلك وانصرافهم عن عدوهم ... وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا

ـ أى لمحمد اجل هو بالغه فاذا اذن الله فى ذلك كان • ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وسيجزى الله الشاكرين[٣٣] » •

اما الاذن للمسلمين بمقاتلة خصومهم فى الاشهر الحرم فقد ذكره ابن هشام بقوله ـ « قال ابن اسحق عاد الى المدينة عبدالله بن جحش واصحابه من السرية التى اوفدها الرسول وقد قاتلوا عدوهم فى الاشهر الحرم • فقال لهم النبى • ما امرتكم بقتال فى الاشهر الحرم • فوقف العير والاسيرين وابى ان يأخذ من ذلك شيئا • فلما قال ذلك رسول الله سقط فى ايدى القوم ••• فلما كثر الناس فى ذلك انزل الله على رسوله : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، واخراج اهله منه اكبر عند الله ـ أى ان كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، واخراجكم منه وانتم اهله اكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم • والفتنة اشد من القتل ـ أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه الى الكفر بعد ايمانه ، فذلك اكبر عند الله من القتل • ـ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ـ أى ثم هم مقيمون على اخبث من ذلك واعظمه غير تائبين ولا نازعين •ـ فلما تجلى عن عبدالله بن جحش واصحابه ما كانوا فيه ـ حين نزل القرآن ـ طمعوا فى الاجر فقالوا يا رسول الله انطمع ان تكون لنا غزوة نعطى فيها اجر المجاهدين ؟ فانزل الله : ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله يرجون رحمة الله والله غفور رحيم »[٣٤] •

---

(٣٣) ابن هشام ، سيرة النبى محمد ج ٣ ص ٦٣ ـ ٦٤ •

(٣٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ • والزمخشرى : الكشاف ج ١ ص ١٧٦ و١٧٧ و١٩٦ •

واما قتال الملائكة فى بدر فقد مر بنا ذكره • والى القارىء ذكر شهود العيان في هذا الصدد : قال ابن اسحق حدثنى عبدالله بن ابى بكر انه حدث عن ابن عباس قال حدثنى رجل من بنى غفار قال اقبلت انا وابن عم لى حتى اصعدنا فى جبل يشرف على بدر ــ ونحن مشركان ــ ننتظر على من تكون الدائرة فننهب من ننهب• فبينا نحن فى الجبل اذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها جمجمة الخيل فسمعت قائلا يقول اقدم حيزوم • وقال ابن اسحق حدثنى عبدالله بن ابى بكر عن بعض بنى ساعدة عن ابن اسيد ــ مالك بن ربيعة ــ وكان شهد بدرا قال بعد ان ذهب بصره : لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لاريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة لا اشك فيه ولا اتمارى • » وقال ابن هشام باسناده الى ابى داود المازنى ــ وكان شهد بدرا ــ « قال انى لاتبع رجلا من المشركين يوم بدر لاضربه اذ وقع رأسه قبل ان يصل اليه سيفى • فعرفت انه قتله غيرى • وقال ابن اسحق حدثنى من لا اتهم عن مقسم مولى عبدالله بن الحرث عن عبدالله بن عباس قال كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد ارسلوها على ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمرا »(٣٥) •

ويتصل بذلك ما يلى : « جلس النبى فى المسجد يقسم غنائم تبوك فدفع لكل واحد سهما ، ودفع لعلي سهمين • فقام زائدة بن الاكوع وقال يا رسول الله اوحى من السماء ؟ ام امر من نفسك ؟ فقال النبى انشدكم الله هل رايتم فى ميمنتكم صاحب الفرس الاغر المحجل والعمامة الخضراء بها ذؤابتان مرخاتين على كتفه ، بيده حربة قد حمل بها على الميمنة ؟ قالوا نعم • قال هو جبرئيل ، وانه امرنى

(٣٥) المصدر نفسه (اى ابن هشام) ج ٢ ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ •

ان ادفع سهمه لعلي • فقال زائدة حبذا سهم مسهم »(٣٦) • واما نزول براءة فاليك تفاصيله : « نزلت براءة فى نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم(٣٧) : براءة من الله الى الذين عاهدتم من المشركين ـ أى لاهل العهد العام من المشركين ـ فسيحوا فى الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزى الله وان الله مخزى الكافرين • واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله برىء من المشركين ورسولهُ • ـ أى بعد هذه الحجة ـ فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم•الا الذين عاهدتم من المشركين • ـ أى العهد الخاص الىالاجل المسمى ـ ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين • فاذا انسلخ الاشهر الحرم ـ يعنى الاربعة التى ضرب لهم اجلا ـ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ••• ثم قال : كيف يكون للمشركين ـ الذين كانوا وانتم على العهد العام ان لا يخيفوكم فى الحرمة ـ ولا فى الشهر الحرام ـ عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام • وهى قبائل من بنى بكر الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم يوم الحديبية الى المدة التى كانت بين رسول الله وبين قريش فلم يكن نقضها الا هذا الحى من قريش وبنو الديل من بنى بكر بن وائل الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم فأمر باتمام العهد لمن لم يكن

---

(٣٦) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦١ •

(٣٧) ان لايصد عن البيت احد جاءه ، ولا يخاف احد فى الشهر الحرام•وكان ذلك عهدا عاما بينه وبين الناس من اهل الشرك • وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله وبين قبائل من العرب خصائص الى آجال مسماة • فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى تبوك •

نقض من بنى بكر الى مدته • فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين ••• ثم امر الله رسوله بجهاد اهل الشرك ممن نقض العهد الخاص ومن كان من اهل العهد العام بعد الاربعة الاشهر التى ضرب لهم اجالا ان يعدو فيها عاد منهم فيقتل بعدائه فقال : الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم اول مرة • اتخشونهم ؟ فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين • قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين »(٣٨) •

وهناك امر آخر يتصل بما ذكرنا اشد الاتصال • هو ان الرسول عند مقاتلته خصومه وانتصاره عليهم كان يقسم غنائم الحرب على اتباعه كما هو معلوم • هذا الى ان كيفية التقسيم نفسها وان كانت تجرى ضمن الاطار العام للاسلام الا ان النبى كان يدخل عليها تغييرات كبيرة وفقا لمستلزمات الظروف وضمن ذلك الاطار • وقد مر بنا ذكر اعطائه عليا سهمين من غنائم تبوك ـ • وقد حرم النبى الانصار بكاملهم ـ الا رجلين محتاجين هما سهل بن حنيف وابو دجانة ـ من غنائم بنى النضير • قال المقريزى(٣٩) « فلما غنم رسول الله بنى النضير بعث ثابت بن قيس بن شماس فدعا الانصار كلها من الاوس والخزرج • فحمد النبى الله واثنى عليه وذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين وانزالهم اياهم فى منازلهم واثرتهم على انفسهم • ثم قال : ان احببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما افاء الله عليّ من بنى النضير !! وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن فى مساكنكم واموالكم • ولو ان احببتم اعطيتهم وخرجوا من دوركم !! فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : يا رســـول الله بل تقسمه

---

(٣٨) ابن هشام ، سيرة النبى محمد ج ٤ ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ •
(٣٩) امتاع الاسماع ج ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ •

للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا • ونادت الانصار رضينا وسلمنا يا رسول الله ••• فقسم النبى ما افاء الله عليه على المهاجرين دون الانصار الا رجلين كانا محتاجين : سهل بن حنيف وابو دجانة • » اما عليّ فلم يكن باستطاعته ان يعتبر ما يتركه خصومه (بعد الحرب) غنائم حرب او (ان يقسم ذلك على اتباعه) لانهم مسلمون – فى الظاهر – كاسلامة كما ذكرنا • قال الغزالى(٤٠) « بعث علي بن ابى طالب ابن عباس الى الخوارج فكلمهم فقال ما تنقمون على امامكم ؟ قالوا قاتل ولم يسب ولم يغنم • فقال ذلك فى قتال الكفار • ارأيتم لو سبيت عائشة فى يوم الجمل فوقعت فى سهم احدكم اكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم ؟ فقالوا لا • فرجع منهم للطاعة الفان وبقى آخرون • »

٣ – نزول الوحى فى المآزق الحرجة : لقد كان الوحى – كما ذكرنا – عونا للرسول فى المواقف الحرجة والازمات التى تعرض لها مع خصومه وانصاره على السواء • ولم يكن عليّ كذلك بالطبع • وقد مر بنا جانب كبير من الامثلة على ذلك • والى القارىء الامثلة التالية سقناها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر :

(آ) معركة بدر : قال المقريزى (امتاع الاسماع ج ١ ص ٨٠ ، ٨٧ ، ١٥٠)

« وجاءت ريح شديدة ثم هبت ريح اشد منها ثم هبت ريح ثالثة اشد منهما : فكانت الاولى جبرئيل فى الف من الملائكة مع رسول الله ، والثانية ميكائيل فى الف عن ميمنته ، والثالثة فى الف عن ميسرته • ويقال نزل جبرئيل بالف من الملائكة فى صور الرجال ••• وهم الالاف المذكورة فى آل عمران – الايات من ١٢٣ – ١٢٧ ••• وكان يحدث ان الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق عليها عمائم صفر ••• وقال

---

(٤٠) احياء علوم الدين ج ١ ص ٨٥ •

سهيل بن عمرو : ولقد رايت يوم بدر رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض معلمين يقتلون ويأسرون • وقال ابو اسيد الساعدى بعد ان ذهب بصره — لو كنت معكم الان ببدر ومعى بصرى لاريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة ••• وقال رسول الله انى رايت الملائكة تغسل حنظلة بن ابى عامر بين السماء والارض بماء المزن فى صحاف الفضة • قال ابو اسيد الساعدى فذهبنا اليه فاذا رأسه يقطر ماء • »

(ب) فى اعقاب معركة احد : جاء فى سيرة دحلان (ج ٢ ص ٧٧) انه « لما رجع المشركون عن احد قالوا لا محمدا قتلتم ولا الكواعب اردفتم • بئسما صنعتم ارجعوا • فسمع رسول الله بذلك فندب المسلمين فانتدبوا[٤١] فخرج بهم حتى بلغ حمراء الاسد — او بئر ابى عتبة — فانزل الله • الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم • وخرج رسول الله وهو مجروح فى وجهه أثر الحلقتين ، ورباعيته مكسورة وشفته السفلى مشقوقة وركبتاه مجرحتان من وقعة الحفيرة • »

(ج) الخندق : « انزل الله فى شأن الخندق — يذكر نعمته وكفايته عدوهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من تكلم بالنفاق — قوله : يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا — الايات من ٩ — ٢٧ من سورة الاحزاب »[٤٢] •

---

(٤١) يذكرنا هذا الموقف بموقف انصار الامام منه عندما تخاذلوا وصموا آذانهم عن ندائه فى معرض استنهاضه هممهم لمحاربة خصومه وخصومهم بعد صفين خاصة كما هو معروف •

(٤٢) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٤٠ •

(د) جوانب أخرى من الحديبية : جاء فى السيرة الحلبية (ج ٣ ص ١٠ ، ٢٩)

« وسبب غزوة الحديبية ان رسول الله رأى فى النوم انه دخل مكة هو واصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وانه دخل البيت وأخـذ مفتاحه . فتجهز المسلمون للسفر وخرج رسول الله معتمرا ... فلما صدوا عن البيت قالوا له اين رؤياك يا رسول الله ؟ فانزل الله : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ــ الاية »(٤٣) . « فركض الناس وهم يقولون انزل الله على رسوله ، حتى توافوا عنده وهو يقرؤها . ويقال لما نزل جبريل عليه قال اهنئك يا رسول الله . فلما هناه جبريل هناه المسلمون »(٤٤) . وكان الوحى بجانب النبى كذلك فى موقفه من النساء اللائى جئن من معسكر المشركين . وملخص ذلك انه لما كان النبى بالحديبية بعد الصلح الذى وقعه عن المشركين سهيل بن عمرو ، والذى كان من شروطه كما ذكرنا ان لا يدخل النبى مكة فى ذلك العام ، وان يرد النبى على المشركين من ياتيه منهم ، ولا يرد المشركون الى النبى من ياتيهم من اصحاب النبى « جاءته جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة ، من جملتهن سبيعة بنت الحرث . فاقبل زوجها مسافر المخزومى طالبا لها . واراد مشركو مكة ان يردهن النبى الى مكة فنزل جبرئيل بهذه الآية : يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن . فان علمتموهن مؤمنات فلا تردوهن الى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، واتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتموهن اجورهن »(٤٥) . اما موقف النبى من المسلمين الفارين من قريش

(٤٣) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٠ و٢٩ .

(٤٤) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤٥) المصدر السابق . وكان بين اولئك النسوة ـ بالاضافة الى سبيعة بنت =

ـ بعد الحديبية ـ فكان مغايرا لموقفه من المسلمات كما رأينا • وقد مر بنا ذكر جانب منه عندما تحدثنا عن قصة ابى جندل اثناء الحديث عن الحديبية • والى القارىء قصة ابى بصير : قال المقريزى(٤٦) « ولما قدم رسول الله المدينـة من الحديبية جاءه ابو بصير ـ عتبة بن اسيد ـ ••• مسلما قد انفلت من قومه وسار على قدميه سبعا وكتب الاخنس بن شريق وازهر بن عبد عوف الزهرى الى رسول الله كتابا مع حنيس بن جابر من بنى عامر ، واستأجراه ببكرين لبون وحملاه على بعير • وخرج معه مولى يقال له كوثر • وفى كتابهما ذكرا الصلح وان يرد عليهم ابا بصير • فقدما بعد ابى بصير بثلاثة ايام • فقرأ ابى بن كعب الكتاب على رسول الله فاذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه واشهدنا بيننا وبينك من رد من قدم عليك من اصحابنا فابعث الينا ابا بصير • فأمر رسول الله ابا بصير ان يرجع معهم ، ودفعه اليهما • فقال ابو بصير يا رسول الله اتردنى الى المشركين يفتنونى فى دينى !! فقال يا ابا بصير انا قد اعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر • وان الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا • »

(هـ) غزوة بئر معونة : « ثم كانت غزوة بئر معونة ـ وهى ماء لبنى عامر بن صعصعة ـ ••• فى صفر على رأس سنة ثلاثة وثلاثين شهرا • وسببها ان عامر بن مالك ••• قدم على رسول الله واهدى له فرسين وراحلتين فقال الرسول

= الحرث ـ كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط ، واميمة ، واميمة بنت بشر الانصارى التى كانت تحت حسان بن الدحداح وهو يومئذ مشرك فزوجها النبى سهل بن حنيف فولدت له عبدالله • راجع السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠ •

(٤٦) امتاع الاسماع ج ١ ص (١٧٠ ـ ١٧٣) •

لا اقبل هدية مشرك . وردهما وعرض عليه الاسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال يا محمد انى ارى امرك هذا حسنا شريفا ، وقومى خلفى فلو انك بعثت نفرا من اصحابك معى لرجوت ان يجيبوا دعوتك ويتبعوا امرك ... فقال النبى انى اخاف عليهم اهل نجد . فقال عامر لا تخف عليهم انا لهم جار ان يعرض لهم احد من اهل نجد . وكان من بينهم سبعون رجلا شببة - أى شبانا - يسمون القراء ... فبعثهم النبى ... وكتب معهم كتابا ... حتى اذا كانوا ببئر معونة ... عسكروا بها ... وقدموا حرام بن ملحان الانصارى بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فى رجال من بنى عامر . فلم يقرؤا الكتاب ووثب عامر بن الطفيل على حرام فقتله واستصرخ قبائل بنى سليم فنفروا معه حتى وجدوا القراء فقاتلوهم - أى قتلوا القراء ... ولم يجد رسول الله على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة . وانزل الله فيهم قرآنا »[47] .

ثانيا - اما العامل الثانى الذى حال بين الامام وبين تطبيق رسالته المستندة الى القرآن وسيرة النبى فهو ان خصوم الرسول كانوا مشركين ، وكان من السهل عليه ان يؤلب المسلمين على حربهم والتنكيل بهم . وكان القرآن الى جانبه فى هذا السبيل . وكان المشركون - بدورهم - يحاربون النبى للقضاء - بصورة مكشوفة وصريحة - على العقيدة الاسلامية ورفع راية الشرك وعبادة الاوثان . فكان الصراع بين الرسول وخصومه اذن صراعا مكشوفا بين عقيدتين : الايمان بالله بجميع مستلزماته ، والكفر بالله بمستلزماته جميعها . وسار الخصمان المتنازعان - على ذلك - فى السر والعلانية دون تستر او وجل او مجاملة او خوف . اما خصوم

(٤٧) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٣ .

الامام فكانوا – فى الظاهر – مسلمين كاسلامه ، وكانوا يقاتلونه للمطالبة بدم ابن عفان . وكان اشدهم وطأة عليه معاوية بن ابى سفيان وامشاجه من الامويين الذين تظاهروا بالاسلام للاجهاز عليه . فغرروا بكثير من السذج والبسطاء ودفعوهم امامهم لحرب خليفة رسول الله . فلم يكن والحالة هذه باستطاعة الامام ان يحمل الكثيرين من اتباعه على مواصلة القتال ، وليس بجانبه وحى لانه ليس بنبى . ولم يكن باستطاعة المخلصين من اتباعه – والعارفين بخفايا الامور – ان يقنعوا المترددين من انصار الامام على السير بالقتال الى نتيجته الطبيعية كما سار به رسول الله من قبل . فلا عجب ان ذهبت محاولاتهم – التى ذكرنا طرفا منها – ادراج الرياح . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعداه الى التحكيم ومصرع الامام كما هو معروف. فانتقل الحكم الاسلامى الى الامويين وارتقى معاوية بن ابى سفيان منبر النبى يتصرف بشئون المسلمين كيفما شاء : معاوية الذى لم يصلح بنظر الامام لولاية الشام بله خلافة المسلمين .

ثالثا – واما العامل الثالث فيتلخص فى ان الامام ارتقى منبر النبى فى ظروف مضطربة قلقة انتهت بدايتها بمصرع عثمان . وهذا يعنى ان الخلافة قدمت لعلي بعد ثورة دموية لم يساهم هو فى احداثها . اى ان الامام بعبارة أخرى اقتطف ثمار ثورة قام بها غيره من حيث التمهيد لحدوثها ومن حيث المساهمة الفعلية فى حوادثها . فطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعمرو بن العاص مثلا – وهم رؤوس الفتنة وشيوخ التأليب على عثمان – قد راعهم انتقال الامر الى علي (لتعارضه مع مصالحهم) فقاوموه تحت ستار المطالبة بدم الخلية القتيل . ورجال الثورة من المصريين والكوفيين والبصريين لم ينتفعوا ايضا بالوضع الجديد فقاوموه . نعم

هؤلاء واولئك : الثائرون والمحرضون معا على علي كما نقموا على عثمان من قبل ـ مع فرق كبير بين عوامل النقمة فى الحالتين • فقد نقموا على عثمان خروجه فى سياسته العامة على الدين ، ولكنهم نقموا على عليّ تمسكه بالدين فى سياسته العامة •

رابعا ـ واما العامل الرابع فيتلخص فى ان الفترة التى اعقبت وفاة الرسول وانتهت بمصرع عثمان قد شهدت تساهلا فى تطبيق حدود الله على المستحقين • بدأ ذلك التساهل خفيفا فى عهد ابى بكر واشتد فى زمن عمر وتجاوز الحد فى عهد عثمان • وقد الف الناس ذلك واصبح له انصار ومحبذون من المنتفعين به ومن اصحاب الصالح المركزة • فلا عجب والحالة هذه ان تعرضت سياسة الامام التى شرحنا جانبا منها فى الفصول السابقة من هذه الدراسة الى مقاومة عنيفة مر بنا ذكر جانب كبير منها • والى القارىء هذه الامثلة من تصرفات الخلفاء الذين سبقوا عليا سقناها على سبيل التمثيل لاعلى سبيل الحصر •

١ ـ خالف ابو بكر نصوصا صريحة فى القرآن والسيرة المحمدية فى موضوع الخلافة ، وفدك ، وخالد بن الوليد•وقد بحثنا ذلك فى كتابنا : « علي ومناوئوه »•

٢ ـ اسقط ابو بكر وعمر وعثمان سهم ذى القربى وسهم المؤلفة قلوبهم من الصدقات خلافا لنص القرآن وسنة النبى • فقد جاء فى سورة الانفال نص صريح على سهم ذى القربى ـ وعمل به النبى ـ : « واعلوا ان ما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير • » وورد فى سورة التوبة نص على سهم المؤلفة قلوبهم ـ وعمل به الرسول ـ : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين

وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم • » ومن طريف ما يروى عن النبى فى موضوع المؤلفة قلوبهم ما ذكره ابن هشام (سيرة النبى محمد ج ٤ ص ١٣٩ – ١٤١) حين قال : « اعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم – وكانوا اشرافا من اشراف الناس – يتألفهم ويتألف بها قومهم • فأعطى ابا سفيان بن حرب مئة بعير وأعطى ابنه معاوية مئة بعير وأعطى حكيم بن حزام مئة بعير وأعطى الحرث بن الحرث بن كلدة – اخا بنى عبدالدار – مئة بعير وأعطى سهيل بن عمرو مئة بعير وأعطى الحرث بن هشام مئة بعير واعطى حويطب بن عبدالعزى بن ابى قيس مئة بعير واعطى العلاء بن جارية الثقفى – حليف بنى زهرة – مئة بعير واعطى عيينة بن حصن مئة بعير واعطى الاقرع بن حابس مئة بعير واعطى مالك بن عوف النصرى مئة بعير واعطى صفوان بن امية مئة بعير • واعطى دون المئة رجالا من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهرى وعمر بن وهب الجمحى وهشام بن عمرو اخو بنى عامر بن لؤى • واعطى عباس بن مرداس اباعر فسخطها فعاتب فيها رسول الله :

كانت نهابا تلافيتها ... بكرى على المهر فى الاجرع

وايقاضى القوم ان رقدوا ... اذا هجع الناس لم اهجع

فأصبح نهبى ونهب العبيد ... بين عيينة والاقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى المجمع

وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع[٤٨]

(٤٨) الضمير المستتر فى « كانت » يعود الى الابل • والنهاب جمع نهب • والاجرع المكان السهل • والعبيد اسم فرس العباس بن مرداس • وحصن هو ابو عيينة • وحابس هو ابو الاقرع • ومرداس هو ابو عباس • وروى بموضع « مرداس » « شيخى » او « شيخى » بالتثنية يعنى اباه وجده •

٣ ـ عطل عمر بن الخطاب حدا من حدود الله فى قضية زنى المغيرة بن شعبة ، وفى موضوع سرقة غلمان حاطب بن ابى بلتعة ٠ وعطل عثمان حدا من حدود الله فى قضية قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ابا لؤلؤة والهرمزان وجفينة وبنت ابى لؤلؤة ٠ والى القارىء خلاصة ذلك كله :

(آ) زنى المغيرة بن شعبة : ذكر بن خلكان(٤٩) قصة المغيرة مفصلة هذه أهم عناصرها : « واما حديث المغيرة بن شعبة والشهادة عليه فان عمر بن الخطاب كان قد رتب المغيرة اميرا على البصرة ٠ وكان يخرج من دار الامارة نصف النهار ٠ وكان ابو بكرة يلقاه فيقول اين يذهب الامير ؟ فيقول حاجة ٠ فيقول ابو بكرة ان الامير يزار ولا يزور ٠٠٠ وكان المغيرة يذهب الى امرأة يقال لها ام جميل بنت عمرو ٠٠٠ فبينما ابو بكرة فى غرفة مع اخوته ـ لامه سمية ـ وهم نافع وزياد وشبل بن معبد كانت ام جميل المذكورة فى غرفة أخرى قبالة هذه الغرفة ٠ فضربت الريح باب غرفة ام جميل ففتحته ونظر القوم فاذا هم بالمغيرة مع امرأة على هيئة الجماع ٠ فقال ابو بكرة هذه بلية قد ابتليتم بها فانظروا ٠ فنظروا حتى اثبتوا ٠ فنزل ابو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة ٠ فقال له ان كان من امرك ما قد علمت فاعتزلنا ٠ وذهب المغيرة ليصلى بالناس الظهر ، ومضى ابو بكرة فقال لا والله لا تصل بنا ٠٠٠ وكتبوا الى عمر فأمرهم ان يقدموا عليه جميعا : المغيرة والمشهود ٠ فلما قدموا عليه جلس عمر فدعا بالشهود والمغيرة ٠ فتقدم ابو بكرة فقال له عمر رأيته بين فخذيها ؟ قال نعم : والله لكأنى انظر تشريم جدرى بفخذيها ٠٠٠ فقال

---

(٤٩) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ٠

عمر لا والله حتى تشهد لقد رأيته يلج فيها ولوج المرود فى المكحلة . فقال نعم اشهد على ذلك . فقال عمر اذهب مغيرة فقد ذهب ربعك . ثم دعا عمر نافعا فقال له علام تشهد ؟ قال على شهادة ابى بكر . قال عمر لا : حتى تشهد انه ولج فيها ولوج الميل فى المكحلة . قال نعم ... فقال عمر للمغيرة اذهب يا مغيرة فقد ذهب نصفك . ثم دعا الثالث فقال له علام تشهد ؟ فقال على مثل شهادة صاحبى . فقال عمر اذهب مغيرة ذهب ثلاثة ارباعك . ثم كتب الى زياد – وكان غائبا – وقدم . فلما رآه جلس فى المسجد واجتمع عنده رؤوس المهاجرين والانصار . فلما رآه مقبلا قال انى ارى رجلا لا يخزى الله على لسانه رجلا من المهاجرين... فقال زياد يا امير المؤمنين رأيت مجلسا وسمعت نفسا حثيثا وانتهازا ورأيته رافعا رجليها فرأيت خصيتيه تردد ما بين فخذيها ورأيت حفزا شديدا وسمعت نفسا عاليا . فقال عمر رأيته يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة ؟ فقال لا . قال عمر الله اكبر ! قم يا مغيرة اليهم فاضربهم فقام الى ابى بكرة فضربه ثمانين . وضرب الباقين ... فقال ابو بكرة – بعد ان ضرب – اشهد ان المغيرة فعل كذا وكذا . فهم عمر ان يضربه حدا ثانيا فقال عليّ ان ضربته فارجم صاحبك . فتركه . واستتاب عمر ابا بكرة فقال ابو بكرة انما تستتيبنى بقبول شهادتى . فقال اجل . فقال لا اشهد بين اثنين ما بقيت فى الدنيا . »

تلك هى قصة المغيرة . وقبل ان نعلق عليها نرى لزاما علينا – لكى يستوفى البحث شروطه التاريخية فى القضية – ان نذكر للقارىء الامور التالية :

١ – قال احد الرواة « كان اسلام المغيرة من غير اعتقاد صحيح ... وكان المتوسط من عمره الغش والفجور واعطاء البطن والفرج سؤلهما ، وممالأة

القاسطين وصرف الوقت فى غير طاعة الله »[٥٠] .

٢ ـ ذكر ابن الاثير (الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣٧٩) ان المغيرة قال لعمر بن الخطاب فى معرض الدفاع عن نفسه : « والله ما اتيت الا امرأتى وكانت تشبهها . »

٣ ـ ذكر ابن خلكان[٥١] ان المغيرة ـ عندما ضرب ابا بكرة واخويه الحد بأمر من عمر ـ قال « الله اكبر !! الحمد لله الذى اخزاكم . فقال عمر : بل اخزى الله مكانا رأوك فيه » .

٤ ـ وروى ابن خلكان[٥٢] « ان ام جميل وافت عمر بن الخطاب بالموسم ـ والمغيرة هناك ـ فقال له عمر اتعرف هذه المرأة يا مغيرة ؟ فقال نعم هذه كلثوم بنت علي بن ابى طالب . فقال له عمر اتتجاهل عليّ !! والله ما اظن ابا بكرة كذب عليك . وما رايتك الا خفت ان ارمى بحجارة من السماء » .

٥ ـ ذكر ابن حجر[٥٣] ان المغيرة قال « انا اول من رشا فى الاسلام . جئت الى يرفأ حاجب عمر ـ وكنت اجالسه ـ فقلت له خذ هذه العمامة فالبسها فأن عندى اختها . فكان يأنس بى ويأذن لى ان اجلس من داخل الباب . فكنت آتى فاجلس فى القائلة فيمر المار فيقول ان للمغيرة عند عمر منزلة : انه ليدخل عليه فى ساعة لا يدخل فيها عليه احد غيره ... واخرج البغوى من طريق هشام بن سعد عن زيد بن اسلم عن ابيه قال استعمل عمر المغيرة على البحرين

(٥٠) ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة المجلد الرابع ص ٤٥٣ .
(٥١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٩٨ .
(٥٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩٩ .
(٥٣) الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٣ ص ٤٣٢ .

فكرهوه وشكوا منه فعزله فخافقوا ان يعيده عليهم فجمعوا مئة الف درهم فاحضرها الدهقان الى عمر فقال ان المغيرة اختان هذه واودعها عندى . فدعاه عمر فسأله فقال كذب انما كانت مئتى الف . فقال عمر ما حملك على ذلك ؟ قال كثرة العيال . فسقط فى يد الدهقان فحلف واكد الايمان انه لم يودع عنده لا قليلا ولا كثيرا . فقال عمر للمغيرة وما حملك على هذا ؟ فقال انه افترى على فاردت ان اخزيه ».

٦ ـ كتب احد المؤرخين[٥٤] عن عمر بن شبة فى اخبار البصرة « ان العباس بن عبدالمطلب قال لعمر اقطعنى البحرين . فقال ومن يشهد لك بذلك ؟ قال المغيرة بن شعبة . فابى عمر ان يجيز شهادته . »

٧ ـ لما جاء عروة بن مسعود الثقفى الى رسول الله عام الحديبية نظر الى المغيرة قائما على رأس رسول الله مقلدا سيفه فقال من هذا ؟ قيل ابن اخيك المغيرة . قال وانت ههنا يا غدر !! والله انى الى الان ما غسلت سوأتك[٥٥] .

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان تزعم بثبوت جريمة الزنى على المغيرة فى القضية الانفة الذكر . اما الادلة على ذلك فتتلخص فى الامور التالية :

١ ـ لقد شهد كل من ابى بكرة ونافع وشبل وزياد ـ بكل صراحة

---

(٥٤) ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة المجلد الرابع ص ٤٥٣ . والاشارة هنا الى قصة غدر المغيرة بجماعة من العرب ـ اثناء شركة المكشوف ـ حينما كانوا فى طريق عودتهم من بعض الملوك حاملين الهدايا . فقتلهم بعد ان اسكرهم . ثم انتهب اموالهم وقدم على رسول الله فتظاهر بالاسلام كما هو معروف . ومن طريف ما يروى عن المغيرة (البلاذرى : انسان الاشراف ج ٥ ص ١٧) انه قال لعثمان اثناء توليته الخلافة « اما والله لو ولى غيرك ما بايعته . فقال عبدالرحمن بن عوف كذبت يا اعور : لو ولى غيره لبايعته ولقلت له مثل هذا القول . »

(٥٥) الغزالى ، احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٤٩ .

ووضوح ـ انهم رأوا المغيرة وام جميل (التى لا تربطها بالمغيرة أية رابطة مشروعة) فى مكان معين وهما على هيئة الجماع • وقد ذكر كل من ابى بكرة ونافع وشبل انه رآه ـ على حد قوله ـ « يلج فيها ولوج المرود فى المكحلة • » اما زياد فقد رأى ـ على حد زعمه ـ « مجلسا وسمع نفسا حثيثا وانتهازا ورآه رافعا رجليها ، ورأى خصيتيه تردد الى ما بين فخذيها ، ورأى حفزا شديدا وسمع نفسا عاليا • » وكل هذا يدل ـ دون شك ـ على انه ولج فيها «ولوج الميل فى المكحلة •»

٢ ـ ان مجرد خلوة المغيرة بام جميل كاف لادانته بالزنى وذلك لاشتهاره بالفسق والفجور واعطائه « البطن والفرج سؤلهما » كما قال احد المؤرخين •

٣ ـ وخلوة ام جميل هى الاخرى من عوامل ثبوت الزنى لاشتهارها به بين الناس آنذاك •

٤ ـ عدم قيام ام جميل او وليها بما يشبه المطالبة بالشرف ممن اتهمها باعز شيء لديها ، وهو امر يمجه الذوق العربى الرفيع وتأباه الاخلاق الاجتماعية السليمة •

٥ ـ قول المغيرة لعمر ـ فى معرض الدفاع عن نفسه ـ بان ام جميل تشبه زوجته هو الاخر دليل على زناه • ولا ندرى كيف عرف المغيرة وجه الشبه بين زوجته وبين ام جميل !! دون ان يرى ام جميل او يجتمع بها !

(ب) سعى عمر لتبرءة المغيرة من فعله الشنيع • اما الادلة على ذلك فهى :

١ ـ طبيعة الاسئلة التى وجهها للشهود •

٢ ـ قوله لاحد الشهود ـ قبل ادلائه بشهادته ـ : « انى ارى رجلا لايخزى

الله على لسانه رجلا من المهاجرين • » وهذا يوحي للشاهد – دون شك – رغبة الخليفة في تبرئة المتهم •

(ج) شعور نفسي لدى عمر بعدم براءة المغيرة • وللتدليل على ذلك نذكر ما يلي:

١ – قول عمر للمغيرة (– على رواية ابن الاثير التي ذكرناها – عندما جاءت أم جميل الى عمر في احد المواسم ، وعندما طلب عمر من المغيرة ان يشخصها فاخبره المغيرة بانها ام كلثوم بنت علي) : « والله ما اظن ان ابا بكرة كذب عليك • وما رأيتك الاخفت ان ارمى بحجارة من السماء • »

٢ – قول عمر للمغيرة – الذي ذكره ابن خلكان كما رأينا – : « بل اخزى الله مكانا رأوك فيه • » وذلك عندما قال المغيرة للشهود « الحمد لله الذي اخزاكم • »

٣ – عدم قبول عمر لشهادة المغيرة كما رأينا •

٤ – عزله اياه من ولاية البصرة بعد الحادثة المذكورة مباشرة •

يتضح مما ذكرنا ان تاريخ المغيرة والقرائن التي ذكرناها وشهادة الشهود الاربعة تدين المغيرة • ومن المحزن حقا ان يتخلص المغيرة من العقوبة الشرعية وانكى من ذلك ان ينزل المغيرة نفسه الحد بمن شهد عليه • على ان قصة المغيرة مع ذلك كله ذات مغزى بعيد الاثر عميق الغور في حياة المسلمين • ذلك لانها حملت بين ثناياها المؤلمة ردعا ضمنيا للناس عن قول الحق والوقوف بوجه الفجرة من الولاة والامراء •

(د) قضية غلمان حاطب بن ابي بلتعة : يتجلى الاختلاف بين نص القرآن وسيرة النبي من جهة وبين سيرة عمر بن الخطاب من جهة ثانية باوضح اشكاله في اعفاء عمر

عن غلمان حاطب بن ابى بلتعة من العقوبة الشرعية فى قضية سرقتهم ناقة رجل من مزينة واعترافهم بذلك • وخلاصة القصة : ان عمر ـ اثناء تحقيقه فى موضوع السرقة المشار اليها وثبوتها له بعد ان اعترف الغلمان انفسهم بالسرقة ـ رق لهم لبؤسهم • فاستدعى سيدهم ـ عبدالرحمن بن حاطب ـ وانبه على اهماله لهم وتركه اياهم فريسة للجوع والفاقة ، واصدر اوامره بتغريمه ضعف ثمن الناقة المسروقة ثم خلى سبيل الغلمان • وقد خالف عمر ـ بموقفه هذا ـ نصا صريحا من نصوص القرآن وعطل حدا من حدود الله • جاء فى سورة المائدة : « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ••• » وربما كان لموقف عمر ما يبرره من ناحية ظروف هذه القضية بالذات ، فاجتهد بالذى اجتهد به لمصلحة خاصة رآها • ولكن القرآن لا يجيز ذلك وقد نص على العقوبة نصا صريحا لا لبس فيه ولا غموض : ولا اجتهاد فى معرض النص كما هو معلوم • هذا مع العلم ان عمر مطالب باتباع نص القرآن فى احكامه العامة لانه يحكم المسلمين باسم الدين باعتباره خليفة رسول الله ـ أى نائبه فى تصريف شئون المسلمين •

(هـ) قصة ابى جندل « لما بلغ عمر ان ابا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب من العزيز العليم ، غافر الذنب قابل التوبة ، شديد العقاب : الاية »[٥٦] فى حين ان سيرة النبى كانت ـ فى هذا الباب ـ على خلاف ذلك فقد اتى للرسول بشارب خمر « فأمر النبى من عنده فضربوه بما كان فى ايديهم وحثا عليه التراب •• »[٥٧] ولم يقرأ عليه النبى الاية

(٥٦) المقريزى ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٩٦ و٤١٥ •

(٥٧) ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة المجلد الاول ص ٢٤٢ •

الانفة الذكر ، ولا نظن ان عمر كان ملما بمواقع الاستشهاد بالايات اكثر من رسول الله •

(ز) قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب : وهى قضية على جانب كبير من الاهمية لذلك نرى ضرورة عرضها على القارىء بشىء من الايجاز غير المخل •

بعد ان قتل ابو لؤلؤة عمر بن الخطاب تناول عبيد الله بن عمر بن الخطاب السيف فقتل ابا لؤلؤة وزوجته وابنته كما قتل الهرمزان دون ان يثبت اشتراكهم فى عملية القتل • وقد عفا عنه عثمان بن عفان بعد ان ارتقى منبر النبى على أثر وفاة ابن الخطاب • وقد تذرع الخليفة ـ باعفائه عبيدالله من العقوبة ـ بان ذلك من شأنه الايثير الشماتة فى نفوس اعداء الاسلام • فلا يقولون قتل المسلمون خليفتهم امس ثم قتلوا ابنه بعد ذلك • وقد كان الواجب على عبيدالله ان يتقدم بالشكوى الى الخليفة حسب الاصول المعروفة ليجرى التحقيق الدقيق فى هذه القضية وينزل العقاب المشروع بالمستحقين • اما وقد وقع القتل فكان من واجب الخليفة ان لا يعفو عن عبيدالله • وكان على الخليفة كذلك ـ بقدر ما يتعلق الامر بالهرمزان على الاقل ـ ان لا يعتبر نفسه ولى دمه • فالهرمزان كما هو معروف امير فارسى مسلم ولم يكن له ولى فى المدينة يطالب بدمه حسب منطق الاية « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق • ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا • » واذا سلمنا جدلا بان الخليفة هو ولى دم الهرمزان « فان عثمان ليس ولى دمه لانه قتل اثناء خلافة عمر فصار عمر ولى دمه • وقد اوصى عمر ـ على ما جاءت به الروايات الظاهرة ـ بقتل ابنه عبيدالله ان لم تقم البينه العادلة على الهرمزان وجفينة ـ زوج ابى لؤلؤة ـ انهما أمرا ابا

لؤلؤة بقتله »[58] . اما حديث الشماتة فهو مضحك وسخيف . « وأى شماتة للعدو فى اقامة حد الله ! انما الشماتة كلها من اعداء الاسلام فى تعطيل حدود الله. وأى حرج فى الجمع بين قتل الامام وابنه !! فقد قتل احدهما ظلما والاخر عدلا»: احدهما بغير أمر الله والاخر بأمره .

ذلك ما يتصل بالخروج الصريح على النصوص القرآنية . اما ما يتعلق بالقيام باعمال لا تتفق هى وسيرة النبى ـ وخاصة ما يتعلق منها بالادارة العامة ـ فالى القارىء الامثلة التالية :

(آ) فيما يتصل بعمر : ذكر الغزالى[59] جملة قضايا فى هذا الباب منها : « تزوج رجل على عهد عمر بن الخطّاب ، وكان يخضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته . فرفعه اهل المرأة الى عمر فرد نكاحه واوجعه ضربا ، وقال غررت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك..ومر عمر برجل يكلم امرأة على قارعة الطريق فعلاه بالدرة ، فقال يا امير المؤمنين انها امرأتى . فقال هلا حيث لا يراك أحد !!.. وعن عبدالرحمن بن عوف قال خرجت مع عمر ليلة فى المدينة فبينما نحن نمشى اذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نحوه . فلما دنونا منه اذا باب مغلق على قوم لهم اصوات ولغط . فأخذ عمر بيدى وقال : اتدرى بيت من هذا ؟ قلت لا . فقال هذا بيت ربيعة بن امية بن خلف وهم الان على شرب فما ترى ؟ قلت ارى انا قد اتينا ما نهانا الله عنه : قال تعالى ولا تجسسوا ـ فرجع عمر ... وروى ان عمر

(٥٨) المصدر نفسه المجلد نفسه ص ٢٤٢ . « وروى بعضهم عن عبدالله ابن عمر بن الخطاب آنه قال يغفر الله لحفصة فانها شجعت عبيدالله على قتلهم . » تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٨ .

(٥٩) الغزالى ، احياء علوم الدين ج ١ ص ١٢٧ و١٧٨ وج ٢ ص ١٣٨ و١٣٩ وج ٣ ص ٩٦ .

كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى • فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر • فقال يا عدو الله اظننت ان الله يسترك وانت على معصيته!! وقال وانت يا امير المؤمنين فلا تعجل : كنت قد عصيت الله فى واحدة فقد عصيت الله فى ثلاثا • قال الله ولا تجسسوا وقد تجسست • وقال الله وليس البر ان تأتوا البيوت من ظهورها ــ وقد تسورت عليّ ، وقد قال الله ولا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ــ الاية : وقد دخلت بيتى بغير اذن ولا سلام ••• وروى ان ابى عذرة الدؤلى ــ وكان فى خلافة عمر ــ كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن • فصارت له من ذلك فى الناس احدوثة يكرهها • فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الارقم حتى اتى به منزله ثم قال لامرأته : انشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لا تنشدنى بالله • قال فانى انشدك • قالت نعم • فقال لابن الارقم اتسمع ؟ ثم انطلقا الى عمر فسأله فاخبره فارسل الى امرأة ابن ابى عذرة فجاءت هى وعمتها • فقال عمر انت التى تتحدثين لزوجك انك تبغضينه ؟ فقالت اول من تاب وراجع أمر الله : انه ناشدنى فتحرجت ان اكذب • أفاكذب يا امير المؤمنين ؟ قال نعم فاكذبى فان كانت احداكن لا تحب احدنا فلا تحدثه بذلك فان اقل البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون ••• »

وروى مؤرخ(٦٠) آخر « ان اهل الكوفة شكوا سعد بن ابى وقاص وقالوا انه لا يحسن الصلاة • فعزله عمر ••• وولى مكانه عمار بن ياسر ••• ثم قدم عليه اهل الكوفة فقال كيف خلفتم عمار بن ياسر اميركم ؟ قالوا مسلم ضعيف

---

(٦٠) اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٣ •

فعزله عمر ووجه جبر بن مطعم . فمكر به المغيرة وحمل عنه خبرا الى عمر . وقال المغيرة ولنى يا امير المؤمنين . قال انت رجل فاسق فقال المغيرة وما عليك ؟ فسقى على نفسى . فولاه الكوفة . فسأل عمر اهلها عن المغيرة فقالوا انت اعلم بفسقه . فقال ما لقيت منكم يا اهل الكوفة !! ان وليت مسلما تقيا قلتم هو ضعيف ، وان وليت مجرما قلتم هو فاسق » كأن بلاد المسلمين قد عقمت من الولاة الصالحين الاقوياء فى الحق . وذكر ان عمر شاطر جماعة من عماله اموالهم : « قيل ان منهم سعد بن ابى وقاص عامله على الكوفة ، وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وابا هريرة عامله على البحرين ، والنعمان بن عدى بن حرثان عامله على ميسان ، ونافع بن عمرو الخزاعى عامله على مكة ، ويعلي بن منية عامله على اليمن . وامتنع ابو بكرة من المشاطرة وقال والله لئن كان هذا المال لله فلا يحل لك ان تأخذ بعضا وتترك بعضا ، وان كان لنا فما لك اخذه »[61] .

(ب) فيما يتصل بعثمان ـ : « أخذ عثمان الزكاة على الخيل ـ وكان النبى قد اعفى من زكاة الخيل ... وحمى عثمان الحمى ـ والله ورسوله قد اباحا الماء والهواء والكلأ للناس جميعا ... وأخذ من اموال الصدقة فانفق منها فى الحرب وفى غير الحرب من المرافق العامة فى حين ان ذلك لا يجوز بنص القرآن ... واتم الصلاة فى منى وقد قصرها النبى »[62] . اما تصرفات عثمان فى الادارة العامة وفى بيت المال وانفاقه اموال المسلمين على اصهاره واصدقائه وذوى قرباه ، وتوليته الفاسقين أمور المسلمين ، واعتدائه على فريق من خيرة اصحاب النبى ـ كأبى

---

(٦١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٥ . ولعل لموقف ابى بكرة هذا من عمر علاقة بموقف عمر منه اثناء شهادته فى قضية المغيرة .

(٦٢) الدكتور طه حسين ، الفتنة الكبرى : عثمان بن عفان ص ١٧٥ـ١٨٦

ذر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود – لتنبيههم اياه بضرورة اتباع سيرة النبى فاشهر من أن تذكر . وقد ذكرنا شطرا منها فى كتابينا « علي ومناوئوه » و « الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام . » على ان هذه التصرفات (واضرابها) برأينا هى العامل المباشر الذى ادى الى مصرع عثمان وهى كذلك العامل غير المباشر فى اثارة المقاومة الصارمة غير العادلة التى ابداها ذوو عثمان واتباعه ضد سياسة الامام العادل الامر الذى ادى فى النهاية الى مصرعه كما هو معلوم .

الفصل الرابع

فلسفة الامام فى ضوء ملابساتها التاريخيـة

ب : الامام وقوى الشر

نقصد بقوى الشر فى هذه الدراسة رؤوس الفتنة ودعاة الانتقاض على حكم الامام ، وفى مقدمتهم بالطبع بنو امية وعلى رأسهم معاوية بن ابى سفيان . اما أغلب المسلمين الذين حاربوا عليا فكانوا اما ضحايا تضليل الامويين وخداعهم ، أو ضحايا الجاه والمال والنفوذ الذى خلعه عليهم الامويون على حساب الدين .

لقد حاربت قوى الشر الامام ـ حربا متواصلة اصطلى بها من بعده بنوه واتباعه الى اليوم ـ فى جبهتين : جبهة السيف وجبهة القلم . ولكنهم مع هذا لم ينالوا منه فى الحالتين وبقى كالطود ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير . والى القارىء تفصيل ذلك :

١ ـ جبهة السيف : لقد شنها خصوم الامام عليه حربا شعواء لا هوادة فيها منذ ان بويع له بالخلافة بعد مصرع عثمان الى ان لقى حتفه بسيف ابن ملجم . ثم تابعوا السير ـ فى ذلك الاتجاه ـ ضد ذويه واتباعه على السواء . وما زالت تلك الحرب قائمة على قدم وساق مع اختلاف فى نوع السلاح وميادين القتال . وقد ذكرنا طائفة من الامثلة على ذلك فى كتابينا : « علي ومناوئوه » و « الصراع بين

الامويين ومبادىء الاسلام » وفى كتابنا الماثل للطبع عن الدولة العباسية .

٢ ـ جبهة القلم ـ : لقد اعلن خصوم الامام حرب القلم عليه وعلى تعاليمه فى أكثر من ميدان واحد ، وفى الوقت الذى كانت فيه جبهة السيف مستعرة الاوار . وقد استمرت تلك الحرب منذ عهده ولم تفتر الى اليوم ، وتعرض ـ نتيجة لها ـ ذكره وتعاليمه الى شتى صنوف التشويه والامتهان . فكأن اسم الامام كان يخيف خصومه ومناوئيه كما كان يخيفهم جسمه اثناء الحياة . ولعلهم كانوا يرهبون الاسم أكثر من رهبتهم للجسم . فللجسم حدوده الزمانية والمكانية الضيقة ، وميدان الفرار منه رحيب . وللجسم ايضا حفرة من الارض تحتضنه بعد المماة . اما الاسم فيتحدى الزمان والمكان .

ولكن محاولاتهم على سعتها واستمرارها قد باءت بفشل ذريع . فتعلق ذكره من الثريا باقراطها ، « وما اقول فى رجل اقر له اعداؤه وخصومه بالفضل ، ولم يمكنهم جحد مناقبه ولا كتمان فضائله . فقد علمت انه استولى بنو امية على سلطان الاسلام فى شرق الارض وغربها واجتهدوا بكل حيلة فى اطفاء نوره والتحريف ووضع المعايب والمثالب له ولعنوه على جميع المنابر وتوعدوا مادحيه بل حبسوهم وقتلوهم ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضل ويرفع له ذكر حتى حظروا ان يسمى احد باسمه . فما زاده ذلك الا رفعة وسموا . وكان كالمسك كلما ستر انتشر عرفه ، وكلما كتم تضوع نشره . وكالشمس لا تستر بالراح ، وكضوء النهار ان حجبت عنه عينا واحدة ادركته عيون كثيرة[١] » . ومن مفارقات التاريخ ان تعمل محاولات الامويين لطمس ذكر الامام على تخليد اسمه . « فمناقبه كثيرة

---

(١) ابن ابى الحديد ، شرح نهج البلاغة المجلد الاول ص ٥ ـ ٦ .

حتى قال الامام احمد بن حنبل : لم ينقل لاحد من الصحابة ما نقل لعلي ... وقال غيره كان سبب ذلك بغض بنى امية له . فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته . وكلما ارادوا اخماده وهددوا من حدث بما فيه لا يزداد الا انتشارا(٢) » .

لقد بدأت حرب القلم ضد الامام ـ على ما يبدو ـ بعد وفاة النبى مباشرة وزادت سعة ووضوحا اثناء خلافة عثمان وبلغت الذروة اثناء تمرد معاوية بن ابى سفيان على الخليفة . وكانت حربا ذات جانبين : جانب سلبى وجانب ايجابى . يتصل الاول منهما بتلفيق احاديث وقصص ينصب اكثرها على مدح الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا عليا فى الزمن ، ويتجه بعضها نحو مدح معاوية نفسه . وينطوى هذا الجانب من جوانب الموضوع ـ بنظر موجديه ومحبذيه ـ على ذم ضمنى للامام . هذا الى ان « اطراء » ، الرسول على ابى بكر اضعاف ـ بنظر معاوية ومن هم على شاكلته ـ لحجة عليّ فى الخلافة . اما ما يتصل بعمر فهناك ـ من وجهة نظر معاوية ـ عاملان : احدهما ان عمر عين معاوية اميرا على الشام . وفى الكذب على النبى من اجله نوع من الاعتراف بالجميل من جهة ، واضعاف لموقف عليّ من معاوية وعزله عن الشام من جهة أخرى . اما العامل الثانى فهو ان عمر قد رفع سهم المؤلفة قلوبهم ـ وكان معاوية وابوه واخوه ـ فى مقدمتهم ، وفى هذا من الخدمة لمعاوية ما يعجز عن رده اختلاف بضعة احاديث . كيف لا !! وقد انسى ذلك المسلمين موقف معاوية من الاسلام وكيفية دخوله فيه !! واما « اطراء » النبى على عثمان فهو اطراء للبيت الاموى وعلى رأسه معاوية آنذاك .

---

(٢) ابن حجر ، الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٢ ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ .

ذلك ما يتصل بالجانب السلبى من الحرب القلمية • اما الجانب الايجابى فيتلخص فى وضع احاديث ملفقة وروايات مزورة فى ذم الامام وانتقاص منزلته الرفيعة • وهى - بنظر واضعيها - مدح ضمنى لخصومه وخدمة عامة لقضيتهم •

« فقد روى عن عبدالله بن ظالم انه قال لما بويع لمعاوية اقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليا • فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - الا ترون الى الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من اهل الجنة !!••• وعن علي بن الحسين قال قال لى مروان ما كان فى القوم ادفع عن صاحبنا من صاحبكم - أى ما كان احد اكثر من عليّ دفاعا عن عثمان اثناء حصاره قبل مصرعه - قلت فما بالكم تسبونه على المنابر !! قال انه لا يستقيم لنا الامر الا بذلك ••• وقال عمر بن عبدالعز كان ابى يخطب فلا يزال مستمرا فى خطبته حتى اذا سار الى ذكر علي وسبه تقطع لسانه واصفر وجهه وتغيرت حاله • فقلت له في ذلك • فقال او فطنت لذلك !! ان هؤلاء لو يعلمون من عليّ ما يعلمه ابوك ما تبعنا منهم رجل • وقام رجل من ولد عثمان الى هشام بن عبدالملك يوم عرفة فقال ان هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن ابى تراب • وعن اشعث ابن سوار قال سب عدى بن ارطاة عليا على المنبر فبكى الحسن البصرى وقال لقد سب اليوم رجل انه لاخو رسول الله فى الدنيا والاخرة وقال اسماعيل بن ابراهيم كنت انا وابراهيم بن يزيد فى المسجد يوم الجمعة مما يلي ابواب كندة فخرج المغيرة فخطب ••• ثم وقع فى عليّ • فضرب ابراهيم على فخذى وركبتى ثم قال اقبل عليّ فانا لسنا فى جمعة الا تسمع هذا ••• وعن عبدالله الجدلى قال دخلت على ام سلمة فقالت ايسب رسول الله فيكم وانتم احياء ؟ قلت وانى يكون هذا ؟

قالت اليس يسب علي ومن يحبه ؟ وعن الزهرى قال قال ابن عباس لمعاوية الا تكف عن شتم هذا الرجل ؟ قال ما كنت افعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير • فلما ولى عمر بن عبدالعزيز كف عن شتمه • فقال الناس ترك السنة•[3] »
وما يجرى هذا المجرى يكاد لا يقع تحت حصر • ترى لماذا كان علي عرضة للسب بهذا الشكل الرخيص ؟ اتجيز سنة الرسول ان يسب احرص الناس بعده على اتباعها ؟ اكان فى تصرفات علي ـ الخاصة والعامة مع خصومه ومع انصاره ـ مايجيز مثل ذلك الشتم ؟ لقد كفانا عبدالعزيز ـ ابو عمر ـ مؤنة البحث فى الاجابة عن الاسئلة الانفة الذكر •

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مرة أخرى ان هذه الحرب التى اعلنها معاوية على الامام ذات جانبين سلبى وايجابى • يتصل الاول منهما بتلفيق احاديث وروايات عن « مناقب » الخلفاء الراشدين الذين سبقوا عليا من الناحية الزمانية ، ويتحدث بعضه عن « مناقب » ابن ابى سفيان • ويتعلق الثانى بوضع « مثالب » فى الامام • والى القارىء بعض الامثلة على ذلك •

١ ـ الجانب السلبى ـ لفق معاوية بالاشتراك مع المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص وابى هريرة وبعض اليهود المندسين فى الاسلام آنذاك طائفة من الاحاديث والاخبار المتضمنة مدحا مفرطا (هو فى حقيقته ذم وهو أمر لا يرتضيه الرسول ولا من قيل فى حقهم ولا الخلق الاسلامى الرفيع) لابى بكر وعمر وعثمان منفردين احيانا ومجتمعين احيانا أخرى • ولم ينس معاوية نفسه فأخذ نصيبه من ذلك ووضعت فيه احاديث غير قليلة • وقد

---

(٣) رسائل الجاحظ ص ١٤ ـ ١٥ •

عاونه فيما يتصل بالتلفيق نفر من المحدثين (بالاضافة الى المغيرة وعمرو بن العاص) فى مقدمتهم ابو هريرة وسمرة بن جندب وعروة بن الزبير • وفى الاحاديث الملفقة ـ التى سنذكر شطرا منها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ـ اساءة لرسول الله بقدر ما فيها من الاساءة للشيخين وللذوق الاسلامى الرفيع • فقد خدم معاوية على ما يبدو قضيته على حساب النبى وعلى حساب الشيخين وعلى حساب الذوق الاسلامى على السواء • ومن المحزن حقا ان ينطلى ذلك على كثير من المؤرخين والمحدثين ممن عرفوا باستقامة العقيدة ومتانة الاخلاق • وقد اعرضنا عن ذكر كثير من تلك الاحاديث الملفقة لافتقارها الى الذوق السليم ولهبوطها عن مستويات الاخلاق الاسلامية الرفيعة • وكان بودنا ان نغفل ذكرها جميعا لو لا اضطرارنا ـ وفقا لمستلزمات البحث ـ الى الاستشهاد بطائفة منها للتدليل على وجاهة ما ذهبنا اليه •

« روى الامام احمد والبخارى والترمذى وابن ماجة عن انس بن مالك قال صعد رسول الله وابو بكر وعمر وعثمان جبل احد فزحف بهم • فقال النبى اثبت احد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان[٤] » • لقد وضع معاوية الرسول والخلفاء الراشدين الثلاثة فوق جبل احد وحدهم دون سائر المسلمين • ثم أمر الجبل الجامد المسكين ان يتحرك • ثم جعل النبى يعاتب الجبل ـ على حركته ـ وينبهه الى من هم فوقه • فكذب بذلك ثلاث مرات • كذب فى وضعهم على الجبل وكذب بحركة الجبل وكذب بتنبيه النبى الجبل • وكانت غايته من ذلك كله ان يجعل المسلمين آنذاك يعتقدون بأن عثمان قد قتل شهيدا باعتراف النبى ليؤلب

---

(٤) سيرة دحلان ج ٣ ص ١٤٦ •

الناس على عليّ . وعن عبدالله بن عمر « انه قال ان رسول الله قال انا اول من تنشق عنــه الارض ثم ابو بكر ثم عمر[٥] » دون ســائر الانبيــاء والصالحين . والغاية من هذا الكذب على النبى هى اضعاف حجة عليّ فى موضوع الخلافة اثناء نزاعه مع الشيخين . وفى ذلك اسناد ضمنى لموقف معاوية من عليّ . وعن عائشة ان رسول الله قال لها « اخبرك ان اباك الخليفة من بعدى فاكتمى ذلك عليّ[٦] » ولا ندرى لماذا طلب الرسول منها ان تكتم ذلك عليه ؟ ايخاف الناس ؟ واذا كان لابد من كتمان الامر فلماذا اخبرها بذلك ؟ « وعن ابن عباس والله ان خلافة ابى بكر لفى كتاب الله . » لقد كذب معاوية على الله وعلى رسوله وعلى القرآن وعلى ابن عباس فى ان واحد . اما اسناده الحديث الى ابن عباس ففيه اضعاف لحجة من يطعن بصحته لموقف ابن عبــاس الودى المعروف من عليّ فى هــذا الموضوع بالذات . وروى البخارى باسانيده المختلفة عن عمرو بن العاص (صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٢) انه قال ان النبى « بعثنى على جيش ذات السلاسل فاتيته فقلت له أى الناس احب اليك ؟ قال عائشة . فقلت من الرجال ؟ قال ابوها . فقلت ثم من ؟ قال عمر بن الخطاب » . ولسنا واجدين أية علاقة بين المسير الى الحرب وبين هذا النوع من الاسئلة اللهم الا رغبة معاوية فى خــدمة قضيتــه فى موضوع الخلافة . وروى البخارى ايضا (صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٥) باسانيده المختلفة عن محمد بن الحنفية انه قال قلت « لابى أى الناس خير بعد رسول الله ؟ قال ابو بكر . قلت ثم من ؟ قال عمر » . وروى البخارى كذلك (صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٦) باسانيده المختلفة عن سعيد بن المسيب قــال اخبرنى ابو موسى

(٥) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٤١ .
(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٥٣ .

الاشعرى انه توضأ فى بيته ثم خرج فقال « لألزمن رسول الله ولا كونن معه يومى هذا . فجئت المسجد فسألت عن رسول الله فقالوا لى انه خرج ووجهه ههنا . فخرجت على أثره أسال حتى دخل بئر ادريس . فجلست عند الباب حتى قضى رسول الله حاجته . فتوضأ فقمت اليه فاذا هو جالس على بئر ادريس وقد توسط قفها وكشف عن ساقيه دلاهما فى البئر . فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله اليوم . فجاء ابو بكر فدفع الباب فقلت من هذا؟ فقال ابو بكر فقلت على رسلك . ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا ابو بكر يستأذن ؟ فقال ائذن له وبشره بالجنة ... فدخل ابو بكر وجلس عن يمين رسول الله معه فى القف ودلى رجليه فى البئر كما صنع رسول الله وكشف عن ساقيه . ثم اقبل عمر فقلت له على رسلك . ثم جئت الى رسول الله فسلمت عليه فقلت عمر بن الخطاب يستأذن !! فقال ائذن له وبشره بالجنة ... فدخل فجلس مع رسول الله فى القف عن يساره ودلى رجليه فى البئر ... ثم اقبل عثمان ... فقال ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه . » يلوح لى ان « الحديث » الانف الذكر قد وضع بذلك الشكل الطويل المعقد ايهاما للسامع – او القارىء – بانه قد حصل بالفعل . « والحديث » كما يبدو يصور لنا الرسول وكأنه رغب فى ان يصرف يومه ذاك دون ان يقوم بعمل ذى اهمية من الناحية الدينية او الاجتماعية : فلم يكن للرسول من عمل آنذاك سوى الجلوس على حافة البئر والكشف عن ساقيه ليستقبل الذوات الثلاثة ويجعلهم يجلسون كجلوسه ويبشرهم بالجنة . وقد فعل الرسول ذلك كله – على ما يبدو – ليخبر عثمان ببلوى تصيبه لينتفع بذلك معاوية كما هو معروف . وقد فات معاوية ان يتذكر ان عثمان يدخل الجنة – حسب صيغة هذا « الحديث »

بسبب البلوى التى تصيبه . ولا ندرى اية بلوى احسن من تلك التى يدخل المرء بسببها الجنة !! وذكر صاحب السيرة الحلبية (ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢) ان النبى قال لابى بكر : « مثلك - يا ابا بكر - فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة... ومثلك فى الانبياء مثل ابراهيم حيث يقول فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم . مثلك - يا ابا بكر - مثل عيسى بن مريم اذ قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم ... ومثلك - يا عمر - فى الملائكة مثل عزرائيل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على اعداء الله...ومثلك - فى الانبياء - مثل نوح اذ قال ربى لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . ومثلك فى الانبياء مثل موسى اذ قال ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب[7] » .

قال علي بن برهان الدين الشافعى الحلبى (السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٤) ان رسول الله قال « ليس من احد أمن عليّ - فى اهل ومال - من ابى بكر . وفى رواية أخرى ما من احد أمن عليّ - فى صحبته وذات يده - من ابى بكر . وما نفعنى مال ما نفعنى مال ابى بكر ... وفى رواية ما لاحد عندنا يد الا وقد كافأناه خلا ابا بكر فان له عندنا يد الله يكافئه بها يوم القيمة ... وقال رسول الله لابى بكر ما اطيب مالك : منه بلال مؤذنى وناقتى التى هاجرت عليها وزوجتى ابنتك ، وواسيتنى بمالك : كأنى انظر اليك على باب الجنة تشفع لأمتى . » وروى صاحب السيرة الحلبية ايضا (ج ٢ ص ٣٨ و ٤١) ان النبى وابا بكر « لما انتهيا الى فم الغار قال ابو بكر للنبى والذى بعثك بالحق لا تدخل حتى ادخله

---

(٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

قبلك فان كان فيه شيء نزل بى قبلك • فدخل ابو بكر فجعل يلتمس بيده كلما
رأى جحرا اقال بثوبه فشقه ثم القمه الجحر حتى فعل ذلك بجميع ثوبه • فبقى
جحر ـ وكان فيه حية ـ • ثم ان الحية جعلت تلسع ابا بكر وصارت دموعه
تنحدر ••• وقد كان الرسول وضع رأسه فى حجر ابى بكر ونام • فسقطت
دموع ابى بكر على رسول الله فقال ما لك يا ابا بكر ؟ قال لدغت فداك امى وابى•
فتفل رسول الله على محل اللدغة فذهب ما يجده • قال بعضهم والسر فى اتخاذ
رافضة العجم اللباد المقصص على رؤوسهم تعظيما للحية التى لدغت ابا بكر •••
ولما اصبح رسول الله قال لابى بكر اين ثوبك ؟ فأخبره الخبر • وزاد فى رواية
انه رأى على ابى بكر أثر الورم فسأل عنه فقال من لدغة الحية • فقال رسول الله
هلا اخبرتنى ؟ قال كرهت ان اوقظك • فمسحه النبى فذهب ما به من ورم •••
وحين أخبره ابو بكر بذلك رفع رسول الله يديه وقال اللهم اجعل ابا بكر معى فى
درجتى فى الجنة • فاوحى الله اليه قد استجاب الله لك • ثم ان ابا بكر عطش فى
الغار فقال رسول الله له اذهب الى صدر الغار فاشرب • فانطلق ابو بكر الى صدر
الغار فوجد ماء احلى من العسل وابيض من اللبن وازكى رائحة من المسك فشرب
منه • فقال له رسول الله ان الله أمر الملك الموكل بانهار الجنة ان يخرق نهرا من
جنة الفردوس الى صدر الغار لتشرب • قال ابو بكر يا رسول الله ولى عند الله
هذه المنزلة !! فقال النبى نعم ، وافضل • والذى بعثنى بالحق لا يدخل الجنة
مبغضك ولو كان عمله عمل سبعين نبيا • » وذكر الغزالى (احياء علوم الدين
ج ١ ص ٢٧٩) فى معرض تفسير رفض ابى بكر التداوى فى علته التى مات بها :
« ان للتداوى اسبابا • السبب الاول ان يكون المريض من المكاشفين ـ وقد كوشف ـ ابو بكر ـ

بانه انتهى اجله وان الدواء لا ينفعه . ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة يكشف محقق . ويشبه ان يكون ترك الصديق التداوى من هذا السبب فانه كان من المكاشفين : فانه قال لعائشة - فى أمر الميراث - انما هن اختاك ، وانما كانت لها اخت واحدة ، ولكن كانت امرأته حاملا فولدت انثى فعلم انه كان قد كوشف بانهـا حامل بانثى . فلا يبعـد ان يكون قد كوشف ايضا بانتهاء اجله ... » وروى الغزالى (احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٥٧) ان النبى قال « لو وزن ايمان ابى بكر بايمـان العالم لرجح » . وذكر صاحب السيرة الحلبية (ج ٢ ص ٣٨٣) ان الرسول قال « اتخذنى الله خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا . وانه لم يكن نبى الاوله خليل الا وان خليلى ابو بكر » - قال النبى ذلك ، على رواية الغزالى ، قبل موته بخمسة ايام !! « وقد جاء ان الانسان - بحسب رواية صاحب السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٠٣ - يدفن فى التربة التى خلق منها . وهو يدل على ان النبى وابا بكر وعمر خلقوا من تربة واحدة . وقد روى عن ابى بكر - لما حضرته الوفاة - انه قال لمن حضره اذا مت وفرغتم من جهازى فاحملونى حتى تقفوا بباب البيت الذى فيه قبر النبى . فقفوا بالباب وقولوا : السلام عليك يا رسول الله . هذا ابو بكر يستأذن . فان اذن لكم بان فتح الباب - وكان الباب مغلقا بقفل - فادخلونى وادفنونى . وان لم يفتح الباب فاخرجونى وادفنونى بالبقيع . فلما وقفوا على الباب وقالوا ما ذكر سقط القفل وانفتح الباب وسمع هاتف من داخل البيت يقول : ادخلوا الحبيب فان الحبيب مشتاق » . - وكانت السيدة عائشة - بنت ابى بكر - وحدها بالـدار كما هو معروف من الناحية التاريخية .

ذلك ما يتصل بابى بكر - • اما ما يتعلق بعمر فاليك الامثلة التالية : ذكر صاحب السيرة الحلبية (٢ ص ١٠٤) ان بلالا كان اذا أذن قال : « اشهد ان لا اله الا الله • حى على الصلاة • فقال عمر على أثرها : اشهد ان محمدا رسول الله • فقال رسول الله لبلال : قل كما قال عمر » • أى ان ابن الخطاب ، فى هذا الحديث ، يشرع الاذان ويضع صيغته • ولا نظن ان عمر نفسه يقبل بذلك لما فيه من تعريض بالنبى • وروى البخارى فى صحيحه (ج ٤ ص ١٩٨) باسانيده المختلفة عن ابى هريرة انه قال : « بينا نحن عند رسول الله اذ قال بينا انا نائم رأيتنى فى الجنـة فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر • فقلت لمن هـذا القصر ؟ فقالوا لعمر » • وروى الطبرانى عن ابى سعيد الخدرى مرفوعا : « من احب عمر فقد احبنى ومن ابغض عمر فقد ابغضنى[٨] » • وروى الطبرانى وابن حيان والحاكم والبيهقى بان « سعد بن سعنة - احد احبار اليهود الذين اسلموا - قال ••• ما بقى شىء من نعت محمد فى التوراة الا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت اليه الا اثنتين لم اجدهما فيه : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل اليه الا حلما • فكنت اتلطف له توصلا ان اخالطه فاعرف حلمـه وجهله • فابتعت منه تمرا الى اجل ••• فلما كان قبل مجىء الاجل بيومين أو ثلاثة اتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه على عنقه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ثم قلت : الا تقضينى حقى !! انكم يا بنى عبدالمطلب مطل ••• فنظر عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير فقال : أى عدو الله !! تقول لرسول الله ما اسمع ! وتفعل به ما ارى !! فوالله لولا احاذر فوته - أى من بقاء الصلح بين المسلمين

(٨) سيرة دحلان ج ٣ ص ٣٧٣ •

وبين قومه - لضربت بسيفي رأسك • ورسول الله ينظر الى عمر بسكون وتوءدة ، وتبسم وقال : « انا وهو كنا احوج الى غير هذا منك يا عمر : ان تأمرني بحسن الاداء وتأمره بحسن التباعة • وفي رواية : تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي[9] • » - رسول الله يرجو من عمـــر ان يأمره بحسن الاداء او بحسن القضاء ، ويأمر صاحبه بحسن التباعة • وفي هذا ، على ما نظن ، اساءة لرسول الله ولعمر في آن واحد • ولكن معاوية لا يضيره ان يساء الى احد ما دام ذلك يخدم قضيته ويشبع نزواته • وذكر ان النبي اراد « ان يصلي على جثمان عبدالله بن ابي - فمنعه عمر من ذلك وصار يجذبه ويقول يا رسول الله اتصلي على رأس المنافقين !! فنثر النبي ثوبه من عمر - أي جذبه بقوة - وقال اليك عني يا عمر ••• فنزل قوله تعالى : ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره - الاية • فما صلى على منافق بعد ولا قام على قبره • وهذه من الايات التي جاءت موافقة لرأي عمر[10] » • وفي حديث ابي هريرة : « ان النبي خرج في بعض مغازيه • فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت يا رسول الله اني كنت نذرت ان ردك الله سالما ان اضرب بين يديك بالدف • فقال لها ان كنت نذرت فاضربي • فجعلت تضرب • ثم دخل عمر فالقت الدف عنها وقعدت عليه • فقال النبي ان الشيطان يخاف منك يا عمر •••واذا كان الشيطان يخاف منك فما بالك بأمرأة ضعيفة العقل[11] !! » وعندما اراد عمر ان يشتري خشبتين للناقوس الذي كان مزمعا نصبه لتنبيه الناس للصلاة « اذ رأى في المنام : لا تجعلوا النـاقوس بل اذنوا

---

(٩) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ •
(١٠) المصدر نفسة ج ٣ ص ٢٧١ - ٢٧٢ •
(١١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٦ •

للصلاة . فذهب عمر الى النبى ليخبره بالذى رأى - وقد جاء النبى الوحى بذلك. فما راع عمر الا بلال يؤذن . فقال رسول الله - حيث اخبره عمر بذلك - قد سبقك بذلك الوحى (١٢) » . وروى ان عمر بن الخطاب « كان يسقط من الخوف اذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه ، فكان يعاد اياما ... وكان فى وجه عمر خطان اسودان من الدموع ... ولما قرأ عمر : اذا الشمس كورت ، وانتهى الى قوله تعالى : واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه . ومر يوما بدار انسان - وهو يصلى ويقرأ سورة الطور - فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى : ان عذاب ربك لواقع ما له من دافع نزل عن حماره واستند الى الحائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه (١٣) » . وذكر ابن سعد (الطبقات الكبرى ج ٤ ص ١٥٢) باسانيده المختلفة عن عائشة « ان رسول الله قال : ما من نبى الا فى امتــه معلم أو معلمان ، وان يكن فى امتى احد فابن الخطاب : ان الحق يدور على لسان عمر (١٤) » . وذكر الغزالى (١٥) ان النبى قال فى عمر : « لو لم ابعث لبعثت انت يا عمر . » وذكر ابن الاثير (اسد الغابة ج ٤ ص ٦٤) ان ابا بكر قال « لقد سمعت رسول الله يقول ما طلعت شمس على رجل خيرا من عمر . » - لاحظ كلمة « رجل » وضعت بهذا الاطلاق فهى تشمل الجنس او النوع الانسانى فى الماضى والحاضر والمستقبل ما دامت هناك شمس ونوع انسانى بما فيه من انبياء وغيرهم . وجاء فى الفخرى لابن الطقطقى (ص ٢٧٧) ان

---

(١٢) ابن هشام ، سيرة النبى محمد ج ٢ ص ١٢٩ .

(١٣) الغزالى احياء علوم الدين ج ص ١٨٠ .

(١٤) ابن سعد الطبقات الكبرى ج ٤ ص ١٥٢ .

(١٥) احيــاء علوم الدين ج ٣ ص ١٥٧ وكذا ابن الاثير (اســد الغاية ج ٤ ص ٦٤) .

رسول الله قال : « لى وزيران من اهل السماء ـ جبرائيل وميكائيل ـ ، ووزيران من اهل الارض ـ ابو بكر وعمر ـ » وعن ابن عمر (على ما يذكر ابن الاثير فى اسد الغابة ج ٤ ص ٦٣) انه « ما نزل بالناس امر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر ... الا نزل قرآن فيه على نحو ما قاله عمر . » وقد قال رسول الله (فى رواية ابن الاثير ـ المصدر نفسه ج ٤ ص ٩٤) ـ عندما خطب عمر بن الخطاب الى قوم فردوه ـ « لقد ردوا رجلا ما فى الارض رجل خيرا منه . » وقال جبرائيل (على ما يروى الزمخشرى فى الكشاف ج ١ ص ٤٠٦) « ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال رسول الله انت الفاروق . » وذكر الزمخشرى ايضا (المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٦) « انه كان لعمر ارض باعلى المدينة ، وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم ... ثم سألهم عن جبريل فقالوا ذاك عدونا : يطلع محمدا على اسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وان ميكائيل يجيء بالخصب والسلام . فقال لهم وما منزلتهما من الله ؟ قالوا اقرب منزلة : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره . وميكائيل عدو لجبريل . فقال عمر لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ، ولا نتم اكفر من الحمير . ومن كان عدوا لاحدهما كان عدوا للآخر . ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحى . فقال النبى لقد وافقك ربك يا عمر . » اشارة الى قوله فى سورة البقرة « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين . »

واما عثمان فقد وضعت فيه احاديث ولفقت حوله روايات كثيرة لا تقل فى الكمية وفى النوع عما قيل فى صاحبيه . قال صاحب السيرة الحلبية (ج ٢ ص ٢١٧ـ٢١٨):

« لما خطب علي فاطمة قال له رسول الله : ما تصدقها ؟ قال ليس عندى شيء . قال فاين درعك التى اعطيتك يوم كذا وكذا ؟ قال عندى . فباعها من عثمان ابن عفان باربعمائة وثمانين درهما . ثم ان عثمان رد الدرع الى علي . فجاء علي بالدرع والدراهم الى رسول الله . فدعا رسول الله لعثمان بدعوات ... فلما اصبح عثمان وجد فى داره اربعمائة كيس فى كل كيس اربعمائة درهم مكتوب على كل درهم : هذا ضرب الرحمن لعثمان بن عفان . فاخبر جبريل النبى بذلك. فقال النبى هنيئا يا عثمان . » واذا كان فى السماء معمل لسك النقود ـ بهذا الشكل ـ فلماذا لم تنزل تلك النقود على النبى مباشرة ليأخذ منها حاجته دون اللجوء الى هذه العملية الطويلة !! وعن ابى سعيد الخدرى (فى رواية صاحب السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٨) « قال رأيت رسول الله من اول الليل الى ان طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان . يقول : اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه . » وروى الترمذى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب « ان الرسول ذكر فتنة فقال يقتل فيها هذا مظلوما ـ يعنى عثمان ـ وان الله عسى ان يلبسه قميصا وانهم يريدون خلعه !! وان النبى قال لعثمان فلا تخلعه[١٦] . » وعن ابن عباس ان رسول الله قال : « قال لى جبريل ان اردت ان تنظر ـ من اهل الارض ـ شبيه يوسف الصديق فانظر الى عثمان بن عفان ، ولتزوجه بنتى رسول الله[١٧] » . وذكر ابن الجوزى ان المصريين عندما دخلوا على عثمان بعد حصاره الذى انتهى بمصرعه كان المصحف فى حجره يقرأ فيه : « فمدوا اليه ايديهم فمد يده فضربت فسال الدم ـ وقيل وقعت قطرة على عبارة : فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ...

(١٦) سيرة دحلان ج ٣ ص ٢٠٥ .
(١٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٤ .

وقد اخرج الحاكم عن ابن عباس : ان رسول الله قال لعثمان : تقتل وانت تقرأ سورة البقرة فتقع قطرة من ذلك على : فسيكفيكهم الله[١٨] » . وعن ابى سعيد الخدرى : « قال رأيت رسول الله من اول الليل الى ان طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان يقول : عثمان رضيت عنه فارض عنه[١٩] . وعن عبدالله بن سلام انه قال : « اتيت اخى عثمان لاسلم عليه وهو محصور . فدخلت عليه فقال مرحبا يا اخى : رأيت رسول الله الليلة فى هذه الخوخة ـ وهى خوخة البيت ـ فقال يا عثمان حصروك ؟ قلت نعم . قال عطشوك ؟ قلت نعم . فادلى الي دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى انى لاجد برده بين ثدى وبين كتفى . وقال ان شئت نصرت عليهم ، وان شئت افطرت عندنا !! فاخترت ان افطر عنده . فقتل ذلك اليوم[٢٠] ». وسأل عبدالله بن سلام من حضر مقتل عثمان فقال :« تشحط عثمان فى الموت حين جرح ؟ ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع امة محمد ـ قالها ثلاثا . قال والذى نفسى بيـــده لو دعا الله ان لا يجتمعوا ابدا ما اجتمعوا الى يوم القيمة[٢١] » . هذا ما يتصل بعثمان بن عفان من الاحاديث التى لفقها معاوية واعانه عليها من هم على شاكلته ممن ذكرنا اسماءهم وربما اشترك فى ذلك بعض عقلاء اليهود لاشاعة الفتن فى الاسلام .

اما معاوية فلم ينس نصيبه من تلك « الاحاديث » والروايات . والى القارىء نماذج منها : فهند ام معاوية لا تمسها النار على الرغم مما فعلته بالنبى كما هو

---

(١٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٣ .
(١٩) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢٠) الغزالى احياء علوم الدين ج ٣ ص ٤٦٣ .
(٢١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٦٣

معروف ، وسبب ذلك انها شقت بطن حمزة واخرجت كبده فلاكتها فلم تستطيع ان تستسيغها فلفظتها . « ولما بلغ النبى ذلك قال ان الله قد حرم النار ان تذوق من لحم حمزة شيئا . ولو اكلت منه ـ أى استقر فى جوفها ـ لم تمسها النار ايضا ... ورأيت فى بعض السير انها شوت منه ثم اكلت . وقد يقال لا منافاة لجواز حمل الاكل على مجرد المضغ من غير اساغة (٢٢) » . وروى عبدالله بن عمر عن النبى انه قال : « لمعـــاوية انت منى وانا منك : لتزاحمنى على باب الجنـــة كهاتين ـ واشار باصبعه الوسطى والتى تليها (٢٣) » وعن معاوية انه قال : « فلما كان عام الفتح اظهرت اسلامى ولقيت رسول الله فرحب بى ، وكتبت له ـ بعد ان استشار فيه جبرائيل فقال استكتبه فانه امين (٢٤) » . وذكر صاحب السيرة الحلبية ان الرسول اردف معاوية يوما خلفه « فقال ما يلينى منك ؟ قال معاوية بطنى . فقال النبى اللهم املأه حلما وعلما . وعن العرباض بن سارية قال سمعت النبى يقول لمعاوية اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب ومكن له فى البلاد . وعن بعض الصحابة انه سمع النبى يدعو لمعاوية يقول اللهم اجعله هاديا مهديا واهد به ولا تعذبه (٢٥) » . وما يجرى هذا المجرى لايكاد يقع حصر . وجميعه كما ذكرنا يقع ضمن ما سميناه « الجانب السلبى » .

٢ ـ الجانب الايجابى : لفق معاوية بالاستعانة بمن ذكرنا اسماءهم (وربما ساهم فى ذلك عقلاء اليهود لاشاعة الفتن فى الاسلام كما ذكرنا) طائفة أخرى من

---

(٢٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٢٣) سيرة دحلان ج ٢ ص ٣٢٥ .
(٢٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٩ .
(٢٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٩ .

الاحاديث الملفقة والروايات المفتعلة للحط من قدر الامام بنظر السذج من المسلمين. وهذا طرف منها : « روى الزهرى ان عروة بن الزبير حدثه قال حدثتنى عائشة قالت كنت عند رسول الله اذ اقبل العباس وعلي . فقال النبى يا عائشة هذان يموتان على غير قبلتى ... وزعم عروة ان عائشة حدثته فقالت كنت عند النبى اذ اقبل العباس وعليّ فقال الرسول يا عائشة ان سرك ان تنظرى الى رجلين من اهل النار فانظرى الى هذين قد طلعا !! فاذا العباس وعلي بن ابى طالب(٢٦) » . وذكر الطبرى « ان معاوية بذل لسمرة بن جندب مئة الف درهم حتى يروى ان هذه الاية انزلت فى عليّ : ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام . واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها يهلك الحرث والنسل . وان الاية الثانية نزلت فى ابن ملجم وهى قوله : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . فلم يقبل . فبذل له مئتى الف درهم فلم يقبل . فبذل له اربعمائة الف درهم فقبل وروى ذلك(٢٧) » . ومن طريف ما عثرنا عليه فى هذا الباب — وهو أمر يتعلق باتباع عليّ أى انه يتعلق به بصورة غير مباشرة — ما رواه « البزاز والطبرانى — بسند صحيح — من ان رسول الله قال : يوشك ان يكثر فيكم العجم يأكلون افياءكم ويضربون رقابكم ... وان رسول الله ايضا اخبر بظهور الرافضة فى احاديث رواها البيهقى من طرق متعددة منها : يكون فى امتى قوم يسمون الرافضة فارفضوهم . وفى رواية فاقتلوهم فانهم مشركون(٢٨) » . واطرف من ذلك « ما جاء عن علي كرم الله وجهه قال صنع

---

(٢٦) ابن ابى الحديد شرح نهج البلاغة المجلد الاول ص ٣٥٨ .
(٢٧) المصدر نفسه .
(٢٨) سيرة دحلان ج ٣ ص ٢١٣ .

لنا عبدالرحمن بن عوف طعاما ـ أى شرابا من الخمر ـ فاكلنا وشربنا فأخذت الخمر ، وحضرت الصلاة ـ أى الجهرية ـ وقدمونى فقلت : قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، الى ان قلت وليس لي دين وليس لكم دين[29] » • وما الى ذلك من هذا الدس الرخيص •

وما دمنا فى معرض التحدث عما وضع فى علي ومناوئيه من احاديث ملفقة وروايات مزورة فأننا نود ان نختتم هذه الدراسة بذكر « الرسائل » المتبادلة ـ على زعم واضعها ـ بين ابى بكر وعمر من جهة وبين علي من جهة أخرى • ويجعل بنا قبل ان نفعل ذلك ان ننبه القارىء الى ان ابن ابى الحديد ـ كما سنرى ـ قد اتهم ابا حيان التوحيدى بوضع تلك الرسائل ، واننا نتفق معه فيما ذهب اليه • والى القارىء نص تلك الرسائل ، وتعليق ابن ابى الحديد عليها ، وتعليقنا على ذلك التعليق : ذكر ابو العباس احمد القلقشندى (صبح الاعشى ج ١ ص ٢٣٧-٢٤٧) ان ابا حيان ـ علي بن محمد التوحيدى البغدادى ـ قال : « سمرنا ليلة عند القاضى ابى حامد ـ أحمد بن بشر المرروذى ـ ببغداد • فنصرف فى الحديث كل متصرف ، وكان غزير الرواية ، لطيف الدراية • فجرى حديث السقيفة ، فركب كل مركبا وقال قولا وعرض بشىء ونزع الى فن • فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لابى بكر الى علي بن ابى طالب وجواب علي عليها ؟ ومبايعته أياه عقيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة لا والله • فقال هى والله من بنات الحقائق ومخبآت الصناديق ، ومنذ حفظتها ما رويتها الا لابى محمد المهلبى فى وزارته • فكتبها عنى بيده ، وقال لا اعرف رسالة اعقل منها ولا ابين ، وانها لتدل على علم وحلم

---

(٢٩) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٥ •

وفصاحة ونباهة وبعد غور وشدة غوص . فقال العباداني : ايها القاضي فلو اتممت المنة علينا بروايتها !! اسمعناها : فنحن اوعى لك من المهلبي واوجب ذماما عليك . فاندفع وقال : حدثنا الخزاعي بمكة عن ابي ميسرة قال حدثنا محمد بن ابي فليح عن عيسى بن دوأب بن المتاح ، قال سمعت مولاي ابا عبيدة يقول : لما استقامت الخلافة لابي بكر — بين المهاجرين والانصار — بعد فتنة كاد الشيطان بها فدفع الله شرها ويسر خيرها ، بلغ ابا بكر عن عليّ تلكؤ وشماس وتهمم ونفاس[٣٠] . فكره ان يتمادى الحال فتبدو العورة وتشتعل الجمرة وتتفرق ذات البين . فدعاني بحضرته في خلوه ، وكان عنده عمر بن الخطاب وحده . فقال : يا ابا عبيدة ما ايمن ناصيتك وابين الخير بين عينيك !! وطالما اعز الله بك الاسلام واصلح شأنه على يديك !! ولقد كنت من رسول الله بالمكان المحوط والمحل المغبوط ، ولقد قال فيك — في يوم مشهود — : لكل امة امين ، وامين هذه الامة ابو عبيدة . ولم تزل للدين ملتجا وللمؤمنين مرتجى ، ولاهلك ركنا ولاخوانك رداء . قد اردتك لامر خطره مخوف واصلاحه من اعظم المعروف ، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك ولم تجب حيته برقيتك وقع الياس واعضل الباس واحتيج — بعد ذلك — الى ما هو امرّ منه واغلق واعسر منه واغلق . والله اسأل تمامه بك ونظامه على يديك . فتأت له — ابا عبيدة — وتلطف فيه وانصح لله ولرسوله وهذه العصابة غير آل جهدا ولا قال حمدا ، والله كالئك وناصرك وهاديك ومبصرك . امض الى عليّ واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك . واعلم انه سلالة ابي طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالامس مكانه . وقل له : البحر مغرقة والبر مفرقة والجو

---

(٣٠) الشماس المعاندة ، والتهم الطلب والتجسس ، والنفاس المنافسة .

أكلف والليل اغدف والسماء جلواء والارض صلعاء(٣١) والصعود متعذر والهبوط متعسر والحق عطوف رؤف والباطل عنوف عسوف والعجب قداحة الشر والضعن رائد البوار والتعريض شجار الفتنة والقحة ثقوب العداوة • وهذا الشيطان متكىء على شماله متحيل بيمينه ، نافخ خصيتيه لاهله ينتظر الشتات والفرقة ويدب بين الامة الشحناء والعداوة : عنادا لله اولا ولآدم ثانيا ولنبيه ودينه ثالثا • يوسوس بالفجور ويدلى بالغرور ويمنى اهل الشرور • يوحى الى اوليائه زخرف القول غرورا بالباطل دأبا له منذ كان على عهد ابينا آدم ، وعادة له منذ اهانه الله فى سالف الدهر ـ لا منجى منه الا بعض الناجذ على الحق وغض الطرف عن الباطل ووطء هامة عدو الله بالاشد فالاشد وآلاكد فالآكد واسلام النفس لله فى ابتغاء رضاه • ولابد الان من قول ينفع اذا ضر السكوت وخيف غبه ولقد ارشدك من افاء ضالتك وصافاك من احيا مودته بعتابك واراد بك الخير من آثر البقاء معك • ما هذا الذى تسول لك نفسك ويدوى به قلبك ويلتوى عليه رأيك ويتخاوص دونه طرفك ويسرى فيه ظعنك ويتراد معه نفسك وتكثر عنده صعداؤك ولا يفيض به لسانك ؟ اعجمة بعد افصاح ! أتلبيس بعد ايضاح ! أدين غير دين الله ! أخلق غير خلق القرآن ! أهدى غير هدى النبى ! أمثلى تمشى له الضراء وتدب له الخمر !(٣٢) ام مثلك ينقبض عليه الفضاء ويكسف فى عينه القمر !! ما هذه القعقعة بالسنان ؟ وما هذه الوعوعة باللسان ؟ انك ـ والله ـ جد عارف باستجابتنا لله ولرسوله

---

(٣١) تجب تقطع ، اكلف أسود تعلوه حمرة ، اغدف مظلم ، جلواء مصحية ، صلعاء خالية لاشجر فيها •

(٣٢) افاء ارجع ، يتخاوص يغض من بصره ، الضراء الاستخفاء ، ما واراك من شجر وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه ، الشنان جمع شن وهى القربة الخلق البالية الصغيرة • وتدب له الخمر مثل يضرب لمن يختل صاحبه •

وبخروجنا عن اوطاننا واموالنا واولادنا واحبتنا : هجرة الى الله ونصرة لدينه فى زمان انت فيه فى كن الصبا وخدر الغرارة وعنفوان الشبيبة ـ غافل عما يشيب ويريب ـ لا تعى ما يراد ويشاد ولا تحصل ما يساق ويقاد سوى ما انت جار عليه الى غايتك التى اليها عدل بك وعندها حط رحلك ، غير مجهول القدر ولا مجحود الفضل • ونحن فى اثناء ذلك نعانى احوالا تزيل الرواسى ونقاسى اهوالا تشيب النواصى : خائضين غمارها راكبين تيارها نتجرع صابها ونترع عيابها ونحكم آساسها ونبرم امراسها(٣٣) • والعيون تحدج بالحسد والانوف تعطس بالكبر والصدور تستعر بالغيظ والاعناق تتطاول بالفخر والشفار تشحذ بالمكر والارض تميد بالخوف : لا ننتظر عند المساء صباحا ولا عند الصباح مساء ولا ندفع فى نحر أمر الا بعد ان نحسو الموت دونه ولا نبلغ مرادا الا بعد الاياس من الحياة عنده : قادين فى جميع ذلك رسول الله بالاب والام والخال والعم والمال والنشب والسبد واللبد والهلة والبلة ـ بطيب انفس وقرة اعين ورحب اعطان وثبات عزائم وصحة عقول وطلاقة اوجه وذلاقة السن ، مع خفيات اسرار ومكنونات اخبار كنت عنها غافلا ـ ولولا سنك لم تكن عن شىء منها ناكلا : كيف وفؤادك مشهوم وعودك معجوم • والان قد بلغ الله بك وانهض الخير لك وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم اقول ما تسمع : فارتقب زمانك وقلص اردانك ودع التقعس والتجسس لمن لا يظلع لك اذا خطا ولا يتزحزح عنك اذا عطا • فالامر غض والنفوس فيها مض ، وانك اديم هذه الامة فلا تحلم مجاجا ، وسيفها العضب فلا تنبت اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحل أجاجا • ولقد سألت رسول الله عن هذا الامر فقال لي : يا ابا بكر

(٣٣) نشرح عيابها ننضدها ونضم بعضها الى بعض ، والعياب جمع عيبة وهى زنبيل من ادم تجعل فيه الثياب ، امراس جمع مرس وهو الحبل •

هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفج اليه • هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي •

ولقد شاورني رسول الله في الصهر فذكر فتيانا من قريش فقلت اين انت من علي ! فقال اني اكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه • فقلت له متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بهما البركه واسبغت عليهما النعمة – مع كلام كثير خاطبته به رغبه فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك لا جوجاء ولا لوجاء(٣٤) • فقلت ما قلت وانا ارى مكان غيرك واجد رائحة سواك ، وكنت اذ ذاك خيرا لك منك الان لي • ولئن كان عرض بك رسول الله في هذا الامر فلم يكن معرضا عن غيرك ، وان كان قال فيك فما سكت عن سواك • وان تلجلج في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضى والصواب مسموع والحق مطاع • ولقد نقل رسول الله وهو عن هذه العصابه راض وعليها حذر : يسره ما يسرها ويسوءه ما ساءها ويكيده ما كادها ويرضيه ما ارضاها ويسخطه ما اسخطها • أما تعلم انه لم يدع احدا من اصحابه واقاربه وسجرائه الا اباته بفضيلة وخصه بمزية وافرده بحالة !! أتظن انه ترك الامة سدى بددا عباهل مباهل طلاحى مفتونة بالباطل مغبونة عن الحق لا رائد ولا ذائد ولا ضابط ولا حائط ولا ساقي ولا واقي ولا هادي ولا حادي ! كلا • والله ما اشتاق الى ربه الا بعد ان ضرب المدى واوضح الهدى وابان الصوى وامن المسالك والمطارح وسهل المبارك والمهايع ، والا بعد ان شدخ الشرك بأذن الله وشرم وجه

---

(٣٤) السبد الشعر والنبد الصوف ، الهلة من الفرح والاستهلاك والبلة من البلل والخير • عطا مد اليك عنقه واقبل نحوك • مشهوم ذكي متوقد ، حلم الجلد فسد وتثقب ، يجاحش عليه يطلبه ويدافع عنه • يتنفج اليه يتطلع اليه ويفتخر به • ما كنت عرفت منك لا جوجاء ولا لوجاء أي ما كنت عرفت منك شيئا.

النفاق لوجه الله وجدع انف الفتنة فى ذات الله وتفل فى عين الشيطان بعون الله وصدع بملء فيه ويده بأمر الله[٣٥] .

وبعد فهؤلاء المهاجرون والانصار ـ عندك ومعك ـ فى بقعة واحدة ودار جامعة : ان استقالونى لك واشاروا عندى بك فانا واضع يدى فى يدك وصائر الى رأيهم فيك ـ وان تكن الاخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون وكن العون على مصالحهم والفاتح لغالقهم والمرشد لضالتهم والرادع لغوايتهم : فقد امر الله بالتعاون على البر والتقوى والتناصر على الحق : ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصورة بريئة من الغل ، ونلقى الله بقلوب سليمة من الضغن . وبعد فالناس تمامة فارفق بهم واحن عليهم ولن لهم ولا تشق نفسك بنا خاصة فيهم ، واترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا وباب الفتنة مغلقا : فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما نقول شهيد وبما نحن عليه بصير .

قال ابو عبيدة فلما تأهبت للنهوض قال عمر كن لدى الباب هنيهة فلى معك دور فى القول . فوقفت وما ادرى ما كان بعدى . الا انه لحقنى بوجه يندى تهللا وقال لي : قل لعلى الرقاد محلمة والهوى مقحمة وما منا الا له مقام معلوم وحق مشاع او مقسوم ونبأ ظاهر او مكتوم . وان اكيس الكيس من منح الشارد تألفا وقارب البعيد تلطفا ووزن كل شيء بميزانه ولم يخلط خبره بعيانه ولم يجعل فتره مكان شبره دينا كان او دنيا ، ضلالا كان او هدى . ولا خير فى علم مستعمل فى جهل ، ولا خير فى معرفة مشوبة بنكر . ولسنا كجلدة رفع البعير بين العجان والذنب . وكل صال فبناره وكل سيل فالى قراره . وما كان سكوت هذه العصابة الى هذ.

---

(٣٥) سجرائه اصدقائه مباهل أى مهملة ، الصوى الاعلام ، المهايع الطرق .

الغاية لعى وشى ولا كلامها انيوم لفرق او رفق • وقد جدع الله انف كل ذى كبر وقصم ظهر كل جبار وقطع لسان كل كذوب • فماذا بعد الحق الا الضلال !! ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج انفاسك؟ ما هذه القذاة التى تغشت ناظرك ؟ وما هذه الوحرة التى اكلت شرا سيفك (٣٦) ؟ وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر واشتملت عليه بالشحناء والنكر ؟ ولسنا فى كسروية كسرى ولا فى قيصرية قيصر : تأمل لاخوان فارس وابناء الاصفر قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ودريئة لرماحنا ومرمى لطعاننا وتبعا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوة وضياء رسالة وثمرة حكمة وأثر رحمة وعنوان نعمة وظل عصمة بين امة مهدية بالحق والصدق مأمونة على الرتق والفتق ، لها من الله قلب ابى وساعد قوى ويد ناصرة وعين باصرة • اتظن ظنا ـ يا على ـ ان ابا بكر وثب على هذا الامر مفتاتا على الامة خادعا لها او متسلطا عليها !! أتراه حل عقودها واحال عقولها ! اتراه جعل نهارها ليلا ووزنها كيلا ويقظتها رقادا وصلاحها فسادا !! لا والله : سلا عنها فولهت له وتطامن لها فلصقت به ومال عنها فمالت اليه واشمأز دونهـا فاشتملت عليه ـ حبوة حباه الله بها وعاقبة بلغه الله اليها ونعمة سربله جمالها ويد اوجب الله عليها شكرها وامة نظر الله اليها • والله اعلم بخلقه وارأف بعباده يختار ما كان لهم الخيرة • وانك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ومعدن الرسالة ولا يجحد حقك فيما اتاك الله ، ولكن لك من يزاحمك بمنكب اضخم من منكبك وقرب امس من قرابتك وسن اعلى من سنك وشيبة اروع من شيبتك

---

(٣٦) الرفع اصل الفخذ من باطن ، العجان الاست : يريد ان منزلتهم ليست حقيرة • الشى اتباع للعى • الخنزوانة الكبر • الوحرة الحقد ، الشراسيف جمع شرسوف وهو مقطع الضلع •

وسيادة لها اصل فى الجاهلية وفرع فى الاسلام ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة ولا تذكر فيها فى مقدمة ولا ساقة ولا تضرب فيها بذراع ولا اصبع ولا تخرج منها بازل ولا هبع[٣٧] • ولم يزل ابو بكر حبة قلب رسول الله وعلاقة نفسه وعيبة سره ومفزع رأيه ومشورته وراحة كفه ومرمق طرفه ـ وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والانصار ، شهرته مغنية عن الدليل عليه • ولعمرى انك اقرب الى رسول الله قرابة ، ولكنه اقرب منك قربة : والقرابة لحم ودم والقربة نفس وروح • وهذا فرق عرفه المؤمنون ولذلك صاروا اليه اجمعون • ومهما شككت فى ذلك فلاتشك ان يد الله مع الجماعة ورضوانه لاهل الطاعة • فادخل فيما هو خير لك اليوم وانفع لك غدا ، والفظ من فيك ما يعلق بلهاتك وانفث سخيمة صدرك عن تقاتك فان يك فى الامد طول وفى الاجل فسحة فستأكله مريئا او غير مرىء وستشربه هنيئا او غير هنىء حين لا راد لقولك الا من كان آيسا منك ولا تابع لك الا من كان طامعا فيك ، يمض أهابك ويعرك اديمك ويزرى على هديك : هنالك تقرع السن من ندم وتجرع الماء ممزوجا بدم وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك فتود ان لو سقيت بالكأس التى ابيتها ورددت الى حالتك التى استغويتها • ولله فينا وفيك أمر هو بالغه وغيب هو شاهده وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها وهو الولى الحميد الغفور الودود •

قال ابو عبيدة فتمشيت متزملا انوء كأنما اخطو على رأسى : فرقا من الفرقة وشفقا على الامة حتى وصلت الى علي فى خلاء فابثثته بثى كله وبرئت اليه منه ورفقت به • فلما سمعها ووعاها وسرت فى مفاصله حمياها قال حلت معلوطة

(٣٧) البازل الجمل القوى الذى دخل فى سنه التاسعة ، الهبع الذى ينتج فى الصيف فيكون ضعيفا •

وولت مخروطة ، وانشأ يقول :

احــدى ليالـيك فهيسى هيسى　　لاتنعمى الليــلة بالتعريـس

نعم يا ابا عبيدة اكل هذا فى انفس القوم !! ويحسون به ويضطغنون عليّ !

قال ابو عبيدة فقلت لا جواب لك عندى انما انا قاض حق الدين وراتق فتق المسلمين وساد ثلمة الامة ، يعلم الله ذلك من جلجلان قلبى وقرارة نفسى . فقال عليّ والله ما كان قعودى فى كن هذا البيت قصدا للخلاف ولا انكارا للمعروف ولا زراية على المسلمين ، بل لما قد وقذنى رسول الله من فراقه واودعنى من الحزن لفقده : وذلك اننى لم اشهد بعده مشهدا الا جدد عليّ حزنا وذكرنى شجنا . وان الشوق الى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره ، وقد عكفت على عهد الله انظر فيه واجمع ما تفرق رجاء ثواب معد لمن اخلص لله عمله واسلم لعلمه ومشيئته وامره ونهيه : على انى ما علمت ان التظاهر عليّ واقع ولا عن الحق الذى سيق اليّ دافع ، واذ قد افعم الوادى وحشد النادى من اجلى فلا مرحبا بما ساء احدا من المسلمين وسرنى . وفى النفس كلام لو لا سابق عقد وسالف عهد لشفيت غيظي بخنصرى وبنصرى وخضت لجته بأخمصى ومفرقى . ولكننى ملجم الى ان القى ربى وعنده احتسب ما نزل بى ، وانى غاد الى جماعتكم مبايع صاحبكم ، صابر على ما ساءنى وسركم ليقضى الله امرا كان مفعولا .

قال ابو عبيدة فعدت الى ابى بكر فقصصت عليه القول على غرة ولم اختزل شيئا من حلوه ومره ، وبكرت غدوة الى المسجد . فلما كان صباح يومئذ واذا عليّ مخترق الجماعة الى ابى بكر فبايعه وقال خيرا ووصف جميلا وجلس زميتا . واستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مكرما له مستاثرا لما عنده . فقال عليّ ما قعدت عن

صاحبكم كارها ولا اتيته فرقا ولا اقول ما اقول تعلة • وانى لاعرف منتهى طرفى ومحط قدمى ومنزع قوسى وموقع سهمى • ولكن قد ازمت على فاسى ثقة بربى فى الدنيا والاخرة • فقال عمر كفكف غربك واستوقف سربك ودع العصى بلحائها والدلاء على رشائها فانا من خلفها وورائها : ان قدحنا اورينا وان متحنا اروينا وان قرحنا ادمينا • ولقد سمعت اماثيلك التى لغزت بها عن صدر اكل بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقالتك ما ان سمعته ندمت على ما قلت • وزعمت انك قعدت فى كن بيتك لما وقذك به رسول الله من فقده ، فهو وقذك ولم يقذ غيرك ؟ بل مصابه اعظم واعم من ذلك وان من حق مصابه ان لا تصدع شمل الجماعة بفرقة لاعصام لها ولا يؤمن كيد الشيطان فى بقائها • هذه العرب حولنا والله لو تداعت علينا فى صبح نهار لم نلتق فى مسائه • وزعمت ان الشوق الى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره ، فمن علامة الشوق اليه نصرة دينه ومؤازرة اوليائه ومعونتهم • وزعمت انك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله والرأفة على خلق الله وبذل ما[٣٨] يصلحون به ويرشدون عليه • وزعمت انك لم تعلم ان التظاهر واقع عليك : واى حق لط دونك؟ قد سمعت وعلمت ما قال الانصار بالامس سرا وجهرا وتقلبت عليه بطنا وظهرا فهل ذكرت او اشارت بك او وجدت رضاهم عنك ؟ هل قال احد منهم بلسانه انك تصلح لهذا الامر ؟ او اومأ بعينه او هم فى نفسه ؟ اتظن ان الناس ضلوا من اجلك ؟ وعادوا كفارا فيك ؟ وباعوا الله تحاملا عليك ؟ لا والله • لقد جاءنى عقيل بن زياد

(٣٨) معلوطة مقتحمة من غير روية ، مخروطة مسرعة ، هيسى سيرى أى سير كان ، يضطغنون يحقدون ، جلجلان قلبى أى حبته ، على غرة أى كما هو ، زميتا حليما ، ازم الفرس على فاس اللجام أى عضها وقبض عليها • وفاس اللجام الحديدة المعترضة منه فى الحنك : يريد انه الجم نفسه •

الخزرجي فى نفر من اصحابه ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجى وقالوا .
ان عليا ينتظر الامامة ويزعم انه اولى بها من غيره وينكر على من يعقد الخلافة .
فانكرت عليهم ورددت القول فى نحرهم حيث قالوا : انه ينتظر الوحى ويتوكف
مناجاة الملك فقلت ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد . اكان الامر معقودا بانشوطة
أو مشدودا باطراف ليطة(٣٩) ؟ كلا . والله لاعجماء بحمد الله الا افصحت
ولا شوكاء الا قد تفتحت . ومن اعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابق
عقد لشفيت غيظى . وهل ترك الاسلام لاهله ان يشفوا غيظهم بيد او بلسان ؟
تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها واقتلع جرثومتها وهور ليلها وغور سيلها وابدل
منها الروح والريحان والهدى والبرهان . وزعمت انك ملجم . ولعمرى ان من اتقى
الله وآثر رضاه وطلب ما عنده امسك لسانه واطبق فاه وجعل سعيه لما وراه . فقال
عليٌ مهلا يا ابا حفص !! والله ما بذلت ما بذلت وانا اريد نكثه ولا اقررت ما
اقررت وانا ابتغى حولا عنه . وان اخسر الناس صفقة عند الله من آثر النفاق
واحتضن الشقاق ، وفى الله سلوة عن كل حادث وعليه التوكل فى جميع الحوادث .
ارجع يا ابا حفص الى مجلسك ناقع القلب مبرود الغليل فسيح اللبان فصيح اللسان
فليس وراء ما سمعت وقلت الا ما يشد الازر ويحط الوزر ويضع الاصر ويجمع
الالفة بمشيئة الله وحسن توفيقه . قال ابو عبيدة فانصرف عليّ وعمر . وهذا
اصعب ما مر على بعد رسول الله .

تلك هى الرسائل الشفوية التى تبودلت – على ما يزعم ابو حيان التوحيدى –
بين ابى بكر وعمر من جهة وبين علي بن ابى طالب من جهة أخرى . وقد تبودلت

(٣٩) لط جحد ، يتوكف ينتظر ، الانشوطة عقدة يسهل انحلالها اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت ، الليطة قشرة القصبة التى تليط بها أى تلزق .

تلك الرسائل – على حد زعمه – فى اوائل خلافة ابى بكر – عن طريق ابى عبيدة – عندما امتنع عليٌ من مبايعة ابى بكر بالخلافة . وقد اسند ابو حيـــان – كما رأينا – قصة الرسائل المذكورة الى ابى حامد (احمد بن بشر المرروذى) الذى اسندها بدوره الى الخزاعى بمكة عن ابى ميسرة عن محمد بن ابى فليح عن عيسى بن دوأب بن المتاح (مولى ابى عبيدة) عن ابى عبيده . والرسائل المزعومة اما ان تكون صحيحة الوقوع من الناحية التاريخية ، او ان تكون موضوعة وملفقة (كلها او بعضها) سواء أكان ذلك من حيث الافكار التى تضمنتها – دون الاسلوب – ام من حيث تلك الافكار والاسلوب معا . واذا كانت الرسائل المذكورة ملفقة فاما ان يكون ابو حيان هو الذى لفقها او ان يكون قد لفقها شخص آخر (عاش قبل ابى حيان او عاصره) . وقد وقف الذين تصدوا للبحث فى تلك الرسائل موقفين متناقضين : ادعى احدهما انها موضوعة وزعم الثانى انها ليست كذلك . اما نحن فنميل الى الاعتقاد بانها موضوعة على السنة من نسبت اليهم ، ويغلب على ظننا ان ابا حيان التوحيدى هو الذى وضعها . وقد سبقنا الى ذلك – بالطبع – ابن ابى الحديد . والى القارىء نص رأيه فيها (شرح نهج البلاغة المجلد الثانى ص **٥٩٧**)

« قلت الذى يغلب على ظنى ان هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع ، وانه من كلام ابى حيان التوحيدى لانه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة اشبه . وقد حفظنا كلام عمر ورسائله وكلام ابى بكر وخطبه فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ... وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى . واين ابو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين !! ومن تأمل كلام ابى حيان عرف هذا الكلام من ذلك المعدن خرج . ويدل عليه انه اسنده الى القاضى ابى حامد المرروذى وهذه

عادته فى كتاب البصائر : يسند الى القاضى ابى حامد كل ما يريد ان يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارها لان ينسب اليه ... ومما يوضح لك انه مصنوع ان المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والاشعرية واصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والامامة لم يذكر احد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية . ولقد كان الرضى يلتقط من كلام امير المؤمنين اللفظ الشاذ والكلمة المفردة عنه ... وكان الرضى اذا ظفر بكلمة من هذه فكأنما ظفر بملك الدنيا ، ويودعها كتبه وتصانيفه . فأين كان الرضى عن هذا الحديث ؟ ... وكذلك من قبله من الامامية كابن النعمان وبنى نوبخت وبنى بابويه وغيرهم ، وكذلك من جاء بعده من متأخرى متكلمى الشيعة واصحاب الاخبار والحديث منهم الى وقتنا هذا . واين كان اصحابنا عن كلام ابى بكر وعمر لعلي ؟ وهلا ذكره قاضى القضاة فى المعنى مع احتوائه على كل ما جرى بينهم حتى انه يمكن ان يجمع منه تاريخ كبير مفرد فى اخبار السقيفة ؟ ! وهلا ذكره من كان قبل قاضى القضاة من مشايخنا واصحابنا ؟ ومن جاء بعده من متكلمينا ورجالنا ؟ وكذلك القول فى متكلمى الاشعرية واصحاب الحديث كابن الباقلانى وغيره ، وكان ابن الباقلانى شديدا على الشيعة عظيم العصبية على عليّ ، فلو ظفر بكلمة من كلام ابى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هجيراه ودأبه ؟ والامر فيما ذكرناه من صنع هذه القصة ظاهر لمن عنده ادنى ذوق من علم البيان ومعرفة كلام الرجال ولمن عنده ادنى معرفة بعلم السير واقل انس بالتواريخ . »

يتضح مما ذكرناه ان ابن ابى الحديد يعتبر « الرسائل » المذكورة موضوعة من قبل ابى حيان التوحيدى لانها بكلامه اشبه وذلك لما عليها من أثر التوليد والوان

البديع الشائعة فى عصره ، وانه ـ كعادته فى امثال تلك الامور ـ اسندها الى غيره ليتملص من مسئوليتها • وان الرسائل المذكورة لاتشبه رسائل عمر المعروفة ، ولا تقرب من خطب ابى بكر فى اسلوبها • ومما يدل على انها من وضعه انه لم يعثر عليها الا عنده • وان الباحث لا يستطيع العثور على تلك الرسائل ـ او على جزء منها ـ عند المتكلمين على اختلاف مذاهبهم ومقالاتهم وان رسالة علي" خاصة كان من الممكن ـ لو صحت ـ ان يلتقطها الشريف الرضى ، كما ان رسالتى ابى بكر وعمر ـ لو وجدتا حقا ـ لا لتقطهما قاضى القضاة او الباقلانى • فوضع هذه الرسائل اذن واضح وميسور لمن له ادنى ذوق فى علم البيان واقل اطلاع فى التاريخ •••

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان تقول ان لما ذكره ابن ابى الحديد صلة قوية باخلاق ابى حيان وطريقته فى التأليف • فاذا تصدى الباحث لدراسة اخلاق ابى حيان ـ عن طريق مؤلفاته ـ امكنه ان يزعم انه « اكثر الرواية عن غيره وان اغلب ما اورده من اراء فى اللغة والادب والتاريخ والفلسفة والفقه عزاه الى اساتذته او معاصريه • شهد الناقدون ومؤرخو الادب هذا الاكثار من الرواية مع وحدة الاسلوب وطريقة العرض على الاغلب • فاتهموا الرجل باصطناع الاراء ونسبتها الى غيره اما تخفيا من وزرها واما رفعا لشأنها بنسبتها الى محدث او فيلسوف ذى شأن • ونتيجة تتبعى لمروياته ••• وجدتها تنقسم ثلاثة اقسام : قسم يأخذ فيه الفكرة غفلا فيدخل فيها وسائل التهذيب ••• ثم يعرضها بأسلوبه ••• وهو عندها يحتفظ بحق صاحب الفكرة من نسبتها له ، ثم يشير الى ما ادخل فى سبيل استقامتها واستوائها من تغيير وزيادة • وقسم يحافظ فيه على الفكرة بحدودها

التامة ، فلا يزيد ولا ينقص ، ولا يهذب ولا يشذب ، ولكن يلبسها اسلوبه وعبارته ·
وقسم ثالث يحتفظ فيه بالفكرة والعبارة جميعا ولا يدخل عليه من عمله شيئا ···
وعلى هدى التقسيم السابق يصح ان نسأل : فى أى قسم من مروياته يتجه الاتهام
بالوضع ؟ افى ذلك الذى اعترف بما ادخل عليه من زيادة ونقص وتحوير وتبديل
وخرق ورقع ؟ ان كان فى هذا فما سبيلنا الى اتهامه ؟··· لا سبيل لنا الى اتهامه
الا بثبات ان الافكار فى نفسها ليست لهؤلاء الذين نسبت اليهم ··· اننى على بليغ
تتبعى لم اعثر على اتهام له ـ استثنى شيئا قليلا ـ ··· ويلحق القسم الثانى بالاول
فى هذه الناحية ··· ولم يبق مجال الاتهام مقبولا الا فى هذا الذى ادعى ابو حيان
روايته فكرة وعبارة ··· واستطيع ان ازعم ان هذا القسم الاخير لم يتهم فيه
الا فى موارد محدودة البست ثوب التعميم والشمول ··· بعض هذه التهم يتصل
بتحريف ـ يقال ـ انه ادخله على الاحاديث النبوية ، وبعضها بنصوص ادبية
رواها عن مشايخه ومعاصريه ··· ومنها الرسائل المتبادلة بين ابى بكر وعمر وعليّ
بحادثة السقيفة(٤٠) » ·

يتضح مما ذكرنا ان ابا حيان متهم ، وان كان ذلك الاتهام مبالغا فيه من حيث
الكثرة العددية (بنظر بعض الباحثين) · ولم يستطع المدافعون عن ابى حيان نفى
التهمة عنه ، بل بالعكس : فقد اقروها من حيث الاساس وان حددوا مجالها·اما نحن
فلا يعنينا ـ فى هذه الدراسة ـ سعة مجال الوضع عند ابى حيان بمقدار ما يهمنا
اتصافه به ، وخاصة عندما اخفق المعتذرون عنه فى محاولتهم تبرئة ساحته عن
تلفيق احاديث على النبى وتزوير رسائل على الخلفاء الراشدين · ومما يؤيد وجاهة

---

(٤٠) عبدالرزاق محىالدين ، ابو حيان التوحيدى ص ٧٨ ـ ٨٤ ·

ما ذهبنا اليه ان ابا نصر الشجرى ذكر انه سمع المائنين يقول : « قرأت الرسالة المنسوبة الى ابى بكر وعمر – مع ابى عبيدة – الى عليّ على ابى حيان فقال : هذه الرسالة عملتها ردا على الرافضة • وسببه انهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء فيغلون على حال عليّ (٤١) » •

وهناك – بالاضافة الى ما ذكرناه – أمور أخرى تثبت ان الرسائل الانفة الذكر – بالشكل الذى جاءت فيه – ملفقة من الناحية التاريخية (بغض النظر عمن لفقها) • وادلتنا على ذلك هى :

١ – اسلوبها الذى اشرنا اليه • فهى بالاضافة الى كثرة السجع المنبث بين جملها تحتوى على الوان من البديع لم يألفه النثر فى صدر الاسلام فى الرسائل وفى الخطب على السواء • فقد كان النثر آنذاك – كما هو معروف – تؤدى معانيه بايسر اساليب التأدية ، وبالفاظ اغلبها يجرى مجرى الفاظ القرآن والحديث • وهذا يعنى ، بعبارة أخرى ، مساوقة الذوق والابتعاد عن التكلف والتقعر فى الاسلوب ، وتجنب الاطالة والتكرار • اما الرسائل المذكورة فمحشوة بصنوف الوان البديع : وفى مقدمتها – كما لاحظنا – الجناس ، التام منه وغير التام ، والطباق (الايجابى منه بصورة خاصة) ، والمقابلة • وهى أمور شاعت فى الرسائل بعد عهد الخلفاء الراشدين ، والف الكتاب استعمالها – على نطاق كبير – فى القرن الرابع الهجرى – وهو الزمن الذى عاش فيه ابو حيان • ومما يلفت النظر ان الرسائل الآنفة الذكر تكاد كل جملة منها ان تشتمل على لون واحد او اكثر من المحسنات البديعية التى اشرنا اليها • اما الجمل التى خلت من ذلك فيلوح

---

(٤١) المصدر نفسه ص ١٠٨ •

للباحث ان ابا حيان تقصد ان يجعلها كذلك ايهاما للباحثين .

٢ ـ تماثل تلك الرسائل فى الاسلوب تماثلا تاما بحيث لا ينتبه السامع أو القارىء الى انها رسائل مختلفة لاشخاص مختلفين فى اساليبهم التعبيرية على الاقل . ولولا اشارة ابى حيان الى اسماء « اصحابها » لخيل للمرء انها تعود لشخص واحد .

٣ ـ قدرة ابى عبيدة العجيبة على حفظها ـ بمجرد سماعها ـ على ما فيها من الفاظ غريبة : وهو أمر لا يصدقه العقل ولا تقره الخبرة الا فى معرض الاساطير والروايات الخيالية .

٤ ـ اطناب ابى بكر فى الثناء على ابى عبيدة فى صدر رسالته بشكل لايجيزه ابو بكر لنفسه لو انه كان صاحبها . كما انه ليس لابى عبيدة من المآثر فى عهد النبى ما يستحق معه مثل ذلك الاطراء .

٥ ـ التناقض الكبير بين قول ابى بكر لابى عبيدة : « امض الى عليّ واخفض له جناحك واغضض عنده صوتك واعلم انه سلالة ابى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالامس مكانه » وبين تأنيبه عليا وغمزه اياه ولمزه فى ثنايا الرسالة : فقد قال ابو بكر لعلي : « اعجمة بعد افصاح !... ادين غير دين الله !! » . هذا مع العلم انه لم تكن هناك ضرورة لاستعمال هذه العبارات القاسية خاصة ان ابا بكر ـ لو صحت الرسالة ـ كان راغبا فى استمالة عليّ ليبايع له بالخلافة دون استثارة او تحد . وهناك ايضا عدم انسجام بين قول ابى بكر لابى عبيدة : « قد اردتك لامر خطره مخوف واصلاحه من اعظم المعروف ولئن لم يندمل جرحه ... وقع اليأس واعضل البأس » وبين قوله لعليّ : « ما هذه الوعوعة

باللسان !! والقعقعة بالشنان ! » فموقف من الخطورة على ما رأينا هو أكثر دور شك من وعوعة باللسان وقعقعة بالشنان ٠

٦ ـ لو صحت رسالة ابى بكر فليس هناك مبرر لرسالة عمر التى احتوت من حيث الاساس على عبارات ذكرها ابو بكر من حيث المعنى مضـافا اليهـا عبارات مثيرة لا لزوم لها !! ٠

٧ ـ الرد المتهافت فى « رسالة » عليّ فقد جاءت تلك الرسالة خلوا من مناقشة الحجج التى اشتملت عليها رسالة ابى بكر المزعومة ٠ كما ان عليا بدا ـ فى معرض النقاش مع عمر ـ على غير حقيقته من الرجولة والشجاعة وقوة العارضة ٠

٨ ـ اشارة عمر فى رسالته الى استيلاء العرب على سلطان كسرى ـ وذلك فى اوائل خلافة ابى بكر فى حين ان ذلك الاستيلاء لم يتم كما هو معلوم الا فى خلافة عمر ٠ فكأن واضع الرسائل نسى ذلك او تناساه ـ وهو من ابسط حقائق التاريخ الاسلامى ٠ والخلاصة : اننا نقول ـ فى واضع تلك الرسـائل ـ ما قاله ابو جعفر الاسكافى فى الجاحظ الذى وضع رسالة مماثلة سماها العثمانيـة : « اما القول ٠٠٠ فممكن والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ : فانه ليس على لسانه ـ من دينه وعقله ـ رقيب ، وهو من دعوى الباطل غير بعيد ٠ فمعناه نزر وقوله لغو ومطلبه سجع وكلامه لعب ولهو ٠ يقول الشىء وخلافه ، ويحسن القول وضده : ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حد قائم [٤٢] » ٠

ذلك ما يتصل بالشق الاول من الموضوع : وهو التحدث عن تلك الرسائل الملفقة من حيث اسلوبها وملابساتها العامة ٠ اما الشق الثانى من الموضوع فهـو

---

(٤٢) رسائل الجاحظ ص ٣٨ ٠

التحدث عن تلك الرسائل من حيث مادتها والافكار التى انطوت عليها • وقبل ان نفعل ذلك يجمل بنا ان ننبه القارىء الى انه ربما لاحظ معنا ـ اثناء قراءته تلك الرسائل ـ انها تحتوى على طائفة كبيرة من الافكار ، وان مناقشتها بتفاصيلها تحتاج الى دراسة خاصة قائمة بذاتها • ولهذا فسوف نحصر البحث فى المناطق البارزة منها :

١ ـ وضع ابو حيان التوحيد ـ على لسان ابى بكر ـ طائفة من الامور النى تسترعى انتباه الباحثين :

(آ) قال مخاطبا عليا : « ادين غير دين الله ؟ اخلق غير خلق القرآن ؟ اهدى غير هدى النبى ؟ » اهو عليّ ـ يا ابا حيان ـ من يريد دينا غير دين الله !! وخلقا غير خلق القرآن !! وهديا غير هدى النبى ! ام هو غيره ؟ هل فى سيرة الامام ـ منذ نشأته حتى مصرعه ـ حادثة واحدة لاتنسجم هى ونصوص القرآن وسيرة النبى ؟ •

(ب) « انك والله عارف باستجابتنا لله ولرسوله وبخروجنا عن اوطاننا واموالنا واولادنا واحبتنا : هجرة لله ونصرة لدينه فى زمان انت فيه فى كن الصبا وخدر الغرارة وعنفوان الشبيبه ـ غافل عما يشيب ويريب لا تعى ما يراد ويشاد ••• ونحن فى اثناء ذلك نعانى احوالا تزيل الرواسى ونقاسى اهوالا تشيب النواصى ••• لانتنظر عند الصباح مساء ••• ولا ندفع فى نحر امر الا بعد ان نحسو الموت دونه ولا نبلغ مرادا الا بعد الاياس من الحياة عنده •» نعم يا ابا حيان : عليّ عارف بخروجهم • ولكنك اغفلت علمهم بخروجه فى سبيل الله • ثم هل تعتبر الحصول على الخلافة ـ يا ابا حيان ـ ثمنا لذلك الخروج ؟ واذا كان الامر كذلك فقد

خرج آخرون فى سبيل الله فلماذا حرمتهم من الخلافة ؟ واذا كان الخروج والتعذيب فى سبيل الله هو مقياس الكفاءة للحصول على الخلافة الا يكون عمار بن ياسر اولى بها من غيره ؟ ثم هل كان عليّ انذاك فى كن الصبا وخدر الغرارة ؟ وما الاهوال التى قاساها ابو بكر مع النبى وقصر عليّ عنها ؟! أكان ذلك اثناء حصار بنى عبدالمطلب فى الشعب ؟ ام اثناء المبيت على فراش النبى عندما تآمر على قتله كفار قريش ؟ ام عند الثبوت معه فى احد ؟ ام عند مبارزة فارس العرب عمرو بن عبد ود اثناء حصار المدينة فى حرب الخندق ؟ ام عند خيبر وملاقاة بطلها مرحب ؟

(ج) « اتظن يا علي ان الرسول ترك الامة سدى : عباهل مباهل ، طلاحي مفتونة بالباطل مغبونة عن الحق لا رائد ولا ذائد • » ان هذا القول عليك لا لك يا ابا حيان • ان عليا هو القائل ان الرسول « لم يترك أمته سـدى عبـاهل مباهل ••• »

(د) « لقد شاورنى الرسول فى الصهر فذكر فتيانا من قريش فقلت اين انت من عليّ ؟ فقال انى اكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه • » كذبت يا ابا حيان على رسول الله فى هذا الامر العائلى المحض • كذبت فى ذلك كذبة مزدوجة : فى الاستشارة ذاتها وفى اتهام الرسول لعلي بميعة الشباب •

(هـ) « ولقد سألت رسول الله عن هذا الامر فقال لى يا ابا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه ولمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لى ؟ » هل ذهب المسلمون الى ابى بكر وهو بداره فى السنح وقدموا له الخلافة ؟ وهل ذهب ابو بكر الى السقيفة ليعبر عن رغبته عن الخلافة ؟ وهل وترك جثمان النبى مسجى على فراش الموت ليفهم المسلمين آنذاك انه غير راغب فيها ؟

٢ ـ ووضع ابو حيان على لسان عمر طائفة من الامور تستلزم البحث والاستقصاء :

(آ) « اتظن يا علي ان ابا بكر وثب على هذا الامر مفتانا على الامة خادعا لها او متسلطا عليها ؟ ... سلا عنها فولهت له وتطامن لها فلصقت به ومال عنها فمالت اليه واشمأز دونها فاشتملت عليه . » اية امة هذه التى يتكلم عنها ابن الخطاب ؟ هل الذين اجتمعوا فى السقيفة هم الامة ؟ وهل سئل ابو بكر تلك « الامة » المجتمعة فى السقيفة فولهت له عندما نازع الانصار خلافة النبى ؟

(ب) « وانك بحيث لا يجهل موضعك من الرسالة ... ولكن لك من يزاحمك بمنكب اضخم من منكبك وقرب امس من قرابتك وسن اعلى من سنك وشيبة اروع من شيبتك وسيادة لها اصل فى الجاهلية وفرع فى الاسلام ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة ... » ما هى تلك المواقف التى انفرد بها ابو بكر دفاعا عن الاسلام وقصر دونها الامام ؟ وأى اصل فى الجاهلية لابى بكر يفوق به الامام ؟ واذا كانت شروط الخلافة لا تتجاوز ما ذكره ابن الخطاب فلماذا زاحم ابو بكر سعد بن عبادة فى أمر الخلافة مع توافر تلك الشروط فيه ؟

(ج) « ولم يزل ابو بكر حبة قلب النبى وعلاقة نفسه وعيبة سره ومفزع رأيه ومشورته وراحة كفه ومرمق طرفه . » ان هذا القول يا ابا حيان ذم ضمنى لرسول الله . ان رسول الله اسمى من ان يلجأ الى بشر فى رأيه وسره : انه يفزع الى الله عند الشدائد ، الى الله دون سواه حسب تعاليم الاسلام وبنص كتاب الله العزيز .

(د) « ولعمرى انك اقرب الى رسول الله قرابة ولكنه اقرب منك قربة :

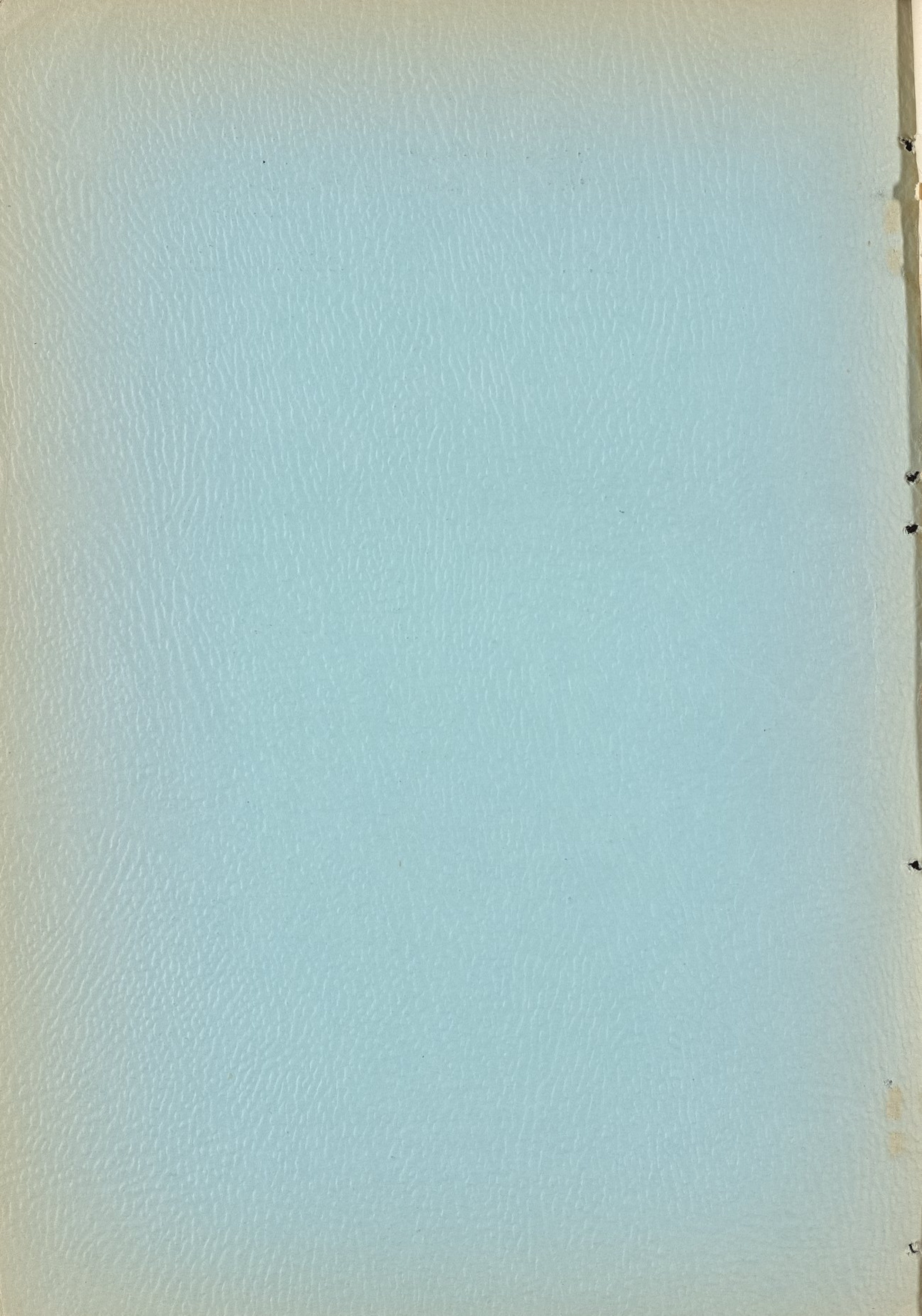
والقرابة لحم ودم ، والقربة نفس وروح . » ان عليا ـ يا ابا حيان ـ اقرب الى رسول الله قرابة وقربة : فهو قريبه فى النسب وقريب منـــه فى العقيـدة والاخلاق . وقد سار على منواله ـ كما رأينا ـ فى تصرفاته العامة والخاصة على السواء .

(هـ) ذكر ابو حيان ـ على لسان عمر ـ قول عمر لعليّ (بعد البيعة) « ان الاسلام لم يترك لاهله ان يشفوا غيظهم بيد او بلسان ، وان تلك (أى محاولة شفاء الغيظ باليد او باللسان) جاهلية استأصل الله شأفتها... » فى حين ان « رسالته » الاولى والثانية (قبل البيعة المزعومة وبعدها) من اشد انواع شفاء المرء غيظة باللسان ومن اكثرها ايغالا فى الجاهلية التى استأصل الله شأفتها من الناحية التشريعيـــة النظرية ولم تستطع الوراثات الاجتماعية ان تستأصلها من نفوس القوم (كأبى حيان ومن هم على شاكلته من القـدامى والمحدثين) او تخفف من حدتهـا وتقلل من صرامتها على الاقل .

جدول الخطأ والصواب

لقد حصل مع الاسف فى الكتاب بعض الاغلاط المطبعية والى القارىء أهم ما عثرنا عليه منها .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ز	٥	بقدير	بتقدير
٤	١٨	يقاس	ينحصر
٧	١٤	اقتض	اقتفى
١١	٦	يعملون	يعلمون
٢٧	١٨	معروفة	معروفه
٣٢	٥	بقولهم	بقـوله
٥٠	٦	كلا	كل
٥٦	١١	يخرضون	يخوضون
٥٧	١٣	يحذف اسم	مروان بن الحكم
٥٧	١٣	شاكلهم	شـاكلهما
٦٠	١٤	أمور	امورا
٦٤	٣	اقيم	ان اقيم
٦٤	١٥	فاتنترت	فانتثرت
٦٥	١١	تتحلى	تتجلى
٦٧	١٨	عليـا	علىّ
٦٧	٢٥	من	بن
٦٨	١٨	الاتصاف	الانصـاف
٨٧	١٩	اثبهم	انبهم
٧٩	٩	المعبى	المعيى
١٠٩	٨	فاننـا	فاتنـا
١١٠	١٣	النى	النبى
١١٢	١	يتـابع	بتـابع
١٢٨	٣	بكر	بكرة
١٣٠	١	فخافقوا	فخافوا
١٣٠	١٢	تزعم	نجزم
١٣٠	١٢	القضبة	القضيـة
١٣٦	٣	كنت	فأن كنت
١٣٦	٤	فى	فىّ
١٤١	١٧	اختلاف	اختلاق
١٤٢	٩	العز	العزيز
١٤٦	٥	دلاهما	ودلاهمـا
١٦٠	٥	لنيبه	لنبيـه
١٦١	١١	قادين	فادين
١٦٢	٦	رغبـه	رغبـة



كتب أخرى للمؤلف

أ ـ ماثل للطبع :

١ ـ صالح جبر : كفاءاته وظروفه السياسية . يصدر فى ١٩٥٨/٦/٦ بمناسبة مرور عام على وفاته .

٢ ـ ملاحظات على التعليم فى العراق . مناقشة اسس سياسة التعليم فى العراق من الناحيتين النظرية والتطبيقية العملية فى ضوء مبادىء النظام الديمقراطى وعلم النفس الحديث .

٣ ـ المبادىء والرجال : دراسة تحليلية عامة للمبادىء النظرية ـ وخاصة السياسية منها ـ فى ضوء تصرفات الاشخاص الذين يتظاهرون بأنهم يحملونها .

٤ ـ العباسيون فى التاريخ : دراسة تحليلية عامة لطائفة من الجرائم الكبرى فى التاريخ .

ب ـ انجز طبعه :

٥ ـ السلطة والفرد . مترجم عن الانكليزية ـ بقلم برتراند رسل : ١٩٥٠ .

٦ ـ التربية وفلسفتها : ١٩٥٢ . (نفد)

٧ ـ التاريخ : مجاله وفلسفته : ١٩٥٤ .

٨ ـ جون ديوى : حياته وفلسفته : ١٩٥٥ .

٩ ـ العلوم الطبيعية وأثرها فى سير المدنية الحديثة : ١٩٥٦ .

١٠ ـ عليّ ومناوئوه : ١٩٥٦ (نفد) وسيعاد طبعه منقحا قريبا .

١١ ـ الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام : ١٩٥٦ .

١٢ ـ فلسفة الحكم عند الامام : ١٩٥٧ .